

الواحات المفقودة

أحمد حسنين بك

ترجمة: مارغريت إسطفان

مراجعة وتحرير: د. أحمد إيبش

الواحات المفقودة

الواحات المفقودة

أحمد محمد حسنين بك

ترجمة مارغريت إسطفان

مراجعة وتحرير

د . أحمد إيبش

أبو ظبي للثقافة والتراث

سلسلة
روّاد المشـرق العربـي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربـي»، التي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم »هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث« اليوم بنشر باكورة أجزائها بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها، وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

توطئة
بقلم مايكل هاغ
Michael Haag

«الواحات المفقودة»، أحد الكتب الكلاسيكية التي تتناول موضوع استكشاف الصحراء، يروي فيه أحمد حسنين كيف كانت رحلته على الجمل، التي امتدّت من مدينة سلوم على ساحل البحر الأبيض المتوسط المصري، غرب «مرسى مطروح»، متّجهاً من واحتي سيوة والكُفرة نحو المجهول. وبدأ حسنين، الرجل الأول الذي يعبر الصحراء الليبية، وتسمى الصحراء الشرقية، رحلته المحفوفة بالمخاطر التي طالت ثمانية أشهر في العام 1923، والتي قام خلالها بجولة امتدّت من شواطئ «بحر الرمال العظيم» إلى مدينة الأُبيّض في السودان، فقطع بالتالي مسافة 3500 كيلومتر تقريباً، وسمحت له هذه الرحلة باكتشاف واحات أركِنو والعوينات المفقودة الواقعة في أقصى الزاوية الجنوبية الغربية من مصر. وفي العوينات، اعترت حسنين الدهشة عند رؤيته منحوتات الحيوانات الصخرية، بما في ذلك رسوم لأسود وزرافات ونعامات وغزلان، وقد تكون لأبقار أيضاً. وغاص في أعماق الصحراء من دون أن تعرف خطاه سبيلاً، ولكنّه استطاع العثور على ما يدلّ على وجود بشري مزدهر هنا منذ عشرة آلاف سنة قبل أن يقوم التصحّر بقذف هؤلاء البشر نحو وادي النيل، وقد أخذ حسنين صوراً عن اكتشافه هذا.

نجح هذا الاكتشاف، بالإضافة إلى صفحات هذا الكتاب، بتحفيز مخيّلات المستكشفين الذي سيأتون فيما بعد، مثل رالف باغنولد، الذي استعان بقوافل من مركبات موديل—ت فورد(هو من سيخترع فيما بعد خلال الحرب العالمية الثانية ما عرف بمجموعة الصحراء البعيدة المدى، الرائدة في شركة «ساس»)، والمستكشف كاونت لاديسلوس ألماسي الذي حصل على اكتشافه بواسطة طائرة صغيرة وشكّل نموذجاً للشخصية المسماة على اسمه في كتاب «المريض الإنكليزي». ولكن مغزى مغامرة حسنين وانجازات حياته بلغت أكثر من ذلك.

وبعد عودة حسنين من رحلته في الصحراء واكتشافه الواحات المفقودة في العام 1923، عرض عليه تجار أميركيون مبلغ 20000 دولار لكي يقوم بجولة في الولايات المتحدة ويلقي محاضرات، مرتدياً «جلابيته» البدوية. وكانت الصحافة الأميركية قد أطلقت عليه لقب «لورَنس العرب» المصري، في الوقت الذي كان فيلم «الشيخ» لرودولف فاليتينو يحتلّ، قبل عامين، المركز الأوّل على شباك التذاكر والعالم لا يزال يتلهّف لمعرفة أكثر حول اكتشاف عالم الآثار البريطاني هاورد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون في العام 1922. وكانت مصر والصحارى ترمز إلى الإحساس والرومنسية، في حين أن حسنين أصبح مادّة دسمة يتمّ تداولها، كما شكّل بالنسبة إلى الصحف التي كان يقرأها الناس في أوروبا والعالم الجديد، شخصيّة بارزة، ولكن غامضة. غير أنّ حسنين رفض العرض، قائلاً «إن بلدي يرفض كسب المال بهذه الطريقة». وتجدر الإشارة إلى أن حسنين عندما ذهب إلى أميركا العام 1924، كان قد أصبح لهذه البلاد قدرة مختلفة تماماً عن ذي قبل.

احتُفل في مصر باكتشاف حسنين الذي اعتبر انجازاً وطنياً وقفزة عظيمة في المعرفة الجغرافية. وترك هذا الاكتشاف نوعاً من الشعور بالرضى. وعلى الرغم من أن الأوروبيين قد اكتشفوا قارة أفريقيا عن طريق أنهارها، إلا أن حسنين كان أوّل من من نجح في عبور الصحراء الليبية، من شمالها إلى جنوبها، وكان أوّل من عبر بحر الرمال العظيم. وقبل أن يشرع في الرحلة، أعلن حسنين أن «الصحراء الليبية تشكّل جزءاً من أرضنا، ويتحتّم علينا التأكّد من حدودنا هناك، الأمر الذي يساعدنا على معرفة بلادنا أكثر. وبفضل عبور الصحراء، أكون قد حافظت على بعض حقوق أمّتنا». وفي أغسطس من العام 1923، بعد عودته من الصحراء، ألقى حسنين خطاباً أمام حشد كبير من الأمراء والوزراء وكبار المسؤولين وأدباء بارزين. فلخّص فوائد اكتشافه العلمية ووضّح بطريقة دقيقة الموقع الجغرافي لكلّ منطقة مرّ بها، لا سيما واحتا أركِنو والعوينات، ما سمح برسم خريطة مفصّلة عن الأراضي المصرية الغربية. في نوفمبر من العام نفسه، كُرّم حسنين في القاهرة في دار الأوبرا باحتفال ضخم حضره الملك فؤاد الذي منحه لقب «البك» (بيه). بيد أنّ حسنين أدرك دائماً أنّ انجازه الأعظم هو اكتشافه الرسوم الصخرية في العوينات. وفي مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» الأميركية الصادرة في سبتمبر 1924، كتب حسنين: «هذه الرسوم هي أهمّ ما اكتشفته في رحلة الـ 2200 ميل». واعتبر أن هذه الرسوم تسلّط الضوء

على مرور حضارة متطوّرة ترتكز على تربية المواشي، والتي وقعت ضحية تغيير مناخي حادّ، يرجعه حسنين إلى فترة ما قبل تواجد الجمل في الصحراء قرابة العام 500 ق.م. ولكن لكم من الوقت قبل ذلك؟ فهذا أمر لم يستطع حسنين أن يحدّده. أضف إلى أن «هذا الأمر هو مثابة لغز يُترك لأبحاث علماء الآثار».

في كتاب «الواحات المفقودة» الذي نُشر العام التالي، يشرح حسنين كيف حاول إخفاء حماسته لهذا الاكتشاف لمدّة نصف نهار، حتى إنه تجنّب زيارة بعض الأماكن التي توجد فيها المنحوتات الصخرية، خشيةً إثارة الشكوك بين أبناء تيبو الذين يعتقدون أنّ هذه الرسوم هي من صنع الجنّ. وفي الواقع، اكتشف حسنين المنحوتات الصخرية الأولى التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي عثُر عليها للمرة الأولى في الصحارى المصرية. بعبارة أخرى، قام حسنين باكتشاف أوّل برهان على أن الحضارة المصرية قد تكون انطلقت من احدى الصحارى الليبية الخضراء، وليس، كما هو متعارف عليه عالمياً، من وادي النيل. ووفقاً لمايكل هوفمان، المؤرخ البارز الذي كتب في مجلة «مصر ما قبل الفراعنة» (1979)، لقد «كشف حسنين النقاب عن لغزٍ أثريّ، أصبح حلّه الآن في متناول أيدينا».

وكان لافتاً قول حسنين بأنّ الدم البدوي يجري في عروقه، شارحاً كيف استغوته الصحراء لفترة طويلة من الزمن. غير أنه أشار إلى انتمائه أيضاً إلى الطبقة التركية – الشركسية العليا، وأنه كان يعمل في السلك الديبلوماسي، وطلب من وزارة الخارجية المصرية إذناً ليقوم برحلته بحثاً عن الواحات المفقودة. والآن بعد عودته من رحلته، تولّى منصب سكرتير أوّل في السفارة المصرية في واشنطن. وكان لا يزال في الثالثة والثلاثين عندما أصبح أقلّ برتبتين من السفير نفسه. بعدها، أُرسل إلى لندن وكانت وظيفته حسنة الراتب هناك حيث أُوكل اليه من جديد المنصب نفسه. بالإضافة إلى ذلك، حاز وسام مؤسسي «الجمعية الجغرافية الملكية». وفي العام 1925، استدعي من جديد إلى القاهرة ليكون مستشاراً للملك فؤاد. هذا وقد ظلّ حسنين لبقية حياته قريباً من العرش المصري، مستشاراً مؤثراً لا غنى عنه، لا سيما خلال سنوات الحرب العالمية الثانية المروّعة. وعلى الرغم من ذلك، يقول أحد المقربين من حسنين إن «هذا الأخير كان يفضّل أن يبقى بعيداً من هذه الاحتفالات والزخارف والعظمة ليعيش في خيمة في الصحراء. كان يعشق الصحراء التي كانت بالنسبة له حديقة يسودها الاطمئنان».

ولد أحمد محمد حسنين في القاهرة العام 1889، وكان والده الشيخ محمد حسنين البلاقي طالباً مميزاً في جامع الأزهر الذي يعود إلى آلاف السنين والذي كان الجامعة الأقدم في العالم. وكان جدّه أحمد مزهر حسنين باشا، الأميرال الأخير في القوات البحرية المصرية قبل الاحتلال البريطاني العام 1882. وعندما جاءه الأمر بتسليم أسطوله إلى القاعدة البحرية البريطانية في مالطا، قام الأميرال حسنين بالإبحار لبعض الوقت نحو البحر المتوسط قبل أن يقول عبارته الشهيرة «مالطا مافيش» أي لا وجود لمالطا.

وفي مقدّمة كتاب «الواحات المفقودة»، نسخة العام 1925، التي كتبها السيد رينيل رودّ، أعطى هذا الأخير نبذة مسهبة عن مسيرة حسنين الدراسية والمهنية. والجدير بالذكر أن الكاتب رينيل رود كان أيضاً القنصل البريطاني العام، وما لبث أن أصبح سفير بريطانيا لدى روما وممثل بريطانيا في عصبة الأمم. أضف إلى أن ابنه فرنسيس، الذي كان صديق حسنين أثناء وجودهما في أوكسفورد قبل الحرب، قد كتب «شعب الحجاب» وهو كتاب يدور حول شعب الطوارق[1]، ونُشر في العام 1926.

فبعد أن أمضى حسنين عاماً في كلية الحقوق في جامعة القاهرة، أرسله والده إلى جامعة أوكسفورد حيث دخل كلية باليول العام 1910، ومن ثمّ عاد إلى مصر العام 1914، مباشرة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وفي مصر، انضمّ إلى وزارة الداخلية وخدم كمساعد عربي خاص في فريق قائد القوات البريطانية في مصر.

في العام 1917، أرسل حسنين وفرنسيس رود في مهمّة خاصة تتعلّق بالبدو السنوسيين الذين كانوا يتواجدون على جانبي الحدود المصرية – الليبية.

في تلك الأثناء، كانت ليبيا لا تزال جزءاً من الأمبراطورية العثمانية. وكان السنوسيون، الذين سلّحهم الأتراك والألمان، مقتنعون بضرورة شنّ هجمات على الحدود المصرية الغربية، الأمر الذي تطلّب 35000 جندي بريطاني بقيادة العقيد ميلو تالبوت لاحتواء هذه الهجمات. لم يكن السنوسيون يشكّلون قبيلة، بل أتباع طائفة صوفية أصولية تناضل

(1) الطوارق ويطلق عليهم أحيانا «رجال الصحراء الزرق» شعب من الرحّل والمستقرين الأمازيغ يعيش في الصحراء الكبرى خاصة في صحراء الجزائر، ومالي، والنيجر وليبيا وبوركينا فاسو. والطوارق مسلمون سنيون مالكيون مع خليط من العقائد الأفريقية، ولهم نفس هوية سكان شمال أفريقيا ويتحدثون اللغة الأمازيغية بلهجتها الطوارقية. (المترجم)

لحماية استقلالها الخاص. وبعد خسارتهم في احدى المعارك، حصلت المفاوضات التي لعب فيها حسنين، وهو مسلم وابن أحد رجال الدين التقاة، دوراً مهماً دفع بالسنوسيين إلى تعيين السيد إدريس*[1]، الذي كان مقرباً من البريطانيين وحلفائهم قائداً جديداً لهم.

وكان ارسال حسنين إلى بني سنوسة مثابة الخطوة الأولى الفعلية التي خطاها نحو تحقيق الحلم الذي لطالما راوده بدخول الكُفرة، مركز الطائفة السنوسية في عمق الصحراء الليبية. وكما شرح حسنين في الفصل الأول من الكتاب، أن ما من أحد توغّل في الصحراء ووصل إلى الكُفرة سوى الألماني غيرهارد رولفس العام 1879، الذي يُرجّح أنه قُتل وأُتلفت أدواته وسجلاته العلمية. وبعد انتهاء الحرب، التقى حسنين من جديد السيد إدريس، وبفضل الثقة المسبقة الراسخة بينهما، أذن هذا الأخير لحسنين بالدخول إلى الكُفرة وقدّم له ما يلزم للقافلة، وإلا لكان من المستحيل القيام بهذه الرحلة.

في هذه الأثناء، خطّط فرنسيس رود لمرافقة حسنين في هذه المغامرة، غير أنه اضطّر للتخلي عن هذا المشروع، في حين أنّ صديقته، الكاتبة الرحّالة مسز روزيتا فوربس، المرأة المطلقة الجميلة والمفعمة بالحيوية والتي تسعى لخوض مغامرة غريبة من نوعها، لم تكن لتفوّت هذه الفرصة. فراح حسنين يتزلّف إلى السيد إدريس المعارض ليسمح لروزيتا بمرافقته في الرحلة. وفي شمال الكُفرة، افتقرا إلى الحيوية الكافية ليكملا الرحلة، فبسبب عدم معرفة روزيتا بقراءة البوصلة، ضيع المستكشفان وجهتهما وكادا أن يموتا عطشاً. ومن المؤسف أن حسنين كُوفئ بشكل سيئ على الجهد الذي بذله والأخطار التي تكبّدها نيابةً عن روزيتا، فما إن عادت هذه الأخيرة إلى إنكلترا حتّى أصدرت كتاباً بعنوان «سرّ الصحراء: الكُفرة (1921)»، صوّرت فيه نفسها على أنها المنّظم الوحيد لهذه الرحلة والقوة المحرّكة لها. وفي المقابل، اختصرت دور حسنين إلى حد جعلته خادمها المأجور. فأكسبها هذا الكتاب صفة «المستكشف المقدام» وجعلها مشهورةً في جميع أنحاء العالم. ولكن كما كتبت في ذلك الوقت المستكشفة المستشرقة غرترود بل[2]: «في

(1) إدريس السنوسي أول ملك يحكم ليبيا من 24 ديسمبر 1951 وحتى 1969. كان هو أول ملك يحكم ليبيا بعد الاستقلال عن إيطاليا وقوات الحلفاء في 24 ديسمبر 1951. (المترجم)

(2) غرترود بيل أو ميس بيل، مغامرة ومستشرقة وعالمة آثار وعاشقة للصحراء توفيت العام 1926 على أثر صراع مع مرض السرطان. (المترجم)

ما يتعلّق بالنفخ في البوق، فهذا صحيح، هي فريدة من نوعها»، أضف إلى أنها «لا تعرف كلمة عربية واحدة»، ومن دون حسنين «لما استطاعت القيام بأي شيء». وحتى في مدخل قاموس «ناشيونال بيوغرافي»[1] الذي يتناول سيرة حياة روزيتا، وهو قاموس لا يتطرّق عادةً إلى ملاحظات انتقادية، يُذكر فيه أن كتاب روزيتا «يقللّ عمداً من مساهمة رفيقها في الرحلة، الأمر الذي أثار استياء دام لفترة زمنية طويلة».

وعلى الأرجح هذا الذي يفسّر ملاحظات رينيل رود الواردة في مقدّمته حيث قال إن حسنين قد استشاره «في مسألة حساسة للغاية» أثبت فيها أنه «كريماً في نصائحه لي في كثير من الأمور ولأنني أعلم أن هناك طريقة أخرى للتعبير عما أعني، «رجل نبيل وعظيم». والجدير بالذكر أن روزيتا وقعت في حب حسنين، ولكن تفاصيل هذه المسألة تكمن وراء تحفّظ حسنين. وفي القاهرة، يُقال إن روزيتا كانت تتسلل إلى خيمة حسنين وتحاول اغراءه، غير أنه كان يرفضها. وقال حسنين في هذا الشأن «كنت مصصماً على عدم الاساءة إلى الله ورحمته، فنحن في وسط صحراء مجهولة ومخاطر الموت تحيط بنا من كل الجهات». وإذا كان قد حصل أمر ما بينهما، فإنّ قراءات روزيتا الخاطئة للبوصلة، على ما يبدو، قد أبردت رغبات حسنين.

وفي «الواحات المفقودة»، كتب حسنين: «كنت في رحلتي الأولى وسط الصحراء، فضللناالطريق وأضعنا معه الأمل، فلم يعد هناك أثر للواحة التي التمسناها، ولا سبيل إلى أي بئر قريبة منّا. وكانت الصحراء قاسية وموحشة، فنذرت إن خرجنا منها أحياء، فلن أعود إليها ثانية. مضى عامان على ذلك النذر، فإذا بي في الصحراء نفسها، وفي البقعة عينها التي ضللنا فيها الطريق، وعند البئر ذاتها التي أنقذت حياتنا في الرحلة السابقة. قد يكون للصحراء أسلوبها الخاص في مناداتك ولكن لها أيضاً ملاذّها، وليس من السهل أن تدرك سرّ سحرها ولا سبب جاذبيتها». كما يصف حسنين في مكان آخر حبّه للصحراء قائلاً: «فحبّنا للصحراء يشبه حبّ رجل شديد الوله بامرأة فاتنة ساحرة، ولكنّها قاسية القلب، تجافيه فتُظلم الدنيا في وجهه، وإذا حلّ الظلام، تبسّمت له فيتحوّل العالم بأسره إلى جنّة.

(1) أو ما يُعرف بـ «موسوعة أكسفورد للسير القومية» وهو قاموس يعرض أهم الشخصيات التي مرّت في تاريخ بريطانيا ونشرت النسخة الأولى منه العام 1885. (المترجم)

وهكذا عندما تبتسم الصحراء، لا يبقى بعدها مكان على الأرض جدير بأن تعيش فيه»، ولكن، ليس برفقة امرأة لا تجيد قراءة البوصلة.

تتخلّل شخصية حسنين ملامح صوفية تشكّل جزءاً من سحره وجاذبيته. وفي مقدمة يوميات القاضي الأميركي في المحاكم المختلطة في مصر جاسپر برينتون Jasper Brinton، الصادرة العام 1927، يصف هذا الأخير ما حصل خلال مأدبة عشاء. ويقول: «جلست إلى جانب زوجة الوزير الايطالي، وكانت الأجواء مملّة، غير أنني أحببت حديثي مع حسنين بك الذي راح يخبرني عن رحلته المقترحة عبر الصحراء العربية، وهي رحلة تمتد على مسافة 900 ميل على ظهر الجمل، وهو رفيق محبوب وساحر. وما انفكّ يتكلّم عن الدين، معتبراً أن معظم الديانات العظيمة انبثقت من الصحراء، منوهاً بصمت الصحراء الذي يدفع إلى التأمل، الأمر الذي يوفّر له رحلة جيّدة ومريحة».

ومن الواضح أن حسنين لم يغيّر رأيه في ما يتعلّق بالتوغل في أحشاء الصحارى، غير أنه لم يكن ليقوم بمثل هذه الرحلة مرة ثانية. وفي العام 1926، تزّوج من لطفية يسري، وهي امرأة جميلة وعصرية، كان قد التقى بها في واشنطن عندما كان السكرتير الأوّل لوالدها سيف الله يسري باشا، سفير مصر لدى الولايات المتحدة آنذاك. وكانت أمّه الأميرة شويكار، صاحبة ثروة طائلة وصاحبة بيت ضخم جداً في مدينة القاهرة، أصبح اليوم مكان اقامة وزير الخارجية المصري. وكان الملك فؤاد زوج شويكار الأول، قبل أن يتربّع على العرش. فعندما حاول أن يحصرها ضمن جناح حريمه هربت شويكار وانفصلت عنه.

وضمّت أعمال حسنين الترفيهية المبارزة بالسيف (المعروفة بـ«الشيش»)، ومثل مصر في دورة الألعاب الأولمبية العام 1920 في أنتڤيرپن[1]. بعد هذه المرحلة، بدأ حسنين يتدرّب على قيادة الطائرات. وفي العام 1930 حاول أن يكون أوّل من يسافر بمفرده من أوروبا إلى مصر. وبعد إقلاعه من قاعدة هستون الجوية، قرب لندن، ووصوله إلى پيزا[2]، تحطّمت طائرته أثناء الهبوط. وتجدر الاشارة إلى أنّ حادثاً ما وقع في نابولي أدّى إلى توقف الطائرة البديلة عن العمل، وقُدّم لحسنين طائرة ايطالية عوضاً عنها، ولكنها ما لبثت أن تحطّمت

(1) مدينة في شمال بلجيكا في إقليم الفلاندر. (المترجم)

(2) هي ثالث أكبر مدن ايطاليا، تقع في جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط. (المترجم)

خلال رحلة تجريبية، ما أدّى إلى وفاة اثنين من ركّابها. عندها نفد صبر الملك فؤاد وأمر حسنين بالعودة إلى القاهرة، حيث القصر يعتمد على وجوده. والجدير بالذكر هنا أنه تم تقدير حسنين على العلاقة الديبلوماسية التي أقامها بين انكلترا ومصر، فكرّمته الحكومة البريطانية ومنحته العام 1927 وسام ڤيكتوريا من رتبة فارس[1] (KCVO)، فأصبح لقبه السير أحمد حسنين. ووفقاً لتقرير سري لوزارة الخارجية فإنّ «معرفة حسنين بالإنكليزية وسحر أدائه جعل العديد من الإنكليز يعتقدون أنّه لا يناسب تطلّعات المصريين الوطنية، وأنّه سيكون من الخطأ العمل على هذا الافتراض».

وبعد وفاة الملك فؤاد العام 1936 وتولي ولي العهد فاروق الحكم، وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره، رقّي حسنين من رتبة بيك إلى باشا وتولّى رئاسة الديوان الملكي، وانتُدب لملازمة ولي العهد في رحلته الدراسية. والجدير بالذكر أن أرملة الملك فؤاد، الشابّة الجذابة، الملكة نازلي، هي من حثّت على اتخاذ هذا القرار. وبموجب المعاهدة الإنكليزية – المصرية الموقّعة في العام نفسه، وافقت مصر على إقامة حلف عسكريّ مع بريطانيا أثناء الحرب، وباستثناء ذلك كانت مصر هي التي تدير بالكامل شؤونها الداخلية. ولكن ذلك، لم يمنع السير مايلز لامبسون، السفير البريطاني المتصلّف، من رعاية «الصبيّ»، الذي كان يشير اليه باستمرار بالملك فاروق. وعندما خلف فاروق والده على العرش، قال لامبسون: «أدركت تماماً أنه سيكون من الصعب على الملك الشاب التعامل مع الأمور المستقبلية الصغيرة، وسيشعر بالحاجة إلى وجود أحد إلى جانبه يمكن الاتّكال عليه».

ولكن كلّما كان لامبسون يصرّ على مسألة «الصبي»، كلّما تمرّد الملك فاروق عليها وزاد بالتالي إعجابه بحسنين، إلى حدّ اعتباره بطلاً، فوثق به وتمثّل به، ولكنه كان يخشاه في الوقت عينه. أضف إلى أن حسنين كان الوحيد الذي يستطيع التحدّث إلى الملك فاروق بصراحة تامّة، إلى درجة الفظاظة أحياناً، غير أن مما لا شكّ فيه أنه ظلّ مخلصاً إخلاصاً تاماً للملك.

وفي تلك الحقبة، كتب إدوارد فورد، مدرّس الملك فاروق في اللغة الإنكليزية، عن

(1) يعتبر هذا الوسام أعلى جائزة عسكرية من الكومنولث البريطاني للشجاعة. (المترجم)

حسنين قائلاً: «كنتُ أجلس بالقرب منه خلال معظم وجبات الطعام، وكنت أستمتع عندما يقوم باسترجاع ذكرياته في أوكسفورد. كان حسنين سريع البديهة وذا لباقة كبيرة، يهتمّ بمختلف المواضيع، وكان شخصيّة مصرية فريدة من نوعها، نحيلاً، شاحب الوجه، ذا ملامح حادّة، وشعر رماديّ مسرّح إلى الوراء فوق جبينه العالي، فكان يبدو بدوياً تماماً. وكانت عيناه غائرتين لا يظهر عليهما النعاس، كما كان يتمتّع بأسلوب مصقول تفتقر اليه الشخصية المصرية الخشنة. ولم يكن لحسنين أي ميول سياسية، على الرغم من أنه كان من أشدّ المؤمنين بحقّ مصر في أن تحكم نفسها بنفسها.

وعلى الرغم من كونه مسلماً متحمّساً لديانته، فقد كان يناهض أي عدوانية يظهرها أصحاب طموحات آخرون في هذه البلاد. وعلى الرغم من أن ثقافته وذكاءه غربيان، فقد ظلّت عقليّته وطبيعته شرقيتين. وكان يتمتّع بلباقة شرقية، وعندما تتحاور معه تكتشف أنه يمتلك أسلوباً شرقياً يؤدي بك إلى الخروج عن الطريق التي تكون قد اخترتها للتهرب بشكل لبق».

في غضون ذلك، وقع حسنين والملكة في الغرام، وبعد ان انفصل عن زوجته لطفية، وسط فضيحة كبيرة، زوّج شيخ الأزهر مصطفى المراغي حسنين من نازلي سرّاً في العام 1937.

وفي يونيو 1940، دخلت ايطاليا الحرب. فشكّلت الجيوش الايطالية بأعدادها الهائلة تهديداً جدياً، في حين طلبت بريطانيا ضمانة من الحكومة المصرية بأنها ستستمر باحترام أحكام التحالف العسكري المنصوص عنه في معاهدة 1936. وفي هذا الاطار، أصبح سفير بريطاني سابق رئيساً للوزراء، وأُقيل وزير دفاع مناهض لبريطانيا ورئيس الأركان المصري المشتبه به والذي لم يكن متعاوناً، وعُيّن حسنين رئيساً للبلاط الملكي، ما سمح له بأن يتّصل مباشرة بالسفير البريطاني السير مايلز لامبسون. وتمّت التحضيرات في الوقت المناسب لمواجهة الاجتياح الايطالي في سبتمبر 1940، وعندما تولّى القائد العام للجيش البريطاني الجنرال ويفل المواجهة في شهر ديسمبر، هاتف بحماسة كبيرة لامبسون ليسأله عن أي جديد، فأخبره لامبسون عن إنجاز ويفل السابق. فكتب لامبسون في مذكّراته: «أعرب حسنين عن رضى كبير وقال إنّه سيطلع الملك فاروق على ذلك، فمن دون شكّ،

حسنين مناهض للإيطاليين، ولم يكن يخفي سروره لما يروى عن هزيمتهم». وما جعل كل ذلك غريباً أنه في فبراير 1942 أمر لامبسون القوات البريطانية والمصفّحات بمحاصرة قصرعابدين (قصر الملك فاروق) في القاهرة، كما طلب تنحّي الملك عن العرش، ضناً منه أن الملك يتودّد إلى الايطاليين. في الواقع، كان لامبسون ووزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن يقومان بلعبة ترمي إلى أبعد من ذلك. ففي حين كان فاروق يأخذ على محمل الجدّ أنه ملك مستقل على مصر مستقلة، شكا لامبسون ذلك إلى إيدن، وأراد الرجلان أن يُظهِر الملك مرونة أكثر، وطالبا أيضاً بأن يكون رئيس الوزراء من اختيارهما.

وكان لامبسون على قدر كاف من النفوذ ليجبر فاروق على التوقيع على وثيقة تنازل عن العرش، فكان الملك على وشك القيام بذلك لولا تدخّل حسنين الذي همس في أذن الملك، فوافق فاروق على تقديم التنازلات بشأن تعيين رئيس الوزراء ولكنه طلب البقاء على العرش، فقبل لامبسون العرض، ولو أنه أثّر بعض الشيء على طبيعة الأمور. ومن وجهة نظر حسنين، التي بفضلها حظي على الأرجح بالدعم من معظم الشعب المصري، فإنّ الصواب هو الحفاظ على النظام الملكي بغض النظر عن مزايا الملك. ومن دون شكّ، أثار عمل لامبسون غضباً وطنياً من التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية، كما زعزع استقرار الحكومة الدستورية ووتّر العلاقات بين بريطانيا ومصر إلى أن انفجرت عند وقوع كارثة السويس.

ولكن قبل ذلك بوقت طويل، كان حسنين خارج الإطار. فمنذ أن كان في الصحراء، كان يقول غالباً إنه على موعد مع الموت، ولكن حتى الآن لم يمُت ولا الموت زاره في الوقت المناسب. ولكن في فبراير 1946، كان الموعد مع الموت، فتوفّى حسنين في حادث سير غريب عندما انزلقت شاحنة إنكليزية واصطدمت بسيارته على أحد جسور القاهرة، وكان ذلك في أحد الأيام الماطرة. بعدها، تطابقت آراء المعلقين المصريين والأجانب على أن فاروق بدأ يفقد سيطرته على الأمور. وفي هذا الاطار، كتب مبعوث بريطاني «كان ذلك أول الأحداث المؤلمة التي بدأت بعدها علاقاتنا بمصر تتزعزع حيث كان حسنين مستشار الملك الشاب، الذي يتمّتع ببرودة الأعصاب والتجربة الكبيرة».

دُفن حسنين في مدينة الأموات[1] في القاهرة، ووضعت رفاته في قبة الضريح الذي بناه له صهره، المهندس المصري المعماري حسن فتحي. وبعد حياة حملته ألوف الأميال عبر رمال الصحارى المجهولة، وفتحت أمامه باب العصور الغابرة، وبدت وكأنها تنتمي إلى قصة من قصص ألف ليلة وليلة، أسلم محمد حسنين باشا الروح، وهو في الخامسة والستين من العمر.

(1) تقع مدينة الأموات بجانب مصر القديمة، وهي مقبرة السراة والأغنياء، وتشبه مدافنها المبنية على الطراز العربي قصوراً مشيدة بقبابها وأبراجها وزخارفها. (المترجم)



أحمد حسنين في بداية محاولته

للطيران منفرداً من إنكلترا إلى مصر

مع كامل الولاء والامتنان

لصاحب الجلالة الملك فؤاد الأوّل

الذي بفضل مساعدته ودعمه تمت هذه الرحلة

المقدمة

بقلم رينيل رود

Rennell Rodd

طلب مني صديقي أحمد حسنين أن أكتب مقدمة صغيرة عن سجل رحلته الاستكشافية الفريدة من نوعها. كانت هذه الرحلة الأكثر فرادة نظراً لأن الرحلة ونتائجها التي سمحت له بملء فراغ كبير في معرفتنا بالقارة الأفريقية وتحديد مواقع بدقة، أكّد الرائد الكبير في البحوث الأفريقية الرحالة الألماني غيرهارد رولفس وجودها بشكل تقريبي. والجدير بالذكر أن رولفس قام بهذه البحوث وأشرف عليها وحيداً من دون أي مساعدة أو رفقة سوى دلائله وتواجده الشخصي. في الواقع، لا يحتاج المسافر حسنين الذي كرّم عمله بوسام «مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية» إلى مقدّمة تعرّف الجمهور البريطاني به. ولكنني أرحّب بالفرصة التي أتيحت لي لتسليط الضوء على انجاز قام به في ميدان مختلف ألا وهو اصدار كتاب بلغة تمرّس بها رغم انها ليست لغته الأمّ، واني متأكّد من أن كلّ من سيقرأ هذا الكتاب سيشهد له بأهميته الاستثنائية.

ولكن، في البداية، وبعيداً عن خدش تواضعه العظيم، لا بدّ أن أعطي لمحة عن الكاتب الذي يعرفه معظم أبناء بلادي بكونه فقط مسافراً شجاعاً. ومن دواعي سروري أنني تعرّفتُ إليه طيلة هذه السنوات، فلقد كان صديق ابني في كلية باليول في جامعة أوكسفورد.

وبعد خبرة لا بأس بها استخلصت أن تجربة ارسال طلاب من الشرق للدراسة في جامعة غربية يجب أن تتم فقط في حالات استثنائية ومع شباب يمتازون بطبع استثنائي. فبالنسبة لأحمد حسنين، أعتقد أن كل من يعرفه يدرك أن هذه التجربة قد حققت نجاحاً منقطع النظير. فلقد حافظ على أفضل ما في ميراثه الروحي والوطني في حين أنه كان يكتسب تعاطفاً وتقديراً من شعب يمتاز بتاريخ اجتماعي وخبرة مغايرين تماماً. وقد يكون

الدم الذي يجري في عروق أجداده البدو، هو الذي جعل الاتصال بهم أسهل بالنسبة له لأنّ البريطاني والبدوي غالباً ما يعرف الواحد منهما الآخر بفضل نوع من غريزة القرابة الذي يفرض الاحترام المتبادل بينهما. وبالمناسبة، تجدر الإشارة إلى أن أحمد حسنين قد مثّل جامعة أوكسفورد في رياضة المبارزة. وفي مطلق الأحوال، فمن الممكن لحسنين أن يكون مصرياً مخلصاً لبلاده، إلا أنه يمكن أن يبني صداقةحقيقية مع أبناء الأمّة تعتبر أن العدالة لا تتحقّق دائماً بفضل مصر الصغرى.بدأ حسنين مسيرته المهنية في بلده الأمّ، في وزارة الداخلية المصرية. خلال الحرب وعندما طبّقت الأحكام العرفية في مصر، كان حسنين على صلة وطيدة مع صديقه القديم الجنرال السير جون ماكسويل. وبعدها انخرط في السلك الديبلوماسي، ما وفّر له خبرة واسعة، نادراً ما يكتسبها شاب في سنه، كما أن مؤهلاته اللغوية ميّزته بصورة بارزة. كان حسنين، من وقت لآخر، يستشيرني في مسائل تعنيه شخصياً، بصفتي صديقاً أفوقه سناً وخبرةً، وبصفتي والد صديقه في كلية باليول. وبالتالي، أسمح لنفسي الادّعاء بأنني أعرفه عن كثب، ولا أستطيع إلا أن أسجل شهادتي بأنه في كل مثل هذه المسائل، وخصوصاً في مسألة حساسة للغاية طرحها علي، وجدته على الدوام رجلاً كريماً في نصائحه. ولأنني أعلم أن هناك طريقة أخرى للتعبير عما أقصد، أستطيع وصفه بعبارة واحدة «رجل نبيل عظيم».

وشكّلت قصة استكشاف حسنين مساحات صحراوية واكتشافه واحتين، كان وجودهما مجرّد أسطورة غامضة، سجلاً لمغامرة عظيمة تختبر قدرة تحمل الكائن البشري. سُردت هذه القصة بتواضع كبير وتجنّب حكيم للمبالغة لكي لا يصعب على القرّاء، عديمي الخبرة في تقلبات السفر في الصحراء، إدراك مدى الشجاعة والتفاني اللذين يتطلبهما نجاح مثل هذه الرحلة. بالإضافة إلى ذلك، لا بدّ من التحلّي بفضيلة أخرى هي فضيلة البراعة للدخول إلى مناطق كان السكان المنعزلون فيها يثيرون الكثير من الشكوك حول أي دخيل، وكان حسنين يتمتّع بهذه الفضيلة.

ولعلّ القراء الإنكليز يميلون إلى التفكير بالصحراء عن طريق العبارات التي جعلتها الرومانسية مألوفة بالنسبة إليهم، والتي لا يدلّ الواقع المرير عليها كثيراً. وفي الواقع، تمتلك الصحراء رومانسيتها الخاصة، رومانسية الولاءات والتضحيات في ظلّ القدر المحتّم

الذي يلعب دوراً في الرومانسية الحقيقية. ويمكن أن تجد ذلك الآن مكتملاً في أي كتاب يضع على عاتقه ايصال جمال الحقيقة، متناولاً الجمال الذي قد تتمتع به الصحراء والتأثير الروحي والإلهام الناجمين عن الخلوات العظيمة، بالاضافة إلى الوعي الدائم السائد هناك للحدود الضيقة الفاصلة بين الحياة والموت. وبغض النظر عن أهمية هذا الكتاب الخاصة، باعتباره سجلاً للاكتشافات، ونظراً لتسليطه الضوء على أصول الحضارة السنوسية وتأثيرها، سيلقى ترحيباً كبيراً لدى العديد من الأفراد لأن صفحاته تحمل القارئ بعيداً إلى بيئة من السلام الكبير.، فيبتعد، ولو لبرهة، عن جوّ لم يعرف معنى الخشونة والبساطة والمنافسة. سيجد نفسه يتواصل مع أفراد، غير مدركين وغير آبهين لإلحاحات عالم مضطرب، يتحمّلون قدرهم الشاق ولكن لا يفقدون الأمل بحياة كريمة. فيرى القارئ كيف أن الحرمان والخطر وحتى الرتابة هي عوامل يضيئها إيمانهم الثابت بيد العناية الإلهية المرشدة لهم، الأمر الذي يبعث به على الأرجح الأمل الصامت بأن هؤلاء السكان المقيمين في هذه الأماكن الوحيدة سيظلّون بمنأى عن اجتياح العالم المتمدّن.

فإنّ ملذّاتهم بسيطة إلى حدّ مؤثر، كما هي حال أفكارهم. وقد نتشارك هذه الأفكار والملذات البسيطة لساعة من الوقت لأنها مصوّرة لنا بفضل كاتب، يبدو لي أنه يضفي لمسة سحرية حين ينقل بإخلاص إطار الأماكن وألوانها.في الخلاصة، لا بدّ أن أضيف أن حسنين بك قد أكّد لي أكثر من مرّة، خلال محادثة جرت بيننا، ما تمّ اقتراحه في إهداء كتابه، أي انه لم يكن ليقوم بهذه المغامرة لولا المساعدة والدعم اللذين تلقاهما من جلالة الملك فؤاد. ومما لا شكّ فيه أن تشجيع مثل هذه المشاريع هو عامل موروث في الملك فؤاد. والأمر الذي يبعث على الاطمئنان هو أن تشعر أن تشجيع جلالة الملك قد سبق هذا البحث التاريخي والعلمي نظراً لما قدّمه ولا يزال يقدّمه هذا المجال الغنيّ.لا يمكن لإنجاز حسنين بك والروح التي كتب بها كتابه الا أن يستقطبا تعاطف أبناء بلدي، هذا وقد أضاف لخدماته ما يعزّز روح التآلف بين البلد الذي تلقى دراسته فيه ووطنه الأمّ الذي يسعى كلّ أبنائه إلى استعادته.

رينيل رود

كلمة شكر

انّني ممتنّ جزيل الامتنان للدكتور جون بول مدير مصلحة مساحة الصحراء المصرية، فقد تفضّل بتلخيص النتائج العلمية لرحلتي في الذيل الأول من هذا الكتاب. كما أنّ نصائحه وإرشاداته التي زودني بها في استخدام الأجهزة العلمية التي اصطحبتها في رحلتي لا يمكن تقديرها بثمن. وبالفعل، كنتُ محظوظاً لأنني استطعتُ الاستفادة من مخزون معرفته الواسعة.

وأشكر مرّة أخرى الدكتور بول والسيد براون وغيرهما من أعضاء مصلحة المساحة المصرية لقيامهم بتحضير خرائط رحلتي المرفقة بهذا العدد. كما أنني أثني على الدكتور هيوم والأستاذ مون الموظّفين في مصلحة المساحة الجيولوجية لمساعدتهما بتقسيم النماذج الجيولوجية التي أحضرتها معي وكتابة التقرير الذي وضعته في الذيل الثاني لهذا الكتاب. وبفضل مساعدتهما الكبيرة، أضيف الكثير على نتائج اكتشافي.

وقد تفضّل اللواء سبنكس باشا ومشعلاني بيك من وزارة الحربية المصرية وتعهدا بجزء كبير من أدوات الرحلة من حقائب وجعب ومعدات المخيم الأخرى التي استخدمتها أثناء رحلتي. وإنّي لأشكرهما على العناية والإرشادات. ولا يسعني إلا أن أشكر الاهتمام والرعاية اللذين قدّماهما لي خلال تحضيراتهما كافة.

وقد تكرّم صديقاي المخلصان السيد الشريف الإدريسي وابنه السيد ميرغني الإدريسي فقدّما لي النصائح والمساعدة العظيمة أثناء رحلتي إلى الكُفرة العام 1921. وطيلة أيام رحلتي، كنت أتلقى المساعدة الأكثر صدقاً وفعالية من الكولونيل هنتر باشا، المدير السابق لمصلحة المناطق الحدودية، والكولونيل م.ماكدونال، حاكم الصحراء الغربية[1]، والرائد

(1) الصحراء الليبية أو بحر الرمال العظيم كما يطلق عليها في مصر، الصحراء الغربية هي صحراء تقع في شمال أفريقيا، وهي جزء من الصحراء الأفريقية الكبرى، وهي تشمل الصحارى الموجودة في جنوب غرب مصر وشرق ليبيا وشمال غرب السودان. (المترجم)

دي هلبرت والكابتن هتون، والكابتن هاريسون من ضباط مصلحة المناطق الحدودية، وعبد العزيز فهمي أفندي مأمور السلّوم، وأحمد كامل أفندي مأمور سيوة، والملازم لولر في سيوة.

وعند وصولي إلى السودان مهّد لي الطريق بعناية المرحوم السير لي ستاك باشا[1]، سردار الجيش المصري وحاكم السودان سابقاً. ولا تفوتني هذه المناسبة من دون أن أعرب عن خالص امتناني لجميع إخواني السودانيين، وكذلك المسؤولين في الحكومة السودانية الذين قاموا بمساعدتي خلال رحلتي، وأخصّ بالذكر سعادة مدونتر باشا القائم بمنصب حاكم السودان العام، واللواء هدلستون باشا القائم بأعمال السردار، والقائمقام م. حافظ بيك، قائد فرق الجنود في الخرطوم والسيد ماك ميكل، السكرتير المدني المساعد، والكابتن فيليبس وصمويل عطية بيك وأحمد السيد الرفاعي في الخدمة المدنية السوداني، والسيد شارل ديبوي، القائم بأعمال حاكم دارفور، والصاغ أ. حلمي، أركان حرب الفاشر، والسيد كريج، حاكم كردفان، والبكباشي أ. خليل، أركان حرب الأبيض، بالاضافة إلى الضباط والمسؤولين وكتاب العدل في الفاشر والأبيض.

وأسجّل شكري الخالص للبكباشي[2] ج. ف. فولي، قائد المدفعية في حرب الفاشرعلى أبيات الشعر الجميلة التي زيّنت الفصل الأخير من الكتاب.

وفي الختام، إنّني ممتنّ بشكل خاص للسيد هارولد هولند والسيد و.هـ. ل. واتسون، وهو صديق قديم لي في كلية باليول، اللذين قدما لي المساعدة القيّمة والمشورة السديدة لتحضير هذا الكتاب.

---

(1) سير لي اوليڤر فيتسموريس ستاك Sir Lee Oliver FitzMaurice Stack (1868 – 1924) سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام إبان الإحتلال البريطاني لمصر والسودان.

(2) رتبة بكباشي في الجيش العثماني (وتلفظ بينباشي) تعني المقدم في نظامنا الحالي، وهو يعلق على كتفيه نسراً ونجمة. (المترجم)

الصحراء

في رحلتي الأولى وسط الصحراء، ضللنا الطريق وأضعنا معه الأمل، فلا أثر للواحة التي التمسناها، ولا سبيل إلى أي بئر قريبة منّا. وكانت الصحراء قاسية وموحشة، فنذرت، إن خرجنا منها أحياء، فلن أعود اليها ثانية. مضى عامان على ذلك النذر، فاذا بي في الصحراء نفسها، وفي البقعة عينها التي ضللنا فيها الطريق، وعند البئر ذاتها التي أنقذت حياتنا في الرحلة السابقة.قد يكون للصحراء أسلوبها الخاص لمناداتك ولكن أيضاً لها ملاذّها، إلا أنه ليس من السهل أن تدرك سرّ سحرها ولا سبب جاذبيتها. ولعلّ الجزء الأروع من حياة الصحراء يكمن عند حلول الليل فيها. قد تسير طيلة النهار على أقدام مقرّحة لأن المشي قد يكون أهون عليك من ركوب الإبل، فتلازم القافلة ساجي العينين وتجرّ قدميك على وقع خطوات الإبل، وقد جفّ حلقك في حين أن لا أثر لبئر تروي عطشك منها. يسير رفقاؤك في القافلة بهدوء وسكون، وقد خفتت أصواتهم ولم يعودوا راغبين في الغناء. قلّص التعب المضني وجوههم، وزاغت عيونهم فامتزجت زرقة السماء بصفرة الرمال الباهتة. ويعمّ السكون الأجواء، لا تخرقه الا خضخضة قرب المياه المصنوعة من جلد الخراف، المتدلية على جوانب الإبل.

إننا في الصحراء لا نتحدّث كثيراً، فالصحراء تعلّم السكوت. وفي حال أحدق بنا الخطر نتحاشى النظر بعضنا إلى بعض، ولا تعود هناك حاجة إلى الكلام، فكلّ منّا يعرف ما يحصل ويتحملّه بصبر وجلد، فالتذمّر مثابة إلقاء اللوم على اللّهالعلي القدير، وهذه معصية لا يقدم عليها قطّ أيّ بدويّ. ففي عقيدته ان الله قد اختار له هذه الحياة وقدّر عليه سلوك هذه الطريق التي قد تقوده إلى الموت الذي اختاره الله عزّ وجلّ له.

وبالتالي لا بد من الرضوخ لهذا القدر. فالبنسبة للبدويّ، لا مفرّ مما كتبه الله ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾.[1]

(1) سورة النساء: 78

ولكن في مثل هذه الأوقات العصيبة، تقطع على نفسك وعداً ألا تعود إلى الصحراء إذا خرجت منها حياً. ثمّ، ينتهي عمل اليوم وتحطّ الرحال، ولا تنصب الخيام، لأنّ الرجال مُنهكون وغافلون عن التفكير عما حلّ بأجسادهم. ثمّ يهبط الظلام ويحلّ الليل مرصعاً بالنجوم أو قد ترى القمر ساطعاً. وشيئاً فشيئاً، تحنّ إلى الحديث بعد سكوت يوم طويل. فيقوم صغير القافلة بإلقاء نكتة طريفة بصوت أعلى من صوت رفاقه. ثمّ تتوافق أصوات البدو من دون أن يدركوا، وترتفع إلى ذلك المقام، ويدور بالتالي الحديث. وهكذا تبدأ الصحراء بنشر سحرها.

ويسري نسيم الليل عليلاً فينعش أرواح القافلة، وما هي إلا دقائق قليلة حتّى يبدأ الدقّ على الفناطيس[1] الخالية، ويدور الرقص والغناء. وعند بداية الموسيقى، يتعهّد الرجال الإبل أو يقومون بترتيب الأمتعة أو تصليح سروج الجمال، فما يكادون يسمعون صوتاً من أصوات الدقّ أو الغناء حتّى يلتمّ شملهم حول النار الخامدة. فينظر كلّ واحد منهم إلى وجوه رفاقه ليطمئنّ أنّهم على قيد الحياة وأنهم سعداء، ويحاول كلّ منهم أن يكون أكثر بهجة من جاره، محاولاً شدّ عزيمته. ونعمد إلى مغالطة أنفسنا، وهو أمر ثقيل وشاق في بداياته. فنحاول أن نبتهج، وأن نبعث في ظلام متاعبنا نوراً، ويقول أحدنا: «إنّ جِمال القافلة جميعها على ما يرام». ويضيف آخر: «أخبرنا بو حسن أنه رأى أثراً للبئر على مقربة إلى اليمين».

وهكذا نستدرج أنفسنا لنقنعها بأن كل شيء على ما يرام. وربما كان هذا كلّه تغريراً منا بأنفسنا، ولكن سحر الصحراء قد تغلّب على عقولنا. فحبّنا للصحراء يشبه حبّ رجل شديد الولع بامرأة فاتنة ساحرة، ولكنّها قاسية القلب، تجافيه فتُظلم الدنيا في وجهه، وإذا حلّ الظلام، تبسّمت له فيتحوّل العالم بأسره إلى جنّة. وهكذا عندما تبتسم الصحراء، لا يبقى بعدها مكان على الأرض جديراً بأن تعيش فيه. ويسطو الرقص والغناء على ما تبقى من قوة رجال القافلة وجَلَدهم بعد جهد النهار. فتفتر العزائم، ويغلب النعاس على الأجفان، فينام الرجال تحت قبّة السماء الصافية المرصّعة بالنجوم. قليلون من أهل المدن يعرفون لذّة الجلوس في حلكة الظلام ومراقبة النجوم. ولا عجب أن يكون العرب هم أساتذة علم

(1) الفناطيس جمع فنطاس وهو خزان مياه الشرب في سفن الخليج القديمة وهو شبه دائري الشكل ويصنع من الخشب كذلك. (المترجم)

الفلك! فالبدويّ، إذا انتهى من عمل يومه، يجلس ويترصّد حركات النجوم ويتمتّع بما يبعثه هذا المنظر من راحة وشعور بالسموّ. فتصبح النجوم أصدقاء مقربين يلقاهم المرء كل يوم، حتّى إذا غابوا، لا يكون وداعهم مفاجئاً بل يشبه الراحل الذي يغيب تدريجياً أمام عينيك على أمل اللقاء القريب في الليلة التالية.

وقبل بزوغ الفجر بقليل، ينادي أوّل مستيقظ من رجال القافلة قائلاً: «حيّ على الصلاة، الصلاة خير من النوم». ولا يزال في السماء قليل من النجوم المتناثرة، فيستيقظ القوم وكأنّهم «يستجمعون أجسادهم»، فكلّ عضو من أجسامهم متألّم، وكلّ حلق جافّ. ولكن ما أعظم التغيير الذي طرأ عليهم! سرى الأمل فيهم وتسلّحوا بالثقة من جديد، فقد يكون هناك معتقد داخلي أنهم سيكونون كلّهم على خير ما يرام.ولا يزال الفضاء مكفهراً رطباً، ونيران وقود الصباح وحدها تخترق برودة نسيم الشمال. فنلتفت تلقائياً نحو الشرق. واذا كانت السماء صافيةً لا غيوم فيها، انتشر في السماء نور ضئيل خلف الرجال والجمال، ظلال مستطيلة، غريبة وبعيدة المنال، إلى حدّ تكاد تسميها ظلالاً. ومن ثمّ يمتلئ الفضاء بحمرة تبعث الدفء. واللافت أن ألوان الصحراء تظهر في الفترة الممتدة بين الفجر وبزوغ الشمس، حتّى اذا أشرقت الشمس لا يبقى في الصحراء الا ذلك المنبسط اللامتناهي الأزرق والأصفر، ومن ثمّ يخفت اللون الأزرق شيئاً فشيئاً حتّى اذا انتصف النهار، تختفي الألوان تقريباً من السماء.

أما الصباح فيبعث قوة جديدة، في حين أن الليل يبعث السلام والسكينة، وفي هذه الساعات يتجلّى للإنسان سحر الصحراء وجمالها.في سكون هذه المساحات الشاسعة والمفتوحة، يصبح الإحساس مفرطاً إلى حدّ أن المسافر في الصحراء يشعر أحياناً بقرب واحة غير مأهولة. وتغلب غريزته عليه فيحسّ بمئات الأميال التي تبعده عن كلّ كائن حيّ. وفي هذه اللانهاية الساكنة، يصفو الجسم والعقل وتصفى الروح، فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عزّ وجلّ، ويحسّ بوجود قوة عظيمة، لا قدرة لقوة أخرى أن تحوّل انتباهه عنها. ويتسرّب إلى نفسه الإيمان بالقدر الذي لا مفرّ منه، والرضوخ إلى حكمة ما كتب الله إلى حدّ بذل حياته للصحراء من دون ضغينة. وبالفعل، هناك أوقات يشعر فيها بأنّ الحياة لم تعد مهمّة بالنسبة إليه.

إنّ الصحراء تُخرج أفضل ما في داخل الكائن البشري. ففي المدن وعند وقوع أي خطر، يدافع كل واحد عن سلامة نفسه، أما في الصحراء فتعظم نفس الإنسان وتنعدم الأنانية، ويعمل كل واحد ما بوسعه لخدمة رفاقه ومساعدتهم. فإذا هدّدت كارثة ما قافلة من القوافل، قد يكون بين رجالها من يرى فرصة لينقذ نفسه، غير أنني لا أصدّق أن هناك بدوياً ما يترك رفقاءه لينجو بنفسه. وأكثر ما يخيفك في الصحراء أن يشحّ الماء، وربما يخطر على بالك في مثل هذه الحال أن تستبقي لنفسك ما لديك من كمية مياه، ولكن بدلاً من أن تقوم بذلك، تجدك حاملاً زجاجة الماء وتدور على الرجال تسألهم من يريد أن يشرب، تسألهم غير مكترث، وكأن الماء غزير وفائض عن حاجتك، تسألهم من دون أن تفكر في سلامتك الشخصية. فتقول لنفسك: مهما يكن، ممّا قدّر الله أن يحصل، فليحصل لرجال القافلة جميعاً، فأنت لا تريد النجاة وحدك. ذلك هو الشعور الذي يستولي عليك.

لا أزال أزداد إعجاباً بالبدوي كلّما فكّرت في ثباته وسكينته وشجاعته التي لا يزعزها شيء. يدخل البدوي الصحراء وزاده مكوّن من ثلاثة أشياء: الجِمال والماء والدليل. أما الجمال، فقد تخور قواها وتعجز عن المشي لغير سبب ظاهر، كما حدث لي عند مغادرتي الكُفرة، ومات جمل من خيرة جمالي في الليلة التالية، في حين أن الجمل الأضعف في القافلة الذي غادر الكُفرة وهو يتمايل تحت حمله، فقد قطع المسافة كاملةً التي تقارب 950 ميلاً، ووصل الفاشر يغالب خطواته. وعندما عاتبت صاحب الجمل البدوي على إحضار تلك الدابّة الضعيفة، قال: «الله يحميه»، وفي الواقع لقد حماه الله. ويعتبر موت جمل من جمال القافلة كارثة عظيمة، فذلك يؤدّي إلى رمي معظم حمله أو حتى كلّه. أما المياه فتوضع في حاويات من جلود الخراف، وأفضلها تمّ اختبارها مسبقاً لمدّة أيام وأسابيع، ولكن المياه قد تبدأ فجأة بالتسرّب من الحاويات أو تتبخّر منها، أو ربما يصطدم جملان ببعضهما خلال الليل فتنفجر حاوية أو اثنتان.أما الدليل فقد يقول، لأسباب مختلفة، إنّ الأرض تلفّ به، ومعنى هذا أنّه فقد عقله. وقد يضلّ الطريق إذا ما كان هناك غيوم تحجب الشمس لبضع ساعات، أو في حال أخطأ بإحدى علامات الطريق. ولكن يبقى هناك أمر أكثر أهمية وضرورة من هذه المسائل الثلاث وهو الايمان، الايمان الثابت الذي لا يتزعزع، الايمان الراسخ الوطيد.

قد تكون الصحراء جميلة ولطيفة. وقد يكون رجال القافلة نضري الوجه ومبتهجين. ولكنّها قد تكون أيضاً قاسية فتّاكة، تمضي فيها، من دون راحة، هذه القافلة التعيسة التي قُدّر لها أن تهيم مستاءة في نواحيها. فإذا طأطات الجمال رؤوسها من العطش والتعب، وشحّ الماء وما من أثر لبئر قريبة، وتجهّم رجالك وسيطر اليأس عليهم، ونظرت الى الخريطة التي تحملها بين يديك ولم تجد أثراً تهتدي به، لأنّ الطريق الذي تسلكها لم يكتشفها أحد من قبل، وسألت دليلك عن الطريق فهزّ كتفيه وقال «الله أعلم». إذا جلتَ بنظرك على الأفق ووجدته لا يزال ذلك الخط الغائم المضطرب الممتدّ بين زرقة السماء الباهتة وصفرة الرمال، وأمعنت النظر في كلّ ما يحيط بك فما رأيت أي علامة تبعث بصيصاً من الأمل، وإذا ضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتّى أصبحت طوقاً يضيق شيئاً فشيئاً ويُطبق على حلقك الجاف، عندها يشعر البدوي أنه بحاجة إلى قوّة كبرى، أكبر من قوّة تلك الصحراء الفتاكة القاسية. عندها، يرفع البدوي صلواته إلى الله لينزل عليه رحمته ويخلّصه، واذا لم تُستجب صلواته، ضمّ جرده[1] إلى جسده وجلس على الرمال ينتظر الموت المحتوم في سكينة واستسلام. هذا هو الإيمان الذي لا بدّ منه خلال الرحلة عبر الصحراء. في النهاية، الصحراء مخيفة ولا تعرف الشفقة، ولكن كلّ من عرفها مرّة لا بدّ أن يعود إليها ثانيةً.

(1) الجرد هو اللباس التقليدي الليبي، وهو عبارة عن رداء يلبسه الليبيون في مناسباتهم الدينية والقومية حتى خارج البلد، كزيّ وطني يختص بهم دون غيرهم. (المترجم)

الفصل الأوّل
خطّة الرحلة

هذه قصّة رحلة قمت بها سنة 1923 من السلّوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى الأُبَيّض في السودان، وهي مسافة تقدّر بألفين ومئتي ميل على ظهر الجمال. ولقد وفّقت في هذه الرحلة حيث عثرتُ على واحتين «مجهولتين»، هما أركِنو والعوينات، وقبل ذلك لم يكن الجغرافيون قد اكتشفوهما بعد. في البداية، كانت الغاية من رحلتي علميّة، ولكنّي حاولت في هذا الكتاب أن أتجنّب إرهاق القارئ بذكر المصطلحات التقنية، وأن أكتب له نصاً سردياً واضحاً، أتمنى أن يثير اهتمام حتّى من يجهل مصر والسودان وصحراء ليبيا.

كان طموحي الأكبر في حياتي أن أجوب صحراء ليبيا وأصل إلى الكُفرة، وهي مجموعة من الواحات في الصحراء الليبية، لم يزرها قبلي الاّ مستكشف واحد. عموماًنجح المستكشف الألماني المقدام رولفس في القيام بهذه الرحلة، ولكنّه لم يخرج منها حيّاً، بعد أن خسر جلّ مدوّناته ونتائج ملاحظاته العلمية.

وقد حالفني الحظّ العام 1915 بلقاء السيد إدريس السنوسي في القاهرة، عند عودته من الحجّ. والسيد إدريس هو شيخ الطائفة السنوسيّة التيّ تعدّ واحة الكُفرة مقرّها الرئيسي. وفي العام 1917، ذهبت بصفتي مبعوثاً إلى السيد إدريس، وبرفقتي اللواء تالبوت باشا، أحد أهم الضباط البريطانيين المنتدبين للخدمة في الجيش

المصري، وكان قد ترك الجيش المصري وعاد اليه عند إندلاع الحرب العظمى. انتهزت هذه الفرصة لتجديد علاقاتي بالسيد إدريس في الزويتينة، وهي ميناء صغير بالقرب من جدابية في برقة، وأطلعته على رغبتي. فعطف السيد إدريس عليّ وطلب مني أن أعلمه بموعد سفري حتى يقدّم لي المساعدة والرعاية اللتين لا بدّ منهما لكلّ مسافر إلى الكُفرة.

وقابلته بعد ذلك في عكرمة، الواقعة بالقرب من طبرق، وأخبرته بعزمي على القيام بالرحلة بعد انتهاء الحرب الأوروبية. وفي طبرق، كان يرافقني السيد فرنسيس رود، وتربطني به صداقة قديمة تعود إلى عهد الدراسة في كلية باليول في جامعة أكسفورد، فاتّفقنا أن نذهب معاً في هذه الرحلة.

وعندما انتهت الحرب، جاءتني مسز روزيتا فوربس (وهي الآن مسز أ. مجراث) وأحضرت لي رسالة من صديقي رود، راجيةً أن ترافقنا في الرحلة. فبدأنا نخطّط لرحلة نقوم بها نحن الثلاثة، ولكن الظروف حالت دون ذهاب السيد رود معنا. وانتهى الأمر بسفر مسز فوربس معي العام 1920، مزوّدَين بمساعدة السلطات الايطالية والسيد إدريس الذي قدم لنا ما يلزم للقافلة. فوصلنا الى الكُفرة في يناير من العام 1921.

ولكن هذه الرحلة إلى الكُفرة لم تزدني إلا حباً في التوغّل في أحشاء تلك الصحراء الممتدّة وراءها. وكانت هنالك شائعات عن واحات «مجهولة»، لا يعرفها كثير من أهل الكُفرة إلاّ في أساطير الأجداد وأخبارهم. وعندما عدتُ من الرحلة الأولى إلى القاهرة، صمّمت على القيام برحلة ثانية، وبدلاُ من أن نعود مباشرةً من الكُفرة، كما فعلتُ سابقاً، أنا والآنسة فوربس، عزمنا على الانحدار إلى الجنوب، مخترقين تلك الصحراء المجهولة إلى واداي والسودان.وزادني رغبة في القيام بهذه الرحلة الثانية أنّ كلّ ما كان معنا في الرحلة الأولى من معدات علمية لم يزد على بارومتر وبوصلة. وبالتالي، لم يكن بوسعي أن أدوّن ملاحظات علميّة دقيقة. وكلّ ما عدتُ به بعض الملاحظات التي كتبتها بعد مراقبتي لبوصلة بسيطة تشير إلى مسار الطريق، واستناداً لمواد شحيحة كنتُ قد حصلتُ عليها. فانتابني ميل شديد إلى التحقق من النتائج العلمية التي وصل اليها رولفس، وتحديد موقع الكُفرة على الخريطة الجغرافية.

وفي العام 1922، تشرّفت بعرض خطّة رحلتي، مخترقاً الصحراء من البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى السودان، على حضرة جلالة الملك فؤاد الأول، الذي تكرّم وأبدى اهتماماً برحلتي الأولى ومنحني وسام الجدارة. فأظهر عناية جديدة بمشروعي، وسمح بإعطائي إجازة طويلة وتكرّم عليّ بجميع نفقات الرحلة. فلا يسعني إلى أنّ أعبر عن

تقديري إلى جلالة الملك، فإنّ كلّ ما أحرزته من نجاح في هذه الرحلة يعود إلى مساعدة جلالته الثمينة.

وانتهيتُ من ترتيباتي. وفي ديسمبر العام 1922، جمعتُ أغراضي في دار أبي، حتّى أحظى ببركته ودعواته الصالحة، وفقاً لتقاليدنا القديمة، قبل الانطلاق برحلتي في صحراء ليبيا.

الفصل الثاني
مباركة الأمتعة والحوائج

«سدّد الله خطاك».. كلمات تردد صداها في أركان الغرفة الفسيحة. فهذه الدعوة الطيّبة امتزجت ألفاظها بما انتشر في الجوّ من ضوء الشموع وسحب البخور المتناثرة. وكانت إلى جانب الحيطان أكداس من حوائج السفر، بين صناديق متفاوتة الأحجام من كبير وصغير وحاويات مياه وفناطيس من الصفيح لحمل الماء أيضاً، وحقائب ممتلئة زاداً، ورزم من الخيام وجعب مختلفة من الجلد والمعدن تحوي بعض الأجهزة العلمية، بالاضافة إلى أمتعتي الخاصة.

وبعد أن انتهينا من إعداد كلّ شيء بعد حزمه وترتيبه، وقفنا وسط الغرفة واجمين وليل مصر يسدل ستاره، والنسيم يحمل الينا من ناحية الحديقة تلك الهمهمة الخافتة التي تسري عند المساء في أحياء القاهرة. كنّا ثلاثة، أنا وعبد الله وأحمد. وعبد الله نوبي من أسوان وثقت به الثقة كلّها، وأحمد نوبي من أسوان كذلك، صحبته في رحلتي فكان طاهياً بارعاً ولديه روح الفكاهة.

ووقف أمامنا شيخ طويل القامة ذو لحية بيضاء ملساء، يلبس قفطاناً[1] من الحرير البرتقالي. وينبعث من وجهه الوسيم المتجعّد نور الطمأنينة والتقوى، وتتساقط بين أصابعه الطويلة المنشرحة حبّات سبحة من الكهرمان. ووقف إلى جانبه خادم يحمل مبخرة من الفضّة، يتصاعد منها بخور زكيّ الرائحة على شكل حلقات رفيعة.

وضع ذلك الشيخ التقي سبحته جانباً، ثم رفع يديه نحو السماء وتمتم بصوت خافت بفعل تقدّمه في السنّ، ولكن دعاءه كان واضحاً بالنسبة إلينا، فراح يقول: «اللهم سدّد خطاهم، وكلّل بالنجاح مساعيهم، وأعدهم سالمين منتصرين». وراح يلفّ في أنحاء

(1) القفطان: زيّ خاص بشعب المغرب يعبر عن عادات وتقاليد خاصة في حياة الإنسان المغربي. (المترجم)

الغرفة ويمرر المبخرة على كل حزمة من حوائج السفر، مردداً دعاءً قصيراً.تلك هي الحفلة التقليدية لمباركة الأمتعة والحوائج التي جعلتها الأجيال العربية واجباً مقدساً قبل رحيل القافلة. لكن استعمالها قلّ في أيامنا الأخيرة. أما أبي، الذي يضيء سنا العرفان سبل حياته ويشعّ فيها نور الرسول، فقد أبى إلا أن يؤدّي هذا الواجب لابنه الوحيد المقبل على سفر طويل وبعيد. وقفتُ أمام ذلك الشيخ الصالح أتلقّى البركة، فلم اعد ذلك المصريّ المتحضّر، وإنّما كنت بدوياً يعود إلى الصحراء حيث نصب أجداده وأسلافه خيمهم.

ثمّ استدرتُ ويممتُ نحو أبي. لخمسة عشر عاماً، ومنذ أن أرسلتُ للدراسة في أوروبا، تختلف آراؤنا وتختلف وجهات نظرنا في الحياة. وأحياناً، تمنيّتء لو أنني درستُ في المجال الذي كان يميل اليه، حتّى أقتبس من معارفه الواسعة. ولقد سمعتُه ذات يوم يقول عني لأحد زملائي: «إنّه مخلوق لغير زماني، فدعه يحصّل ما يقتضيه زمنه من العلم والتهذيب». أمّا الآن وقد أقبلتُ على العودة إلى الصحراء التي نشأ فيها أجدادي، فقد التقت أفكارنا واتّحد شعورنا.

فبعد برهة من الصمت، وضع يديه على كتفيّ وقال: «سر يا بني، رافقتك السلامة وسدّد الله خطاك، ووهبك القوة وأنجح مسعاك».بوركت حوائج السفر، واتّجه عبد الله وأحمد إلى السلّوم، حاملين معهما الأغراض الثقيلة وتاركين لي الأدوات العلمية وآلات التصوير. وفي اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر، أقلعت بي الباخرة من الإسكندرية إلى السلّوم.

الفصل الثالث
الزاد والمتاع

رست بي الباخرة في 21 ديسمبر العام 1922 في ميناء السلّوم، وهو ميناء صغير قريب من حدود مصر الغربية. وكان الاتّفاق أن نأخذ الجمال من السلّوم ونذهب عن طريق جغبوب إلى جالو، وهي المركز المهمّ لتجارة الصحراء، حيث تمّ تحضير كلّ القافلة للبدء برحلتنا إلى الجنوب.

ولمثل رحلتي هذه دائماً مراحل عدّة، تتنابك في كلّ مرحلة منها مشاعر خاصة وتخوض تجارب مختلفة. فإنّي حين وقفت في دار أبي في تلك الغرفة التي يشيع في أرجائها القاتمة عبق البخور، اعتبرت القيام بهذه الرحلة ضرباً من الأحلام، يبهرني احتمال تحقيقه، غير أن اليقين منه كان بعيداً. أما في السلّوم، فقد واجهتني الوقائع على الأرض التي تستلزم جمع الزاد والمتاع وحزم كلّ شيء حجمهصغير وسهل التناول، والتحقّق من وجود كلّ الأغراض، ومن ثمّ التأكّد مع أصحاب الإبل من المرحلة الأولى من الرحلة. وعند جالو تبدأ المرحلة الثالثة، حيث أتقدّم القافلة وأشقّ طريق الكُفرة التي قطعتها من قبل ثمّ تنكّرت لي معالمها، على الرغم من أنني بدأت مرحلتي الأخيرة في أحشاء تلك الفيافي المجهولة التي لم تطأها قدم مكتشف من قبل.

وقد سبقني إلى السلّوم عبد الله وأحمد ومعهما أمتعتي الضخمة، وتمّ تحضير الجمال وفق الاتفاق.

وفي هذه المناسبة، لا يسعني الاّ أن أصف هذين المصريين اللذين اصطحباني في هذه الرحلة. كان عبد الله نوبيّاً من أسوان، متين البنية، متناسق الأعضاء قوياً، عيناه صغيرتان غائرتان، يلوح فيهما الذكاء وروح الدعابة بقدر كبير من العنفوان واللامبالاة. وكان يبلغ من العمر أربعين سنة له من العلم القدر الوافي ومعرفة عميقة بالقرآن الكريم.

وقد التقيتُ به للمرة الأولى العام 1914 حين كان في خدمة الأسرة الادريسية في القاهرة، وحملت له محبة كبيرة منذ أن رأيته للمرة الأولى لما توسمّت فيه من حسّ فكاهة وصدق. وكان عبد الله أميناً جداً، فاستودعته المؤن والذخائر. وكان يحسبللطوارئ ألف حساب، فلا يخلو متاعه مما نحتاج اليه من سيور جلدية وإبر كان يستخدمها البدو الأوائل لرتق الأحذية، بالإضافة إلى أدوات أخرى لتقويم المعوّج وإصلاح المكسور من أعمدة الخيام. وكان دائماً على استعداد لمواجهة كلّ ظرف من الظروف. فكان في وسعه أن يظهرني بدوياً من عرب مصر الرحّل، أو تاجراً أو موظفاً كبيراً في الحكومة، كما حدث حين وصلنا إلى الأراضي السودانية.

غير أن عبد الله كان لديه خاصيّة غريبة، وهي أن النعاس يغلب عليه بين الغروب وبعده بساعة أو اثنتين فيصعب ايقاظه من غفوته، وكان لا يتمالك نفسه عن التثاؤب أحياناً وهو جالس يتحدّث. وأتذكّر أننا ذات مساء انتهينا من العشاء، وكان النعاس قد غلب على عبد الله، واذا برفيقي البدوي الأمين الزروالي، وكان قد انضمّ الينا في جالو، أراد ممازحته، فأخذ كمية كبيرة من الزعتر ووضعها في كوب الشاي الذي كان أمامه. وعندما استيقظ عبد الله من النوم، واكتشف الأمر بعد أن تذوق كوبه، لم ينبس بكلمة، وأعاد الكوب إلى مكانه. ولكنه التفت بعد قليل إلى الزروالي قائلاً:

«أظّن أنك تنتظر زيارة أحد، وإنّي أسمعه قادماً». وما إن قام الزروالي للتحقق من الأمر، حتّى بدّل عبد الله كوبه بكوب الزروالي الذي كان نصيبه أن جرع ذلك الشاي بالزعتر، بينما راح عبد الله يتثاءب كعادته آمناً مطمئناً. وظهرت غريزة الإتجار لدى عبد الله في أوجّها حين وصلنا في نهاية رحلتنا إلى بعض البلاد المأهولة بالسكان. وكانت المواد الغذائية قد بدأت بالنفاد، فجمع كل ما فاض عن حاجتنا، بما في ذلك علب الصفيح الفارغة وزجاجات الأدوية وشفرات الحلاقة المستخدمة، واستبدل كل ذلك من السكان بزبدة ولبن وتوابل وجلود. وهنا أودّ أن أشير إلى أن عبد الله أحس بانزعاج كبير عند عرضي شريطاً مصوراً لرحلتي أثناء إلقائي محاضرة حضرها جلالة الملك في دار الأوبرا في القاهرة. فحين رأى عبد الله نفسه في كثير من الصور في ثوب مهلهل، آلمه أن يظهر في تلك الحال المزرية أمام الملك، وطلب مني، إن كان في المقدور، تغيير تلك الصور بحيث يظهر فيها بمظهر أفضل وملابس أنظف.

أمّا أحمد، فكان أيضاً نوبياً من أسوان، طويل القامة ويتمتع بإرادة صلبة. وكان خادمي الخاص وطاهيّ. وعلى الرغم من أنه شاب متعلّم، إلا أنه اختار مهنة الطهي لأنه أراد أن يكون حراً طليقاً. وقد أبى أن ينزل عند رغبة والده الذي اختار له حياة دينية، حيث لم يستهوه العيش ببساطة وزهد وتقشّف. وكانت الضحكة لا تفارق وجهه، وكان محبوباً من جميع أفراد القافلة، على الرغم من أنه كان يتلفّظ أحياناً باللعنات والشتائم. ولو أن أحداً غيره تفوّه بكلمة واحدة من الشتائم تلك، لكانت كافية لإراقة الدماء بين رجال القافلة، ولكنهم اعتادوا ذلك منه وكانوا يمازحونه بذلك.

واعتاد أحمد، بعد انتهائه من الطهي، أن يجلس مع البدو ويهزأ من مدى معرفتهم بقواعد الدين، ويظهر التفوّق عليهم بتأليف مقاطع من شعر الزهد واستعراض مجموعة من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام.

وكان أحمد متفانياً في خدمتي، فلم يكن يفوته أن يقدّم لي كوباً من الشاي في أحرج الظروف وأقلّها ملاءمة لذلك. وأذكر أننا سرنا ليلة كاملة ثمّ حططنا الرحال، وكان أحمد يشكو ألماً في قدمه، فقلت له حين بدأنا بنصب الخيم إنّني لست بحاجة إلى الفطور أو الشاي حتى أصحو من النوم، وأذنت له بالنوم فتركني، وما إن انتهيت من إعداد غطائي حتى جاءني بكوب من الشاي الساخن. وعلى الرغم من الشتائم التي كان يكيلها لرفقائه البدو، إلا أنه لم يكن ليتوانى عن الاهتمام بتخفيف آلام من يمرض منهم. فقد تعلّم مني بالتدريج كيفية استخدام الأدوية الموجودة معي، وكان كلّما صعُب عليه معرفة دواء يأتيني بالزجاجة للتأكّد ما إذا كانت مادة الكينين[1] أو الأسپيرين.

وأود أن أشير إلى نقطة أخرى، لأؤكّد أن ما يحتاج إليه الإنسان خلال رحلته في الصحراء بسيط، والأشياء التي يحملها مجتازو الصحراء معروفة وتكون متماثلة في كلّ حالة. فغذاء الصحراء هو الطحين والأرز والسكر والشاي. والجدير بالذكر أن كلّ سكان الصحراء يحبّون أكل اللّحم، ولكنّ لا يمكن حمله بطبيعة الحال، فلا بدّ للإنسان من الصيد إذا أراد أكل اللّحم.أما الشاي فهو شراب أهل صحراء ليبيا وهم يفضّلونه على القهوة لسببين، ديني وعملي. السبب الديني يعود إلى أن السيد محمد بن علي السنوسي حثّ أتباعه على الابتعاد

(1) مادّة مرّة الطعم تستخرج من قشرة شجرة الكينا، وتُستخدم في علاج الملاريا وغيرها من الأمراض. (المترجم)

عن حياة الترف، وأمرُ السنوسي نافذ، فهو مؤسس الطائفة السنوسية المهيمنة على أمور البلاد التي قررتُ السفر اليها. وقد شملت أوامره تحريم الدخان والقهوة، ولكن لسبب ما، لم تذكر الشاي. وبالتالي، تجد كل أتباعه يحبّون الشاي اذا صحّت المقارنة بين ذلك السائل المرّ الذي يعطي النشاط للبدو أثناء السير وينعش نفوسهم آخر النهار، وبين ذلك الشراب الذهبي الشهي ذي الرائحة الزكيّة الذي يوزّع على الموائد في بلاد أوروبا وأميركا. والسبب الثاني هو أن أهل الصحراء يفضلون الشاي على القهوة لأنّه يبعث فيهم النشاط للعمل. وهم يشربونه عندما ينتهون من تناول الطعام ويختمون به رحلة اليوم الشاقة.

وبعد هذه السلع الغذائية الأساسية، إن لم يكن أهمّها جميعاً، يأتي البلح. فهو غذاء رجال القافلة كافةً والجمال على السواء، خصوصاً إذا نفذ الزاد أو ضاق الوقت للطهو. ولكن بلح الصحراء ليس تلك الفاكهة الشهية التي يتلذّذ بأكلها أهل الغرب على موائدهم ويحملونها معهم في رحلاتهم الترفيهية القصيرة. فإنّ البلح الذي يحمله المسافر في الصحراء يجب ألا تكثر فيه مادة السكر لأنّ السكر يسبّب العطش، ولا بدّ من توفير الماء إذ إنّ الآبار تبعد عن بعضها البعض مسافة أيّام. وقد حملت معي بعض الأطعمة المعلبة كلحم البقر والخضر والفاكهة. ولكن هذه العلب ثقيلة والإكثار منها يتطلّب زيادة في عدد جمال القافلة. وكان معي بعض من القهوة، ولكن قلّما كنت أشربها، فرحت أقدّمها إلى من صادفنا خلال الطريق. وكان بحوزتي كذلك قليل من زجاجات أقراص اللّبن المركّز، وكانت تنفعنا كثيراً عندما كان يشحّ الطعام. ولكن البدو لم يميلوا إلى هذه الأقراص، لأنّها كما كانوا يقولون كانت تشبعهم من دون التمتع بلذّة التذوّق.

هذا ما كنّا نحمله من الأغذية، بالإضافة إلى الملح والتوابل، خصوصاً الفلفل لطهي ما يُعرف بالعصيدة[1]. ولم يكن هناك الكثير من التنوّع في الأغذية، ولكن التنويع في المأكولات مسألة مفروغ منها عندما تكون المؤن محمّلة على ظهر الدواب التي تعيش في الغالب على ما يمكن أن تحمله. ولم أكن أحمل طعاماً خاصّاً شهياً أتمتّع بلذته بدلاً من رتابة الأرز والخبز والبلح والشاي. فمن يجرّب السفر في الصحراء ويتعلّم دروسه، يدرك

(1) وجبة ليبية سريعة، وهي عبارة عن خلطة من الطحين والزيت المغلي والفلفل الحار، تقدّم غالباً في مناسبة المولود الجديد. (المترجم)

أنّه يجب ألا يحمل من المأكولات اللذيذة التي لا تكفي رجال القافلة كافّة. ففي الصحراء تمّحي الفوارق كلّها ولا يعود هناك تمييز بين غني أو فقير.

بيد أنّ التبغ هو الشيء الوحيد الذي ميّزت به نفسي عن بقيّة الرجال. ولكن هذا لم يكن في الواقع خرقاً للقاعدة، إذ لم يكن بين رجال القافلة من يدخّن إلاّ شخص واحد شاركني لذّة التدخين التي نعمت بها أثناء الرحلة، لكثرة ما حملت معي من السجائر والتبغ المصريّ.

ويأتي الماء بعد هذا وهو المشكلة الكبرى والدائمة التي تواجهنا في الصحراء. فرأينا أفراداً يعيشون أياماً عديدة من دون طعام، إما لحاجة قضت بذلك أو على سبيل التجربة. أما إذا تحمّل أحدهم العيش لمدّة أربعة أيام من دون ماء، فيكون ذلك معجزة. والصحراء تسمّى بالصحراء لخلوّها من الماء، وعلى المسافر في الصحراء التفكير أولاً بهذا العنصر الحيويّ. لقد قمنا بحمل الماء بطريقتين، فأخذنا حاجتنا منه في خمسة وعشرين «جربة» (قربة من جلد الغنم)، غير أنّ هذه القِرب يسهل انفجارها إذا اصطدم جملان ليلاً ببعضهما على طريق صخرية! ولذلك أودعنا الماء التي قد نحتاج اليه للحالات الطارئة في فناطيس. وهذه الفناطيس هي عبارة عن حاويات مستطيلة تتدلّى على جوانب الجمال. وكان معنا ثمانية فناطيس، سعةالواحد منها ما يملأ أربع قرب، فالماء كان يكفي كلّ أفراد القافلة في أطول المراحل التي تفصل بين بئر وأخرى. ووضعنا الماء الاحتياطي في فناطيس فقط، وإن كانت أكثر أماناً من القرب، لأن هذه لا تشغل حيزاً كبيراً إذا فرغت. فقد يكفي جمل واحد لحمل الخمس وعشرين قربة الفارغة، في حين لا تزيد حمولة الجمل الواحد عن أربعة فناطيس، سواء أكانت ممتلئة أم فارغة. وكان لدينا كذلك بعض «زمزميات» من القماش، ولكنّنا رمينا معظمها لأنها كانت تضايقنا كثيراً في حملها. واحتفظنا بالقليل منها لتبريد الماء فيما بعد عند اشتداد الحرّ. فعندما تتبخّر الرطوبة من منافذ قماش الخيش تبقى درجة حرارة الماء معتدلة.وكان من ضمن متاعنا أربع خيام، اثنتان منها اسطوانية الشكل والرابعة مستطيلة،

بالاضافة إلى العديد من أدوات الطبخ، أهمّها حلّة كبيرة(وهو عاء كبير لطهي الأرز). واستعداداً لحالات الطوارئ كنا نحمل صندوقاً من الأدوية يحتوي على الكينين واليود والقطن والأربطة، ومادة ساليسلات البزموت لمعالجة الزُحار[1]، وأقراص من المورفين،

(1) مرض يصيب الجهاز الهضمي نتيجة الاصابة بالجراثيم المعوية. (المترجم)

وحقنة ومصل مضاد للسعة العقرب (وقد نفعنا كثيراً أثناء الرحلة في حالات حرجة)، ومرهم من الزنك لمعالجة الأكزيما[1]، وأقراص مليّنة وأملاح الابسوم لمعالجة الحرقة والإمساك. إلى جانب ذلك، كنتُ أحمل معي بعض الأدوات التي تُستخدم في الجراحة البسيطة وأدوات وأدوية لمعالجة أمراض الأسنان. وباختصار، كنتُ مجهزّاً بكلّ ما قد يساعدنا في علاج الأمراض العادية اليومية. أما إذا اشتدّ المرض على أحدهم وعجزتُ عن علاجه، فكان لا بدّ لي من تفويض أمره لله قائلاً كما تقول العامّة: «الشفاء من عند الله».

وفي مجال آخر، لم أنس أن آخذ معي، بهدف الصيد والدفاع عن الذات، ثلاثة مسدسات كبيرة وثلاث بنادق وبندقية أخرى لصيد الطيور أهديتها قبل عودتي، بينما زادت أسلحتي ستّ بنادق أخرى ومسدساً كبيراً. ولمّا وصلت تلك الأسلحة إلى السلّوم في صندوق غريب الشكل، راح الناس يتهامسون ويقولون إنني أحمل مدفعاً رشاشاً لغاية خفيّة تخيّلوها وفقاً لأهوائهم. وما لبثت هذه الشائعة أن راجت. وبهدف التقاط صور وافية ومعبّرة تُظهر تفصيلات مناظر الرحلة، حملت معي خمس آلات تصوير، ثلاث منها من نوع كوداك، بقيت تعمل على أحسن ما يرام حتى نهاية الرحلة، وواحدة أكثر تطوراً تلفت بسبب تسرّب الرمال اليها، والسادسة كانت من آلات السينماتوغرافيا. وقد استعملتُ في التصوير بهذه الآلات فيلماً من نوع «إيستمان كوداك»، حفظته بعناية شديدة في علب من الصفيح، ثمّ وضعتُ هذه العلب في صناديق من الصفيح أيضاً ملأتها بنشارة الخشب، ووضعتُ كلّ هذه في صناديق من الخشب. غير أنّ هذه الاحتياطات لم تكن كافية نظراً لحدّة الحرارة في مطلع الرحلة والأمطار الغزيرة والرطوبة التي عانيناها فيما بعد في السودان. وكان طول الشريط السينماتوغرافي الذي حملته معي 9000 قدم. وفي الواقع، لقد وفّقت بكل الصور التي التقطتها، ولم يتم تحميض الجزء الكبير منها حتى عودتي إلى مصر بعد ثمانية أشهر، ولكن لم أخسر منها نسبياً سوى القليل. أما لباسي، فكان عبارة عن ثوب البدوي العادي المؤلف من قميص وسروال، مصنوعين من نسيج قطني أبيض، كما ارتديتُ جرداً عربياً مصنوعاً من الصوف، بالاضافة إلى كوفية وعقال. كما حملتُ معي بعضاً من الملابس الحريرية وسراويل من الجوخ ألبسها في المناسبات الخاصّة فقط،

(1) اضطراب جلدي يتميز بالحكة والالتهاب، وتكون البشرة أحياناً ملتهبة وجافة ومتورمة ومكسوة بقشرة أو تنضح بالسوائل. (المترجم)

مثل دخول الواحات والخروج منها، ومقابلة رؤساء العشائر وكبار أهل الصحراء. ولم أشأ أن أرتدي زيّ أهل الصحراء حتّى أنتهي من المرحلة الأولى. فتركت السلّوم في بدلة من الخاكي وسراويل ركوب قديمة. وكانت هيئتي مضحكة بتلك «الشباشب» الصفراء التي كنت أنتعلها والتي لا ينفع غيرها للسير في الصحراء، وألبس ذلك اللباس الليلي لحماية نفسي من البرد القارس.

وكانت العادات عند السفر في أراض مجهولة في البلاد الشرقية، أن يقدم الإنسان الهدايا للرجال المشاهير الذين يلتقيهم. وكان بحوزتي كمية وافرة من الحرير والأواني النحاسية، والمباخر المطعّمة بالفضة، والمناديل الحريرية، وأباريق وأكواب شاي مصنوعة من الفضّة، وزجاجات عطر، وأجراس من فضة كان يسرّ البدوي أن يستعملها لاستدعاء خدمه، بدلاً من التصفيق. وعندما كنت أرى هذا الكم الكبير من الهدايا، أصبح واثقاً من أننا عائدون بنصفه. ولكنّي لاحظت عند وصولنا إلى الكُفرة أن الميل إلى قبول الهدايا لم يقتصر على من أدّى لي خدمة في هذه الرحلة، بل تجاوزهم إلى كلّ من أدّى لي أيّ خدمة في رحلتي السابقة، مهما كان حجم هذه الخدمة. وأدركت بالتالي أن كلّ ما حملت لم يكن كافياً لإرضاء من توقّع الهدية قبل عودتي ومن استحقّها في رحلتي الثانية. ولم تكن هذه الهدايا منّي مقابل خدمة ما أو توقعاً لنفع ما، وانّما كانت بمثابة تحيّة أو تذكار من بدويّ من المدينة إلى أخيه البدويّ المقيم في الصحراء.

وأذكر هنا أنّ أهمّ ما خرجت به من هذه الرحلة وأكثره إفادةً، من حيث الأبحاث العلمية والتاريخية، كان تلك الأجهزة العلمية والأدوات الفنيّة التي تكلّم عنها بالتفصيل الدكتور بول في تقريره في ذيل هذا الكتاب. وأمضينا في السلّوم أسبوعين، كنتُ فيهما شديد الاهتمام بتهيئة أسباب الرحلة، كما اعتنيتُ إلى حدّ كبير بتنسيق كلّ شيء وترتيبه، لأنّ الأشياء التي تُنقل على ظهور الابل ويتحتّم حملها كلّ صباح وإنزالها كلّ مساء، وصفّها فوق بعضها البعض تجنباً للسرقة والاعتداءات المحتملة، لا بدّ أن يُعتنى بحزمها والتأكّد من سلامتها. فقد يحدث بعد سفر يوم طويل أن يستسهل الحمّالون، الذين نال منهم التعب أو الإهمال، أن يتركوا الأحمال تنزلق عن جوانب الجمال، بدلاً من أن إنزالها برفق وعناية.

الفصل الرابع
التآمر والتفاؤل

انتهيت من وضع خطّتي للانحدار جنوباً إلى جغبوب، غير أن حادثة وقعت لي وشغلت بالي، قبل يومين من التاريخ المحدّد للسفر. كنت جالساً ذات مساء في غرفتي في منزل استراحة الحكومة أعمل على فحص أجهزتي العلمية، وإذا بالباب يقرع، لم أستطع التكهّن بمن يريدني في مثل تلك الساعة، ولكنني تقدّمت إلى الباب وفتحته قليلاً. فرأيت بدوياً لا أعرفه ملتحفاً بجرده فأقفلت الباب في وجهه وسألته: «من أنت؟»

فأجابني: «أنا صديق». غير أنني لم أقتنع بذلك الجواب.

فقلت له: «ما هو اسمك وماذا تعمل؟»

فأجابني من وراء الباب الموصد: «أنا صديق وأريد أن أخبرك بشيء لا بدّ من إخبارك به».

ففتحت الباب وسألته ماذا لديه ليخبره. عندها دخل وقال بلهجة الاستفسار: «أظنك ستسلك الطريق المباشر للتوجّه إلى جغبوب من الدرب».

فأومأت برأسي اشارةً إلى الإيجاب.

فقال بشدّة: «لا تذهب».

فأردفتُ: «ولم لا؟»

فأجاب: «إنّ البيك غنيّ ويحمل معه ثروة طائلة، والبدو أناس جشعون، ويشاع أنك تملك صناديق مملوءة بالذهب».

قال لي هذا في حين كانت عيناه تنطقان بصحّة هذه الشائعة، ولو أنه ادّعى غير ذلك.

ثمّ أضاف قائلاً: «لقد اتفق رجال القافلة مع أصدقاء لهم على نصب كمين لك في الطريق ونهب ما معك، وقد تضيّع مالك وتفقد حياتك اذا سلكت تلك الطريق».

فأجبته: «لكن يستطيع كل إنسان أن يدافع عن نفسه وعن ماله».

فقال عندئذ: «ذلك محتمل إن كان برفقتك عدد كاف من الرجال».

ولكن لم يكن برفقتي هذا العدد الكافي. فرحتُ أتحدّث معه للاستفسار عن صحّة هذا الخبر، فراح يخبرني قصّةً وبدا لي صادقاً فيما يقول، وزاد يقيني في صحّة أخباره عندما أدركتُ أنه كان قريباً لرجل أدّيت له خدمة عندما أوفدت في رحلتي الأولى إلى السنوسيين.فشكرته على اهتمامه بتحذيري، واختفى الرجل في ظلام الليل. فجلستُ لوحدي ورحتُ أفكّر كيف يسعني الخروج من ذلك المأزق الحرج. وتجدر الإشارة إلى أن أهل الصحراء سريعو التكهّن بمقاصدك إن أمكنهم ذلك، وإنّ عجزوا، يخيّل إليهم العديد من الأمور لكي يعرفوا ماذا تفعل أو تريد أن تفعل. وكانت معظم متاعنا موجودة داخل صناديق، والبدو يعتبرون أن الصناديق لا بدّ أن تحتوي على كنوز. ولم لا؟ فاذا استطاعوا أن يقتنعوا بأن تلك العلبة التي حملتها وفيها ثلاث بنادق تحتوي على مدفع، فما الذي يمنعهم من الاعتقاد أن آلات التصوير والأجهزة الفنية التي بحوزتي ليست الاّ نقوداً ذهبية وأوراقاً نقدية؟ وليس من المستبعد أن يكون الرجال الذين اتفقنا معهم على استئجار الجمال قد ظنّوا أني أجول في الصحراء وبحوزتي ثروة طائلة لسبب خافٍ عنهم، ففكّروا في سرقتي. ولا أخفي على القارئ أنني لم أرتح لسماع هذا الخبر، فإنّ استهلال رحلتنا بقتال أمر لا يدعو إلى التفاؤل، مهما خرجنا منه منتصرين وسالمين. وبالتالي، فضّلتُ أن أتجنّب هذا العائق الأول بدلاً من مواجهته. وفي اليوم التالي، استغنيتُ عن أصحاب الجمال الذين انكشف لي سرّ مؤامرتهم، واستعنتُ بآخرين لكي يوصلوني إلى واحة سيوة.واستبدلت الطريق المستقيمة إلى جغبوب بطريق تضطرني إلى المرور عبر جانبي المثلّث الذي تؤلف السلّوم وجغبوب رؤوس زواياه. وقد أطال هذا التغيير مسافة القسم الأول من الرحلة، ولكن الزمن والمسافة يبقيان بسيطين أمام سلامة الوصول. وللسفر عبر طريق السيوة ميزات كثيرة، لأن هذه الطريق واقعة ضمن الأراضي المصرية وليس في تلك البلاد حيث تتواجد القبائل التي ينتمي اليها هؤلاء الجمّالون الخونة. أضف إلى أن قطّاع

الطرق لا يجرؤون على الإقدام على اغتيال المارة في هذه الطريق نظراً للخطر الذي قد يتعرّضون له. وقد حال إسراعنا في الرحيل، بعد تغيير خطّة السفر، دون تفكير المتآمرين علينا في إعداد خطّة جديدة لسلبنا، إن كانوا قد فكّروا في ذلك. وهكذا، بدا لي هذا التغيير سليماً ولم أكن مخطئاً في ظنّي.وبدأت القافلة سيرها في الأول من يناير، وبعد قيامها بثلاثة أيام تفضل الملازم باثر واصطحبني في سيارة للّحاق بها عند بئر دجنيش، على بعد نحو ستّة وثلاثين ميلاً من السلّوم. ثمّ ودّعت ذلك الضابط اللطيف، وأخذت مكاني بين رجال القافلة. وكانت المسافة إلى سيوة ستّة أيام، قضينا وقتاً منها في إخفاء صناديقنا وعلبنا بين طيّات حوائجنا، بحيث ظهر مجموعها كأنه أثاث عادي من أثاث البدو.وخلال هذه الأيام الستة لم يحدث لنا شيء ذو أهمية سوى حادثة واحدة، فالأيام الثلاثة الأولى بعثت في نفوسنا الأمل بنجاح الرحلة. وفي عصر اليوم الخامس، رأيتُ غزالاً يرعى على مقربة من طريقنا، فتعقّبته في محاولة منّي لاصطياده والاستفادة من لحمه الطريّ. وما كدتّ أقترب منه حتّى سمعتُ صراخاً وعويلاً خلفي قصد بهما رجال القافلة ثنيي عن اصطياده. وفي البداية، لم أفهم ما دفعهم إلى منعي من صيد ذلك الغزال، مع ما أعرفه في البدوي من حبّ اللحوم؟ وظنّنت أنّهم خافوا عليّ البعد عنهم وتعطيل سير القافلة، غير أنّني لم آبه إلى صراخهم وتقدّمت إلى الغزال، وبعد أن طاردته قليلاً أطلقت النار عليه وتمكّنت من إصابته.وما إن لحقت بالقافلة حاملاً طريدتي حتّى فوجئتُ مرّة أخرى: فقد تقدّم الرجال نحوي يلوّحون بأيديهم ويطلقون صراخاً يمتزج فيه الفرح بالتهانئ، ولم يزُل تعجّبي من رفضهم صيدي الغزال ومن ثمّ ترحيبهم بي بعد صيده، حتّى فسّروا لي ذلك، فأدركتُ أن البدو يعتبرون أوّل هجوم من رئيس القافلة على طريدة، بعد البدء في سير القافلة، مسألة فاصلة من حيث نجاح الرحلة أو فشلها. فإن أخطأ الرامي أصاب القافلة مصيبة قبل انتهاء الرحلة، وإن نجح بمهمّته كُتب للقافلة النجاح. ولذلك تردّد البدو عندما رأوني أضع حظّ القافلة على المحكّ بهذه السرعة. ولو كنتُ أدرك هذه النظرية لأبقيتُ الطلقة الأولى حتّى وصلنا إلى الفاشر، أي بعد ستّة أشهر.وبقينا في سيوة ثلاثة أيّام، قضيناها في استئجار جمال أخرى للرحلة إلى جغبوب، والقيام ببعض الترتيبات النهائية. وكانت سيوة المكان الأخير المتّصل بالعالم المتمدّن الذي أخلّفه ورائي. فعند هذه النقطة تنتهي أعمال البريد والاشارات البرقيّة، ولا يوجد بعد سيوة شيء

يباع إلاّ منتجات الصحراء والقليل من الأرز والقماش اللذين قد يكونان باهظي الثمن في حال وُجدا. وخلال الأيام الثلاثة، فرحتُ بالاستقبال والضيافة اللذين أحاطني بهما حضرة المأمور أحمد أفندي كامل والموظّفون والملازم لولر، قائد قوات مصلحة أقسام الحدود هناك.وتُعدّ سيوة أكبر الواحات وأجملها، تتفجّر فيها ينابيع المياه العذبة وتنمو فيها الفاكهة اللذيذة، فتجد فيها أجود أنواع البلح في العالم. ولا يمكن إلاّ أن تمتّع نظرك بالمناظر الخلاّبة وأن تتعرّف إلى عادات أهلها الغريبة. ومن هذه العادات أنّ المرأة إذا فقدت زوجها، تمتنع عن الاستحمام لمدّة أربعين يوماً وعن رؤية أيّ كان، ويقدّم لها الطعام عبر كوّة في الباب. وعندما تنقضي هذه المدّة، تستحمّ عند بئر من الآبار، ويتجنّب كلّ شخص اعتراض طريقها ويدعوها الناس بـ«الغولة»، ويتجنّبونها لاعتقادهم أنها تجلب النّحس لكلّ من يقع نظره عليها في ذلك اليوم الأول من الاستحمام. وفي سيوة، تُكدّس أكوام البلح في سوق خاصة به يطلق عليها اسم «المسطاح». وهذه الأكوام مقسّمة حسب أنواع البلح التي تراوح من جيّد إلى رديء، ولا يقوم بحراستها أحد، غير أنّ الأيدي الغريبة لا تمتدّ اليها ولا تقوم بخلطها بهدف الانتفاع. وفي الوقت نفسه، يحقّ لكل فرد أن يدخل هذه السوق، ويأكل كفايته من أجود أنواع البلح من دون أن يدفع فلساً واحداً شرط ألا يحمل معه شيئاً. وفي سيوة، يوجد مقام لأحد الأولياء يودع الناس حوله أشياءهم ليؤمّنوا عليها. فإذا فكّر أحد في السفر أخذ متاعه الثمينة وتركها بالقرب من هذا المقام، فلا تمتدّ اليها يد إنسان، ولا يفكّر أحد في التعدّي على الأشياء المودعة عند هذا المقام مهما غلا ثمنها. فالاعتقاد الراسخ الذي لا يتزعزع هو أنّ الإنسان الذي يمدّ يده عند هذا المقام إلى شيء لا يملكه، يُبتَلى بالنحس وسوء الطالع طوال حياته.وعندما بدأت بالاستعداد للرحيل من سيوة، تضاعف عدد رفقائي، فقد أضفت من السلّوم إلى عبد الله وأحمد رجلاً من قبيلة «المنفى» يدعى حمد، وكان أشدّ رجال القافلة إقبالاً على العمل وتحمّلاً للتعب، فلا أذكر أنّي رأيته مرة متعباً. وكان شغوفاً بالجِمال وخبيراً بأحوالها وشؤونها، فعهدتً إليه بجمالي ثم بحصاني الذي حصلتُ عليه في الكُفرة. وأما رابع الرجال فكان إسماعيل، وهو شاب من سيوة، يظهرعليه الضعف ولكنه كان آخر من يتعب من السير، وكان يمتطي ناقة. ولقد اعتدتُ اصطحابه معي في تجوالي للبحث عن بعض عيّنات من طبقات الأرض أو عندما أريد القيام ببعض الأبحاث الفنية. واللافت أن

إسماعيل نشأ في واحة مصرية تتميّز باتصالها بالحياة المدنية بواسطة البريد والتلغراف، الأمر الذي حال دون بعث تلك الريبة فيه التي اختصّ بها أهل الصحراء والتي تدفع بهم إلى إعطاء أقلّ عمل يقوم به الغريب تأويلات غريبة بعيدة عن الحقيقة. فلقد ظنّ بعض البدو أنّني أقتطع الأحجار لأنّها تحوي ذهباً، أو أنّي أذهب إلى تلك الأصقاع في سبيل غزوها فيما بعد. ولقد كان اسماعيل مقرباً مني لأنه كان مختلفاً، ولأنّه كان يطيعني من دون أن تساوره الشكوك فيما أفعل.وبعد استبدال جمالنا، تركنا سيوة في اليوم الرابع عشر، وانقطعت آخر حلقة من حلقات اتّصالنا بالعالم الخارجي. وما كدنا نقف بعد المرحلة الأولى حتّى خلعتُ ذلك الثوب البالي من قماش الخاكي، ولبست ثياب البدو، فأصبحتُ أشبه رجال الصحراء. ولقد أثّر هذا التغيير سريعاً في رجالي، الذين اعتدتُ رؤيتهم قبل ذلك يقتربون مني مرتبكين حائرين. ولكنّ بعد أن لبستُ زيّهم، تقدّموا مني وشدّوا على يدي على طريقة البدو وقالوا: «الآن صرت منّا».ووقعت حادثة أخرى تفاءلنا بها خيراً. فبعد أن غادرنا سيوة وتجاوزنا بضعة أميال وجدنا بلحاً في طريقنا متناثراً سقط من بائع أثناء توجهه إلى السوق. ويُعتبر البلح المنثور في طريق القافلة فأل خير ينبئ بنجاح الرحلة. وقد يحدث أحياناً أن يتعمّد أصدقاء البدوي نثر البلح في طريق قافلته قبل أن تبدأ بالسير حتى يجده في سبيله. وقد زاد هذا الفأل الأمل بنجاح الرحلة، بعد حادثة الغزال. وجاءت حادثة أخيرة لتكون أكثر الأحداث بعثاً للتفاؤل. في الواقع، كنتُ قد أرسلتُ رجلين من رجالي يحملان خطاباً إلى السيد إدريس السنوسي في جغبوب أعلمه فيه بقرب وصولي، فالعادة في الصحراء ألاّ يفاجئ الإنسان صديقاً أو أي شخصيّة مهمّة من دون سابق إنذار بمجيئه، لأنّ هذا الإعلان المسبق يمكّن كليهما من ارتداء الملابس التي تليق بلقاء أهل الفضل والوقار.وبعد أن تركنا سيوة بيومين، وكنتُ أمتطي الجمل في آخر القاقلة، توقفت الجمال عن المسير. فاستوضحت سبب هذا التوقّف غير الاعتيادي. فأجابني الرجال: «إنّ رسلاً جاؤوا يحملون خبر وصول السيّد إدريس السنوسي بعد ساعة، فما كاد رجالي يسمعون الخبر حتّى بان في عيونهم الفرح. في الواقع، لقد اعتبروا مجيء شيخ السنوسيين نفسه للقائنا في أوّل الرحلة فألاً حسناً. وقال الرسّل إن السيد إدريس «يرجو البيك أن ينصب خيامه حتّى يأتي إليه»، الأمر الذي يدلّ على الآداب والعادات المتّبعة في الصحراء. ولم نكد ننصب الخيام حتّى رأينا قافلة السيّد إدريس تطلّ

ثم قامت بنصب خيامها على مقربة منّا. وبعد نصف ساعة، تقدّم السيّد إدريس إلى خيامنا، يحيط به حشمه، وتقدّمتُ للقائه، فقابلني مقابلة وديّة. فجدّدنا مراسم تلك المعرفة القديمة، وظهر السرورعلى وجهي ولاح الابتهاج على محيّاه. ولا أخفي على القارئ أنّ الرحلة الأولى لم تلقَ هذا النجاح إلاّ برعاية السيّد إدريس لنا وعنايته بنا، فما بالك بأثر هذه الرعاية في رحلتنا هذه، وهي أطول من الأولى بثلاث مرّات وتقتضي التوغّل في أراضٍ أجهلها تماماً. ودعانا السيّد إدريس لتناول الغداء في خيمته، فأكلنا الأرز والدجاج المحشو وفطير البدو المحلّى. وبعد ذلك شربنا أكواب الشاي المعطّر بالنعناع وماء الورد. وفي ظلّ هذه الأجواء، شرحتُ للسيّد إدريس خطّتي وأطلعته على ما يدور من أحداث في العالم، فلقد كان مهتماً لمعرفة ما آل إليه مؤتمر السلام[1] في فرساي. وبعدها، طلب منّي أن أدعو رجالي إلى خيمته ليباركهم، فجاؤوا ووقفنا جميعاً نصغي إلى تلك الألفاظ تنطق بها شفتيه، فعادت إلى ذاكرتي تلك الساعة التي وقفت فيها أمام أبي في تلك الغرفة المعطّرة بعبق البخور أتلقّى بركته ودعاءه لي، ورحتُ من ثمّ أتخيّل طيف الصحراء والإبل والحياة البدوية. لقد كان ذلك ضرباً من الخيال تصوّرته، أما الآن فقد أصبح حقيقة، وأصبحتُ في لباس البدو أتقدّم القافلة وأسلك الطريق نحو هدفي.

وأحيت مباركة السيد إدريس في رجالي الأمل العظيم بنجاح الرحلة وسلامتها من كل خطر. وحلّ وقت العصر فودّع كلّ منّا الآخر، ورُفعت الخيام وسارت القافلتان، فاتّجهت قافلة السيّد إدريس شرقاً إلى مصر، بينما تقدّمت قافلتنا غرباً إلى جغبوب وما وراءها من صحراء مترامية الأطراف.

وأراد رجالي أن يستزيدوا من بركة السيّد إدريس، فصمّموا على أن يتبعوا في سيرهم الطريق الذي سلكته قافلة شيخ السنوسيين عند قدومها إلينا.

---

(1) مؤتمر فرساي: عقد العام 1919 بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة في قصر فرساي بباريس وكانت أهم نتائجه: فرض غرامة مالية كبيرة على الدول المنهزمة، فرض قيود على تسليح الجيش الألماني، فقدان الدولة العثمانية كل ممتلكاتها في أوروبا وآسيا، توسع الامبراطوريتين الفرنسية والانجليزية، واختفاء أربع امبراطوريات عريقة: النمسا – ألمانيا – تركيا – روسيا. (المترجم)

الفصل الخامس
السنوسيّون

لا يكتمل سرد قصّة عن صحراء ليبيا من دون ذكر السنوسيين الذين يشكّلون أهمّ عامل من عوامل النفوذ في تلك المنطقة. وهذا الموضوع كبير يستحقّ أن يفصّل في كتاب خاصّ، ولكنّي سأقدّم للقارئ في هذا الفصل القصير أهمّ المحطات في تاريخ السنوسيين.لا يكوّن السنوسيون شعباُ أو مملكة أو وحدة سياسية أو دينية، وإن كانوا يتمتّعون بكثير من هذه الخصائص الأربع. في الواقع، إنّهم من البدو الذين يسكن معظهم في صحراء ليبيا، ويبسطون نفوذهم على مساحة كبيرة من تلك المنطقة. وتقرّ حكومات المنطقة بأنّهم يشكّلون قوّة حقيقية في شؤون شمال شرق أفريقيا، وهم مسلمون. وقد يكون أفضل وصف لهم أنهم رابطة دينية ذات زعامة وراثية ونفوذ قويّ في إدارة شؤون سكّان صحراء ليبيا. ويمكن تقسيم تاريخ هذه الطائفة إلى أربعة عصور، حيث اكتسبت الطائفة صبغتها في كلّ عصر منها وفق شخصية الزعيم. وكان الزعماء الأربعة على التوالي السيّد محمد بن علي السنوسي وهو مؤسس الطائفة، وابنه السيّد المهدي، والسيّد أحمد وهو ابن أخي المهدي، وزعيم الطائفة الحالي السيّد إدريس بن المهدي.وُلد السيّد محمد بن علي السنوسي المعروف بالسنوسي الكبير في الجزائر العام 1202 هجريّة*، وهو من نسل الرسول عليه السلام، وتلقّى دراسة فريدة من نوعها في جامعة القيروان وفي فاس وفي مكّة، حيث أخذ العلم عن الفقيه الشهير سيدي أحمد بن إدريس الفاسي. وقد مالت نفسه إلى التقشّف، وأيقن أنّ الدين الاسلامي يفتقر للرجوع إلى تلك الصورة الخالصة التي وضعتها تعاليم النبي محمد عليه السلام. وقد اضطّر أن يترك مكّة في السنة الأولى بعد أن بلغ سنّ الخمسين، مدفوعاً بمعارضة الفقهاء المتقدّمين في السنّ الذين خالفوه في بعض آرائه الدينية، فعاد عن طريق مصر إلى برقة، وأخذ يؤسّس المعاهد لنشر تعاليمه بين أهل البادية. وسنتناول في شرح هذه التعاليم ذكر ثلاثة أشياء لا مندوحة من تفسيرها لتوضيح النصّ، وهي الزاوية والإخوان والوكيل.

أما الزاوية فهي بناء مكوّن غالباً من ثلاث غرف، ويتوقف حجمها على أهميّة المكان الذي تقام فيه. وتستخدم إحدى هذه الغرف لإعطاء الدروس التي يتلقّاها صغار البدو عن الإخوان، والثانية لاستضافة المسافرين لتمضية ثلاثة أيام التي يقضي بها كرم البدو، والغرفة الثالثة ليسكن فيها الإخوان. وتبنى الزاوية عادة بالقرب من بئر يقف عندها المسافرون، كما يجاور الزاوية في أغلب الأحيان مساحة أرض معينة يزرعها الإخوان. والإخوان هم الأعضاء الناشطون في هذه الطائفة، وهم الّذين ينشرون تعاليمها وأهدافها. والإخوان تسمية تطلق على المفرد والجمع في اصطلاحهم. وأمّا الوكيل فهو ممّثل شيخ السنوسيين والقائم مقامه بالأمر.رأى مؤسّس هذه الطائفة مسلمي برقة تائهين في الضلال، معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية، فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط. وسنعرض بعض الأمثلة لبلورة هذه النقاط.

أسّس بعض أصحاب النفوذ، من شيوخ البدو في الجبل الأخضر شمال برقة، ضرباً من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذي قضى الاسلام بالحجّ إليه لكل من استطاع إليه سبيلاً. وقد أراد مؤسّسو هذه «الكعبة المزيفة» أن يقنعوا البدو أن زيارتها تقوم مقام حجّ بيت الله الحرام. بالاضافة إلى ذلك، أراد أولئك الشيوخ أن يتخلّصوا من صوم رمضان والانقطاع فيه إلى العبادة، فاختلقوا لذلك بدعة تقضي بأن يذهبوا قبل حلول رمضان بأيام إلى وادٍ يدعى وادي زازا، وهو معروف بقوّة ارجاع الصدى الذي تردّده جوانبه، ثمّ يصرخون جميعاً سائلين: «يا وادي زازا أنصوم رمضان أم لا؟» فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة وهي «لا لا». ويتصوّر من سأل ذلك الوادي أنّهم أصبحوا في حلّ من الصوم، فيفطرون غير مقيّدين بأوامر الدّين الحنيف، مقتنعين بأن الأمر صدر إليهم بعدم الصوم.والجدير بالذكر أنه في بداية تعاليمه أقيمت الصلاة، فدخل المسجد أعرابيّ يُدعى مجرم، ووقف في الصف الأوّل يصلّي لأوّل مرّة، فقرأ الإمام آية ﴿أَلَم نُهلك الأوّلين﴾ فرجع إلى الصفّ الثاني فقرأ الإمام ﴿ثمّ نُتبعهم الآخرين﴾ فرجع مجرم إلى الصفّ الأخير، عندها قرأ الإمام ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾. فخرج مجرم من بين المصلّين يعدو مهرولاً إلى داره. فسألته زوجته وقد رأته مضطرباً ما خطبه؟ فقال: «ها دوّة الصلاة دوّة وعرة، هلك الأوّلين عدتُ إلى الوراء، هلك الآخرين عدتُ إلى الوراء، نادى بالاسم يا مجرمين، عدوت». وكان من بين البدو الذين ينتمون إلى تلك المناطق عادات قديمة لا تزال قائمة،

فكانوا يقتلون البنات خشيةً أن يجلبن لهم العار. وهذه العادة السيئة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدّم إلى نخبة ناشري الدعوة للإسلام. رأى مؤسس الطائفة السنوسية كلّ ذلك، فحاول، من خلال تعاليمه وإرشاداته، أن يعود بالإسلام إلى قواعده في ذلك العهد الطاهر. وأسّس السيّد محمد بن علي السنوسي أوّل زاوية في أرض أفريقية في واحة سيوة، وتقدّم من تلك المنطقة غرباً إلى برقة فأسّس الزوايا في جالو وأوجلة. وتوغّل غرباً في طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو. وكانت قد سبقته إلى تلك المناطق شهرته الدينية والعلمية، فطلب شيوخ البدو أن يزورهم، وتنازعوا في سبيل إكرامه. وعاد إلى برقة العام 1258 هجريّة أي السنة 1843 ميلاديّة، فأسّس زاوية كبيرة في الجبل الأخضر بالقرب من درنة، ودعاها الزاوية البيضاء. ولم يكن له حتّى هذا العهد مركز ثابت لأنّه كان كثير التجوال ينشر تعاليمه في كلّ مكان، فأقام في الزاوية البيضاء واستقبل الزوّار من رؤساء قبائل برقة. وكانت أهمّ تعاليم شيخ السنوسيين الدعوة إلى الدين الإسلامي الحقّ، والتمسّك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيّه الكريم. وهناك فقرة من كتابه إلى أهل واجنجة في واداي تدلّ على تعاليمه خير دليل، وهي: «أسألكم بإسم الإسلام أن تطيعوا الله ورسوله، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ويقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[1]. «أسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله، فتؤدّوا الصلوات الخمس، وتصوموا رمضان، وتؤتوا الزكاة، وتؤدّوا فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام، وتجتنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة، وابتزاز أموال الناس، وشرب الخمر، وتأدية شهادة الزور، وغير ذلك ممّا أمرنا الله باجتنابه. فإذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عمّا نهى عنه، أنزل عليكم نعمته الأبديّة، ومنحكم الخير والرزق الدائمين».

وكان أهمّ ما عني به مؤسّس الطائفة السنوسية الدعوة إلى الحياة الدينية الطاهرة، فلم يعمل لأن يكون زعيماً سياسياً أو صاحب قوّة زمنيّة. وكان في كل أعماله مثالاً صالحاً للتقوى التي دعا الناس إلى التحلّي بها. ولم تكن له تعاليم خاصّة في الفقه أو آراء شخصيّة

---

(1) سورة النساء: 59، 69، 80.

في تفسير قواعد الدين. وكان أكبر همّه اتّباع رجاله قواعد الإسلام، لا الإكثار من وضع العقائد. والشيء الوحيد الذي أضافه إلى العبادات الدينية هو دعاء وضعه وردّده السنوسيون بعد ذلك، وكان هذا الدعاء يحمل إسم «حزب»، وهو لا يتعارض البتّة مع تعاليم الفقهاء السابقين ولا يضيف شيئاً عمّا نزل به القرآن الكريم، وإنّما هو تعبير موافق لما جاء في مُحكم التنزيل، ولكن بلغة مختلفة. وقد جاء في كتابه إلى أهل واجنجة، الّذي سبقت الاشارة اليه، فقرة أخرى تبيّن الفكرة التي أقام عليها دعوته في سبيل ارضاء الله وخدمة الدين وهي: «تنبيه الغافل، وتعليم الجاهل، وهدي من ضلّ سواء السبيل».وقد نهى عن حياة الترف كلّ من انضم إلى طائفته، فمنع امتلاك الذهب والجواهر إلا في حلى النساء، كما حرّم تدخين التبغ وشرب القهوة. ولم يأمر كذلك بطقوس أو فروض جديدة، وإنّما طلب من الناس أن يتّبعوا قواعد الدين في أبسط مظاهره، كما أنزله الله على رسوله الكريم. وكان لا يجيز اتّصال رجاله بالأجانب، ليس فقط بالمسيحيين واليهود، بل أيضاً بأهل البلاد الاسلامية التي يعتقد أنّها حادت عن الدين الحنيف، وذلك كي لا يفسدوا عليهم عقائدهم وكي تتأصّل تعاليمه في نفوسهم.وفي سنة 1270 هجريّة[1]، أسّس السيّد محمد بن علي في جغبوب الزاوية التي أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان للطائفة السنوسية. ولم يكن اختياره جغبوب عن طريق الصدفة أو بحسب اتّفاق، وانّما نظر في اختياره هذا بعين الحكمة والرويّة، فأراد أن تكون هذه الزاوية مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية الاسلام بينهم جميعاً. وقد جاء في خطابه المتقدّم إلى أهل واجنجة وهم من العرق الأسود: «يا أهل واجنجة إننا نريد نشر السلام بينكم وبين أهل العرب الذين يحتلّون بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزّون أموالكم، وإنّنا بذلك نقوم بما أمر الله به في كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى:﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾[2]، ويقول الله عزّ وجلّ:﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3]. وشكّلت جغبوب مركزاً استراتيجياً لتحقيق هدفه، فهي وسط قبائل في الشرق والغرب تتنازع باستمرار. فاستطاع السنوسيّ الكبير، وبفضل مقرّه

(1) سنة 1854 ميلادية.

(2) سورة الحجرات: 9.

(3) سورة الأنفال: 1.

الرئيسي هناك، أن يبسط نفوذه على المتنازعين، وأن يصلح في ما بينهم، كما أمر الرسول. ومن الناحية العملية، لم تكن جغبوب مكاناً يصلح لأن يكون مركزاً علمياً أو دينياً، وفق ما اعتقد السنوسيّ الكبير، لأنّها لا تتمتّع بخصوبة الواحات، إن صحّ أن تسمى واحة. فالنخيل فيها قليل والماء غير عذب والتربة غير صالحة للزراعة. ولكن لا خلاف على أهميّة موقعها الاستراتيجي، ولذلك اتخذها مقراً له من دون تردد. وبالفعل، انتهت بعد إقامته هناك تلك النزاعات التي كانت قائمة بين قبائل الشرق والغرب، وكان له الفضل في إيقافها. ولم يقتصر نفوذه على تلك المناطق، بل تعدّاها إلى قبائل برقة، فقضى على ما كان بينها من عداء قائم منذ زمن بعيد.

وعاش السيّد محمد بن علي السنوسي ستّ سنين بعد أن اتَخذ جغبوب محلاً لإقامته، ومدّ نفوذه شرقاً وغرباً حتّى دعته إلى الكُفرة قبيلة «زويّ»، التي اشتهر رجالها بأنّهم قطاع طريق برقة، وكانوا معروفين بين العرب بأنّهم لا يخافون الله ولا يخشون الناس، وطلبت منه أن يؤسس زاوية هناك. وقد وافقوا على أن يوقفوا النزاعات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى، وعرضوا عليه ثلث أملاكهم في الكُفرة إذا رضي بأن يوفد إليهم أحد إخوانه، ينشئ بينهم زاوية حيث ينشر فيها تعاليمه ويعلم أبناءهم. ولم يتمكّن السيّد من الذهاب بنفسه، فأرسل أحد أبرز الإخوان وهو سيدي عمر أبو حواء، فأسّس زاوية في جوف في الكُفرة، وبدأ ينشر تعاليم السنوسي الكبير بين أهالي قبيلة «زويّ». وأرسل السنوسي إخواناً آخرين إلى جهات أخرى من صحراء ليبيا، ولم يدركه الموت حتّى أصبح جميع البدو المقيمين على حدود مصر الغربية وفي جميع نواحي برقة وطرابلس تلامذته وأتباعه. وقد مات سنة 1276 هجريّة في الرابعة والسبعين من عمره، ودفن في القبر الذي ترتفع فوقه القبّة الشهيرة في جغبوب.

وخلف السنوسي الكبير ولده سيدي محمّد المهدي، وكان في السادسة عشرة من عمره عندما توفيّ أبوه. وعلى الرغم من صغر سنّه، ساهم عاملان مهمّان في تعزيز مركزه بين السنوسيين، أوّلهما أنه في إحدى المناسبات كان يتواجد في مجلس أبيه وأراد الانصراف، فقام أبوه وأصلح وضع حذائه بنفسه، وكان قد خلعه قبل أن يدخل. ثمّ التفت بعد ذلك إلى الحاضرين وخاطبهم قائلاً: «اشهدوا أيّها الحضور أن ابن عليّ أصلح بنفسه وضع

حذاء ولده المهدي»، وقد فهم الناس عندئذٍ أنه أراد بذلك أن يشعرهم بأنّ الولد لن يخلف أباه فحسب، بل إنّه سيتخطاه في صلاحه وتقواه.أما العامل الثاني فهو أنّه جاء في إحدى النبوءات القديمة أنّ المهدي المنتظر الذي سيرفع لواء الإسلام في النهاية سيصبح في سنّ البلوغ في اليوم الأوّل من محرّم سنة 1300 هجرية، يولد من أبٍ اسمه محمد وأمّ اسمها فاطمة. وقد جمع المهدي في نفسه كلّ الصفات التي قيل إنّها وردت في أحد كتبهم، ولذلك تمّ اختياره خلفاً لكبير السنوسيين.وانتشرت زوايا السنوسيين حتّى أصبحت، عند بلوغ السيّد المهدي، ثمانية وثلاثين زاوية في برقة، وثماني عشرة في طرابلس. وانتشرت غيرها في بقاع أفريقيا الشمالية، بالإضافة إلى عشرين زاوية تقريباً في مصر. وقد قُدّر عدد من انضمّ إلى الطائفة السنوسية وأقرّ بالزعامة الدينية للمهدي، عندما خلف أباه، بين مليون ونصف المليون فرد وثلاثة ملايين. وتجدر الإشارة إلى أنّ المهدي هو أشهر أفراد أسرة السنوسي. فقد رأى منذ البداية أن نفوذ الطائفة يجد في مناطق الكُفرة والبلاد الجنوبية مجالاً أوسع مما يجده في الشمال. ولذلك نقل مركز إقامته سنة 1312 هجرية من جغبوب إلى الكُفرة. وقبل أن يترك مقرّه القديم، أطلق جميع عبيده من الرقَ، ولا يزال بعض من هؤلاء العبيد وأولادهم مقيمين في جغبوب. وشكّل انتقاله إلى الكُفرة فاتحة عصر جديد في تاريخ السنوسيين. ففي عهده، تقدّمت التجارة بين السودان وشاطئ البحر الأبيض المتوسّط عن طريق الكُفرة، حتّى إنّ الطريق الوعرة الخالية من الماء، الواقعة بين «بوالطفل» بالقرب من جالو وبين بئر «زيغن» في شمال الكُفرة، أصبحت طريقاً تسلكها باستمرار القوافل التجارية ويرتادها المسافرون لزيارة الكُفرة، مركز طائفة السنوسيين. وبلغت الحركة في تلك الطريق حدّاً كبيراً، فأخبرني بدويّ مرّة قائلاً: «إنّه كان في وسع الإنسان أن يسير نصف يوم من أوّل القافلة إلى آخرها».هذا وكانت الطريق من الكُفرة إلى واداي وعرة وخطرة في تلك الأيام، فحفر المهدي بئري «بشرى» و«سارَة» في الطريق الممتدّة من الكُفرة إلى تكرو. وكانت واحات الكُفرة في أيّام قبيلة «زويّ» البدويّة التي انتزعتها من قبيلة «التبو»، المعروفة بعرقها الأسود، مركزاً مهماً للسطو والاغتيال في صحراء ليبيا. وكان أفراد هذه القبيلة المتمرّدة يميلون إلى القتال، ولا يخضعون لقوّة أو لقانون ولا يرحمون من يخترق أراضيهم. فلم تسلم قافلة مرّت بالكُفرة من النهب والسلب أو الاضطرار لدفع الجزية. وجاء المهدي فجعلهم يتنازلون عن طلب تلك الجزية، لأنّه أدرك أهميّة تطوير

تجارة هذه الواحات والطرق عبر صحراء ليبيا، من الشمال إلى الجنوب. لقد عمل على جعل السفر في الصحراء آمناً، حتّى قال لي أبو مطاري، وهو من شيوخ قبيلة «زويّ» في الكُفرة، «إنّه صار في وسع المرأة أن تسير من برقة إلى واداي من دون أن يتعرّض لها أحد». وفي هذا الإطار، بسط المهدي نفوذ السنوسيّين في جهات كثيرة، وأرسل الإخوان يؤسّسون الزوايا في البلاد الواقعة بين مراكش وبلاد فارس. ولكن أهمّ أعماله كانت في الصحراء بين البدو وقبائل السود المقيمة جنوب الكُفرة. فقد جعل من السنوسيّين قوّة روحية منتشرة في تلك المناطق، وعاملاً قوياً لبثّ السلام وروح الأخوة بين القبائل. وأكثر من ذلك، فلقد جعلهم هيئة تجارية كبرى وبفضلهم نمت التجارة وازدهرت. وفي آخر سني حياته، أخذ على عاتقه بسط نفوذ الطائفة، فانحدر إلى الجنوب حتّى وصل جرو، جنوب الكُفرة، حيث كان على موعد مفاجئ مع الموت سنة 1900 ميلادية. مات المهدي ولم يكن أحد من أولاده قد أكمل سنّ البلوغ، فخلفه في زعامة السنوسيّين ابن أخيه السيّد أحمد وصياً على السيد إدريس، أكبر أبناء المهدي وخليفته الشرعي. وخرج شيخ السنوسيّين الجديد عن مناهج أسلافه، فأراد أن يجمع بين القوّتين الزمنيّة والدينيّة في آن. فحين أخذ الايطاليون برقة وطرابلس من الأتراك، حاول السيّد أحمد أن يضيف إلى قوته الروحانيّة ما تركه الأتراك من القوّتين الزمنية والحربية. واندلعت الحرب العظمى، فأراد أن يهاجم تخوم مصر الغربية تحت تأثير البعثات التركية والألمانية، ولكن فشلت مساعيه حتّى اضطّر إلى السفر إلى تركيا في غوّاصة ألمانية. وهكذا خالف ثالث زعماء السنوسيّين سياسة السنوسي الكبير وابنه المهدي اللذين أدركا أن الزعيم الديني لا يمكن منازعته في زعامته أو القضاء على مكانته. أما اذا طالب هذا الأخير بالحصول على السلطة الزمنية فقط، فان بعض الهزائم الحربية كفيلة للقضاء على سلطانه وتدمير شهرته. وقد كانت قوّة السيّد محمد بن علي والسيّد المهدي عائدة إلى صفتهما الشخصية وما يشاع عن تأثيرهما الروحاني، فخالفهما السيّد أحمد في ذلك باعتماده على الأسلحة والذخائر والظروف، حتّى إذا خانته كلّ هذه المعطيات، لم يبقّ له أيّ شيء. غير أنّه كان معروفاً بصلاحه وتقواه، وله مكانة عظيمة عند البدو لشدّة تمسّكه بأمور الدين الحنيف، ولما بذله من المساعي في محاربة الايطاليين، واجتهاده في إنقاذ بلاده من عبء الاحتلال. ولمّا خرجت الزعامة من يد السيّد أحمد، عادت إلى الوارث الشرعي أي السيّد إدريس الذي يستمدّ، بانحداره

من صلب السيّد المهدي، قوّة عظيمة ونفوذاً كبيراً. وهو، وبفضل تمتّعه بهذه الميزة، أهّل لتمكين نفوذ السنوسيّين وإنجاح أهدافهم تحت زعامته لما يتحلّى به من الصفات الشريفة، من أخلاق مرنة إلى شدّة في الحقّ، ولذلك لا يقر له بالطاعة والولاء الإخوان السنوسيّون فحسب، بل أهالي صحراء ليبيا كذلك. وفي سنة 1917، حصل اتّفاق بين السيّد إدريس وبين الحكومة الايطالية، أقرّت بموجبه إيطاليا للسيّد بحقّه في إدارة شؤون واحات جالو وأوجلة وجدابيا والكُفرة. وقد تجدّدت المصادقة على هذا الاتفاق بعد ذلك بسنتين في رجمة. ولسوء الحظّ، وقع خلاف بين الطرفين المتعاقدين سنة 1923، ففُسخ الاتفاق بينهما. غير أنّني أرجو أن يتجدّد هذا الاتفاق بين السيّد إدريس والحكومة الايطالية، فيعود إلى تلك الواحات ما كان لها من أمن ورفاهية.ولا خلاف في أنّ للنفوذ السنوسيّ في حياة سكّان تلك المناطق أثراً جيداً، فالإخوان السنوسيون لا ينشرون العلم ويقيمون قواعد الدين وينشرون دعوته فحسب، بل يوفّقون أيضاً بين الرجال والقبائل. وخير دليل على روح التوفيق هذه والرغبة في نشر لواء السلام خطاب السنوسي الكبير إلى أهل واجنجة الّذي ألقى تلك المهمّة على عاتق السنوسيّين الإخوان، ولم يخرج ولده المهدي عن هذا الميل في التوفيق بين الأفراد، إن لم يكن قد زاده وقوّاه. ومهما كان ما قلناه، فإنّنا لم نفِ مظاهر الحكم السنوسي حقّها في حفظ الأمن وصيانة السلام والسعي لما فيه خير أهل صحراء ليبيا.

الفصل السادس
جغبوب الهادئة

في عصر اليوم التالي لمقابلة السيّد إدريس، رأينا قبّة مسجد جغبوب البيضاء تطل على المدينة، فاتّبعنا عادات البدو وحططنا رحالنا على مسافة من المدينة، وأرسلنا رسولاً يحمل خبر وصولنا. فعاد هذا الأخير بعد ساعتين يخبرنا باستعداد القوم للقائنا. وتقدّمت القافلة إلى المدينة، وعندما أصبحت على مقربة من أسوارها، أطلقنا طلقات نارية في الهواء. جاء سيدي حسين الوكيل ليقابلنا على باب المدينة، وهو ممثّل السيّد إدريس في تلك المدينة، وكان يرافقه جمع من الإخوان المدرّسين في جامع جغبوب. واصطفّ الطلاّب على جانبي الطريق يرحبّون بنا مهلّلين، ونحن نخترق صفوفهم. فكان لهذا الترحيب صدى سرور تردّد في قلوبنا.دخلتُ جغبوب وكأنّي عائدٌ إلى وطني. ففي رحلتي الأولى، كانت هذه المدينة على مقربة من غايتي، غير أنّها أصبحت الآن النقطة التي تبدأ منها رحلتي الثانية، أو بالأحرى نقطة من عدّة نقاط، لكنّها على أيّ حال بداية الرحلة الطويلة النائية التي تنتظرنا. وأحسست عند دخولها بردّ الفعل الذي ينتاب كلّ من انتهى من سفر طويل. وكان شعوري مزيجاً بين ما هو متوقّع والتأثّر، لأنّ الانتهاء من رحلة واستئناف أخرى هما ظرفان متباينان، يثير كلّ منهما في النفس البشرية مشاعر متباينة. وقد كنتُ قلقاً وأودّ الإسراع في الرحيل، ولكن عدم وجود الجمال اضطرّني إلى الإقامة في جغبوب نحو خمسة أسابيع. وكنت قد أرسلت، قبل رحيلي من السلّوم، رجلاً اسمه السيّد علي السعيطي، وكلّفته أن يسبقني إلى جغبوب عبر الطريق المستقيمة، كي يستأجر جمالاً ويقوم بإعدادها، حتّى ألحق به عن طريق سيوة. ولكنّني لم أجده، وسمعتُ أنّه انحدر إلى الغرب إلى جدابيا ولم يوفّق في طلبه، فالأعراب الذين لقيهم بعد سفره من السلّوم لم يرضوا التنازل عن دوابهم التي كنت في حاجة إليها. ولم يوفّق علي بإيجاد الجمال في جدابيا كذلك، ولم تصلني أخباره لمدّة أسبوعين. وبعد ذلك، عرفت السبب

في عدم حصوله على مطلبه، وهو أنّ الطريق من جغبوب إلى جالو كانت حكراً على رجال قبيلتي زويّ والمجابرة، ولا يجرؤ على اجتيازها غيرهم من رجال القبائل الأخرى إلا بإذن منهم.وفي الواقع، إنّ جمال جغبوب وهدوءها جعلاني أنسى شوقي إلى استئناف السفر. إنّها بلاد تشتهر بالعلم والدين، وإن لم تكن مركزاً للتجارة أو الزراعة، إذ إن المساحة الصالحة للزراعة فيها ليست سوى بقاع متناثرة من الأرض تنتج القليل من الخضر والبلح، ويستغلّها العبيد الذين أطلقهم السيّد المهدي عند انتقاله إلى الكُفرة. ويُعتبر مركز حياة جغبوب مسجدها الكبير الذي يتّسع لنحو ستمئة شخص، بالاضافة إلى مدرستها وهي مركز التعليم الديني لطائفة السنوسيّين. ويحيط بالمسجد بعض منازل يسكنها أفراد الأسرة السنوسيّة والإخوان. وداخل أسوار المدينة وخارجها، ينتشر قليل من المنازل الخاصّة، ويسكن نحو ثلاثمئة طالب في منازل صغيرة بالقرب من المسجد. وقد وصلت جغبوب إلى أوجّ شهرتها في عهد السيّد محمد بن علي السنوسي الكبير حين اتّخذها مركزاً لطائفته، وخليفته ابنه المهدي. فظلّت محتفظةً بشهرتها مدّة اثنتي عشرة سنة، حتّى انتقل إلى الكُفرة فأصبحت هذه الأخيرة مركز أعمال السنوسيّين. واستعادت جغبوب عهدها المزدهر أيّام السيّد أحمد الشريف الذي كان وصيّاً على السيّد إدريس السنوسي قبل بلوغه سن الرشد. وكانت أهميّة هذه المدينة تزداد وتقلّ وفقاً لترك السنوسيّين لها أو رجوعهم إليها. فإذا جعلها السيّد إدريس عاصمة السنوسيّين، أصبحت مدارسها ومنازلها، وفي غضون شهرين، تعجّ بأعضاء الطائفة والطلاب، ويقصدها الأتقياء من كلّ صوب لزيارة ضريح السنوسيّ الكبير. ولكنّ، عند زيارتي لها لم أجد فيها إلا ثمانين طالباً بدويّاً تراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة، يستقون العلم من الإخوان. غير أنّ قلّة عدد الطلاّب تعود إلى قلّة عدد المدرّسين، فإنّ السيّد إدريس الذي تفضّل بمقابلتنا في طريقه إلى مصر، كان يقيم في ذلك الوقت في بلدة جدابيا الواقعة على مسافة بعيدة من غرب جغبوب.ويتألّف مسجد جغبوب من غرفة داخلية تحوي مقصورة من النحاس حيث يوجد ضريح ذلك الرجل الكبير الذي طلب لقومه مظهر الإسلام الطاهر المتين في بساطته، والذي لا تشوبه شائبة من الحياة المادية. ويزور هذا الضريح كلّ من استطاع السفر وله صلة بالطائفة، وأراد أن يجدّد المواثيق على اتّباعه تعاليم السيّد السنوسي الكبير. أما الطلاّب فكانوا يقصدون جغبوب لأمرين: فإما أن

يتهيّأوا ليصبحوا إخواناً للطائفة، أو ليعودوا إلى ديارهم في الواحات المختلفة مزوّدين من العلم ما يجعلهم يهيمنون هيمنة دينية على رجال قبائلهم.ولم يكن يشغلني شاغل في هذه المدينة الهادئة إلا اهتمامي بتأمين الإبل التي توصلني إلى جالو الواقعة على مسافة 350 كيلومتراً تقريباً نحو الغرب. وفي ما عدا ذلك، أمضيتُ أيامي في جغبوب في التبصّر والتأمّل وإعداد ما يلزم للرحلة. وتملك الصحراء، في العقل والروح، تأثيراً يختلف عن تأثير حياة المدن الصاخبة. فخلال الأيام التي أمضيتها بالطواف في هذه المدينة الصغيرة، أو عندما خرجت إلى الواحة التي تحيط بها، أو وقفت تحت ظلال المسجد النديّة، أو جلست في برجه أتحاور مع علماء البدو في مختلف الأحاديث، وأرى الليل يمدّ هدوءه على القبّة البيضاء وما تشرف عليه من تلك الأبنية المتلاصقة، ارتحت من الانشغالات التافهة التي تبعثها حياة المدن المزدحمة بسكّانها المتناحرين على الحياة. ومرّت الأيام تباعاً، فقضيتها بين تنزّه في الصباح وأداء صلاة الظهر في المسجد، ثمّ تناول الطعام بهدوء. وعندما كنت أنتهي من تناول الطعام، أمضي وقتاً في تفحّص معدّاتي العلمية وآلات التصوير، ثمّ أصلّي العصر وأستريح قليلاً. وفي المساء، أتناول العشاء وأجلس مع رجالي أوزّع عليهم أكواب الشاي على طريقة البدو. وبعد أن أصلّي العِشاء، أجلس لأراقب النجوم وأناجيها، وأطلق خيالي في سماء الليل الساكن، ثمّ أخلد إلى فراشي فأهنأ بنوم لا يتذوقه ساكن المدن.وقد استلطفتُ من بين الإخوان الذين رأيتهم في جغبوب رجلاً استرعى انتباهي لعدم اختلاطه بي أو محادثته لي، وقد حاولت أن أعلم سرّ ذلك الأمر من بقيّة الإخوان، فلم أفلح حتّى علمتُ أخيراً وعن طريق الصدفة قصّة هذا الرجل. لقد كان هذا الأخير شيخاً ذا وجه يظهر فيه الكبر، وتلوح دلائل احتقار الحياة في شفته المتقلّصة، وإن لم تنصفه الدنيا في أيامه الأخيرة. وفي زيارتي الأولى إلى جغبوب، كنتُ قد أقمتُ في داره الخالية، وحاولتُ أن أطيل معه الحديث فلم تسمح لي الفرصة المناسبة. ولمّا عدتُ إلى جغبوب هذه المرّة، جاءني هو ليرحّب بي ليلة وصولي، فأحسست أن ذلك الشيخ يعيش مأساةً ما يخفيها عن الناس. وتجدر الإشارة إلى أنه ينتمي إلى قبيلة البراعصة وهو من رجال البدو الأخيار، ولكنّه كان ينعى الأقدار ولا يستسلم لحكم الدهر، ولطالما أدهشني في طبعه ذاك، فإنّي أعرف في نفوس العرب القناعة بحكم القضاء والقدر. أضف إلى أنّ كلّ من كان يحيط بي في جغبوب يمثّلون الإنسانية الخيّرة الرضية

إلا هذا الشخص، فلقد كان وحده دون بقية الإخوان يمثّل صورة مخزّنة للكبرياء المحطّمة. وحدث لي ذات مساء، عند عودتي من المسجد، أن وجدتُ مبروكاً، وهو من عبيد سيّدي المهدي الأقدمين، فحيّيته وردّ التحيّة بأجمل منها، ثمّ جلستُ أحادثه. فبدأنا بذكر قطعة الأرض الصغيرة الّتي يتعهّد زرعها. فقال لي: «ليس لدينا من الغذاء شيء كثير، ولكن بركة سيّدي المهدي تجعل من قليلنا الكثير». وفي هذه اللحظة، اجتاز صحن المسجد، رجل طويل القامة يرتدي ثوباً أبيض، بدا كأنّه شبح من الأشباح. وكان ذلك الشيخ آدم بو جميرة، فأشرت إليه بإصبعي وقلتُ لجليسي: «لا أخفي عنك أن صحّة هذا الرجل لم ترقني حين زارني اليوم، لا أعرف ما خطبه». فأجابني مبروك: «إنّ هذا الشيخ لا يعاني داء، وإنّما يتألّم للقدر السيئ الذي ألمّ بأخيه». واستطرد مبروك في القصّة، فانكشف لي سرّ ذلك الشيخ الحزين. في الواقع، كان السيّد بو سيف بو جمرة، أخو آدم، وكيلاً أميناً للسيّد المهدي في جغبوب، يأمر وينهى كما يريد. حدث له أيّام طفولته أن سقط عليه حائط فحطّم رأسه، وكان السنوسي الكبير على مقربة منه، فأسرع إليه وعصب رأسه قائلاً: «ستكون هذه الرأس في مقبل أيّامها منبعاً للعلم والعرفان». وقد صدقت نبوءته، فقد أرسله أبوه إلى جغبوب أيّام إقامة السنوسي الكبير بها، وتركه يطلب العلم في مسجدها العامر، وأصبح بعد ذلك كبير الإخوان وشيخ المدرّسين في جغبوب، وشاعراً لامعاً يخطو إلى المجد. ومات السنوسي الكبير فاتّخذه سيدي المهدي وكيله الوحيد في جغبوب حين نزح إلى الكُفرة، وائتمنه على أملاكه وأوكل إليه إدارة كلّ شيء في تلك المدينة. بيد أنّ الله أراد أن يعاقب بو سيف كي يكون مثالاً للإخوان الآخرين ولكلّ من خان السيّد ولم يكن عند حسن ظنّه. فقد أغوته الحياة المادية فمال إليها وبدّد أكثر أملاك المهدي، وباع الكثير من عبيده، وبذّر كلّ ما وصلت إليه يده من المال. وأراد الله عقابه ففضح سرّ خيانته. وتمثّل آخر مظهر من مظاهر هذه الخيانة، على الرغم من عدم وجود أدلّة، بأنّه كتب إلى كبير من الكبار في مصر (قيل إنّه أجنبيّ) يخبره أن السيّد المهدي بعيد في الكُفرة، وأنّ جغبوب لا تمانع في تسليم مقاليد أمورها لمن يستولي عليها. كان سيدي محمّد العابد السنوسي يقيم في جغبوب في تلك الفترة، فسمع بكتابة ذلك الخطاب وعرف أنّه مرسل إلى مصر عند حلول اللّيل. فأرسل في الحال اثنين من الإخوان لينصبا كميناً للرسول في الطريق ويأخذا الرسالة منه. وجيء بالرسول بعد يومين فاطّلع سيدي العابد على الرسالة

ولم يقل شيئاً، ولكنّه هيّأ قافلة للرحيل إلى الكُفرة، وسأل الوكيل أن يصطحبه. لكن هذا الأخير حاول الاعتذار نظراً لكبر سنّه وضعف صحّته. بيد أنّ العابد أصرّ على مرافقته له، فاضطّر إلى الموافقة، واجتازا الصحراء صامتين حتّى وصلا الكُفرة، فأظهر العابد هذه الرسالة إلى السيّد المهدي. وفي يوم الجمعة التالي لوصولهم، دعا السيّد المهدي جميع الإخوان للاجتماع بعد صلاة الجمعة في مسجد التاج، ثمّ وقف بينهم والتفت إلى الوكيل وقال: «يا سيّدي(...) إنّك تعلم علم اليقين ما فعلت».فوجم الحضور وعلموا أنّ في الأمر شيئاً، فأنصتوا جيداً لسماع الحديث. واستطرد المهدي في حديثه، قائلاً: «ولكنّا لن نعاقبك على ذلك، سندعك تعيش ونخصم من رزقك المألوف، والله يتولّى عقاب من يخون ثقتنا. غير أنّنا نطلب منك أن تقرأ على الجمع الحاضر من الإخوان هذه الرسالة التي خطّتها يدك». فلم يسع الرجل إلاّ الإذعان لأمر المهدي فقرأها، والإخوان تلوح في وجهوههم الدهشة من خيانته، وهو الذي كان موضع ثقة المهدي. وانتهى الرجل من قراءة الرسالة فقال المهدي: «سنعفيك بعد الآن من مشقّة النظر في أمورنا».

ثمّ صرفه المهدي، فعاد المسكين إلى داره مريضاً ومات بعد ذلك بأيّام قليلة، ومن ثم توفيّ أيضاً ولداه بعد بضعة أشهر. وتزوّجت بنتاه من رجلين من الأسرة السنوسيّة. وقد استولت الأسرة السنوسية على جميع أملاكه وكتبه. وتجدر الاشارة إلى أنّ مكتبته كانت من أغنى مكتبات الطائفة، ولم يبقَ من أسرته إلا أخوه، الشيخ الذي ورث عنه بيته الخالي في جغبوب وعقاره الملاصق له. وبموت هذا الأخ، انقرضت أسرة ذلك الرجل الذي وثق به السيّد السنوسي».

الفصل السابع
الولائم والأدوية

لقد ظهر كرم الزعماء السنوسيّين في جغبوب إلى حدّ كبير. وهناك أشكال عدّة من الضيافة والكرم معروفة بين أهل البدو، تختلف وفقاً لمنزلة كلٍّ من الضيف والمضيف، وكذلك وفقاً للظروف والمناسبات. فإنّ المسافر إذا حلّ ضيفاً في واحة أو بلدة في الصحراء، حلّ معه رجال قافلته وما يحتاج إليه من ضروريات العيش. ولا ينزل ذلك المسافر في نزل أو في دار صديق، وإنّما يتّخذ له مقاماً منفرداً، فينصب خيامه ويقيم فيها، او يسكن في دار توضع تحت تصرّفه، كما حدث لي في جغبوب وجالو والكُفرة. فإذا حلّ ضيف على المدينة أظهر كبارها كرم الضيافة نحوه، فدعوه إلى تناول الغداء أو العشاء في منازلهم، أو أرسلوا اليه الطعام في خيامه أو داره. وسأستفيض في وصف كرم البدو عندما يدعون أحداً إلى منازلهم، وذلك حين أتطرّق إلى الكلام عن إقامتي في جالو. ففي هذه المدينة، دعاني قرابة خمسة عشر من أعيان المدينة، كلّ بدوره. أمّا في جغبوب، فقد أبدوا لي ذلك الكرم بإرسال أنواع الطعام إلى داري. وقد تمتدّ ضيافة البدوي لضيفه ثلاثة أو سبعة أيام، وفقاً لمنزلة الضيف والمضيف. وقد حدث بعد وصولي إلى جغبوب ببضعة أيّام أن تفضّل فتَيان في الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما، وهما سيدي إبراهيم وسيدي محيي الدين، وهما أصغر أبناء السيّد أحمد المقيم الآن في الحجاز، والذي كان الوصي على السيّد إدريس، فأظهرا نحوي من الكرم ما ترك لدي أثراً جميلاً جداً. فقد وصل إلى داري بدويّ ومعه عبدان يعانيان قلّة الطعام، وقدّما لي أنواعاً مختلفة من الأطعمة، فوجدتني مضطّراً إلى تذوّق ما لا يقل عن عشرين صنفاً. وجلس ممثّل عن مضيفيّ بأدب واحتشام لا يمدّ يده إلى شيء، في حين أنّني تذوّقت قليلاً من كلّ صنف، وظلّ هو يقدّم لي ما يجعلني راضياً ويحادثني أثناء تناولي الطعام. وينتمي هذا البدوي إلى قبيلة البراعصة التي اشتهر رجالها بأنّهم الطبقة الراقية من أهل الصحراء، وامتازوا بطول القامة وجمال الخلقة وعزّة

النفس والشجاعة، فإنّ البرعصي يقابل الإهانة بالسيف، ولو انفرد برجال قبيلة بأسرها. جلست أتناول الطعام وعينا هذا البدوي ترعيانني، والعبدان يقومان بخدمتي. ولكثرة ما قُدّم لي من أصناف متنوّعة، لستُ أدري إن كان بإمكاني تعداد الألوان الشهيّة التي ملأت الأطباق، ولكنّي أذكر أنّ ذلك لم يخلُ من جميع أصناف اللّحم والخضر والفطائر. ويُذكر أن اللّحم من أهمّ أنواع طعام البدوي، خصوصاً لحم الخراف الذي يشكّل أساس حياة البدوي إذا لم يكن مسافراً. ولا تكتمل ضيافة نزيله إلا بتقديم اللّحوم التي يتمّ إحضارها خصّيصاً له. فإذا أراد البدوي أن يدعو أحداً لتناول الطعام نحر له شاة، والعادة ألاّ يجهّز شيئاً أو يذبح ذبيحاً، حتّى يحضر الضيف فيرى بنفسه أنّ كلّ شيء قد أعدّ له وحده. وقد يطلب ربّ الدار من ضيفه سكّيناً يذبح بها الشاة حتّى يؤكّد له أنّه يقدم له كلّ أنواع الكرم. ويظهر كرم البدوي في كثرة ألوان الأطعمة التي يقدّمها لضيفه، فإنّ الطعام في الصحراء هو أهم مظاهر الكرم، وهو في تلك المناطق النائية كلّ ما يتحدّث به الناس.ولم تخلُ إقامتي في جغبوب من حادثتين أظهرتا لي أنّ الشرق والغرب، على الرغم من أنهما يختلفان في نواحٍ كثيرة، يتشابهان في بعض الميول. وأولى هاتين الحادثتين مضحكة، والثانية لا تخلو من العاطفة والفكاهة. كنتُ قد أمرت رجالي ألا يردّوا أحداً يقصدني في طلب دواء، فجاءني أحد الإخوان السنوسيين يطلب دواء لسعاله، فأعطيته زجاجة من الشراب الخاص لمداواة السعال. وجاءني بعد يومين قائلاً إنّ الجرعات الأولى التي تناولها أفادته فائدة كبيرة، ما دفعه إلى إفراغ ما في الزجاجة، وطلب مني أن أعطيه زجاجة أخرى ومن ثمّ انصرف. وكان عبد الله حاضراً، فالتفت إليّ وقال هازئاً: «لا أعجب إذا طلب سيدي الإخواني زجاجة أخرى، فإنّ الشراب شهيّ لذيذ، وإنّ ذلك الرجل يشربه ليتلذّذ بطعمه لا لكي يتعافى». وأظنّ أن عبد الله كان محقاً في ذلك، فطالما لاحظتُ أثناء إقامتي بإنكلترا أنّ الأطفال يؤكّدون لآبائهم أنهم يشكون من السعال، وإن لم يكن الأمر صحيحاً، لكن تدفعهم إلى ذلك حلاوة الدواء وطيب مذاقه. وقد اعتاد رجالي أن يفخروا أمام البدو بأنّي أحمل بين حوائجي الدواء لكلّ علّة.فجاءني فتى، يسألني عن دواء ليعالج به جارية من السهو والنسيان. فأجبته أنّي رأيت، بعد تجاربي العديدة في كثير من أنحاء الأرض، أنّ منع الخدم من النسيان لا يقلّ صعوبة عن منع الماء من الغوص في الرمال.أمّا الحادثة الثانية، فكان بطلاها رجلين يختلفان كثيراً عن بعضهما البعض: جاءني عبد أحد الإخوان يستشيرني في

شيء كلّفه سيّده، السيّد حسين، أن يعرضه عليّ، حيث لا يسعه إلا أن يسرّه إليّ شخصياً. في الواقع، إنّ آداب البدو تقضي ألا يذكر فرد ما زوجته أمام غيره، بل أن لا يذكر امرأة لا يعرفها المتحادثان. أمّا العبد فيمكنه أن يقول ما تأبى كرامة السيّد التصريح به. جاءني ذلك الخادم فقال: «إنّ زوجة سيّدي عاقر، وإنّ ذلك يؤلم زوجها كثيراً، وإنّ سيّده واثق أن ذلك العقم لن يُزال إلا باستخدام الأدوية التي أحملها من عجائب علم الغرب».وما كاد يتمّ حديثه حتّى تذكّرتُ أيامي الأخيرة في أكسفورد، فتذكرتُ خادماً في الجامعة كان لطيفاً ولكنّ شديد الحياء.ذات يوم، جاءني ذلك الخادم، وكنتُ أتهيّأ للعودة إلى مصر، وبعد أن استجمع كلّ جرأته ليصرّح بما يفكّر، سألني: «إذا سمحت يا سيّدي أن أسألك عن مسألة للحصول على مساعدتك. فإنّ زوجتي عاقر، والطبيب عاجز عن مداواتها وليس لديه ما يقترحه، فإذا عدت يا سيدي إلى بلدك الذي سمعتُ أنه يحتوي على أدوية عجيبة تؤثر في كل شيء، فمن فضلك ابحث لي عن دواء للحبل وأرسله إلي، عسى أن يرزقنا الله ولداً. ولا أخفي عليك يا سيّدي أني لا أؤمن بالسحر، ولكنّني استنفدتُ الحيل كلّها لحلّ هذه المشكلة». وبعد أن رأيتُ ذلك الرجل منشغل البال وهو يشكو لي همّه، لم يسعني إلا أن أجيبه بجدٍّ وعطف أنّي سأفعل ما أنا قادر عليه. ولم تدعني الحاجة بعد ذلك إلى البحث عن مطلبه، لأنّه توفيّ قبل أن أعود إلى أكسفورد، تاركاً وراءه ذكرى طيّبة بين طلاب كليّة باليول جميعهم. تذكّرت كلّ ذلك وذلك العبد منتظر، ولكن لم يسعني أن أبطئ في إعطائه ما طلب لسيّده. وأتتني فكرة للخروج من هذا المأزق، فأعطيتُ الخادم نصف زجاجة من أقراص اللّبن المركّز، وأمرته أن يجعل السيّدة تتناول ثلاث حبّات منها حتّى تحلّ المشكلة. وانصرف العبد، ففكّرت في المصادفة الغريبة بين هاتين الحادثتين. فهناك في أكسفورد، أهاب علم الغرب بقوّة الشرق الروحيّة، وقد أعيت تجاربه السبل في إيجاد دواء للحمل، وهنا في جغبوب طلب الشرق مساعدة العلم الغربي، بعد أن ضاقت به الحيل في العلوم الروحانية. وهكذا يظلّ الشرق والغرب معتقدين في قوّة المجهول العجيبة.وطالت إقامتي في جغبوب، ولكنّ عيشتي الهادئة وتمتّعي بلطف البدو وبشاشتهم لم ينسياني التفكير في مسألة الجمال. وفي هذا الإطار، بعثتُ الرسل إلى جميع المناطق المجاورة كي يطلبوها، ورفعتُ الأجر لأصحابها، ولكن من دون جدوى. وسألتُ السيّد حسين مساعدته ولكنّه أقرّ لي بعجزه عن القيام بأيّ خدمة لي. وأرسلتُ رسولاً إلى سيّده، يحمل إشارة برقيّة إلى السيّد إدريس

في مصر أعلمه فيها بحيرتي وأطلب منه المساعدة، ولكنّ السبل كانت مسدودة. وأخيراً، وقد سُدّت منافذ الأمل، وصلت قافلة من قبيلة «زويّ» كانت قد تركت جالو إلى سيوة سعياً وراء البلح، فكانت راغبة في تأجير إبل القافلة. بيد أنّ أصحابها لم يرغبوا في العودة من دون البلح الذي قصدوا شراءه. وفي نهاية الأمر، وجدتُ طريقة لحملهم على التنازل عن جمالهم. لقد أعلمتهم، بواسطة سيّدي حسين، أنّ الأوامر صدرت من الحكومة المصريّة بمنع رجال قبيلة «زويّ» من الدخول إلى الأراضي المصرية حتّى يحسم النزاع بينهم وبين أولاد علي المقيمين في مصر، ذلك النزاع الذي نشأ عن ثأرٍ متحكّم بين رجال القبيلتين منذ بضع سنين. ورأى رجال القافلة أنّ السفر إلى مصر غير ميسور، فلم يبقَ أمامهم، وقد احتُجزوا في جغبوب، إلا العودة من حيث أتوا، فكان ذلك ما قصدت، والذي ساعدني على إقناعهم بتأجير إبلهم هو إخبارهم بأوامر الحكومة المصرية، وكتاب السيّد إدريس واستمالة السيّد حسين لهم، بالاضافة إلى وعدي لهم بأجر باهظ، أُجبرتُ على دفعه نظراً لحاجتي إلى جمالهم. وانتهت تلك الأيام السعيدة التي قضيتها تحت ظلال القبّة البيضاء. وانقضت أيّام الهدوء والتفكير والتأمّل في ظلّ القبّة البيضاء، وكذلك أيّام القلق للرغبة في السفر والبحث عن ممهّداته، فيمّمت وجهي نحو الغرب متوجهاً إلى جالو في 22 فبراير بعد أن أقمتُ في جغبوب 34 يوماً كاملة.

الفصل الثامن
زوابع الرمال في طريق جالو

تركتُ جغبوب في يوم من خير الأيام التي جرت عادة البدو أن يتفاءلوا بها. كان ذلك اليوم يوماً عاصفاً. وكانت الريح تعصف بالرمال. وكان العرب يعتبرون أن القافلة التي تبدأ رحلتها في جوّ عاصف يكون نصيبها التوفيق وحظّها جيداً. وإنّي لشديد الاعتقاد أنّ العرب ابتدعوا هذه الفكرة قديماً ليتقبلوا

الحياة التي يعيشونها يومياً، ويرضخوا إلى ما تضطّرهم إليه طبيعة الصحراء، وإلاّ أصبح البدوي كالمصري أو السوداني إذا قال إنّه يحبّ السفر في يوم مشمس، أو «الإيكوسي» (السكوتلندي) إذا تمنى السفر في يوم ممطر. فزوابع الرمال في الصحراء أمر عادي قد يلقاه مجتازها في أيّ مكان وزمان، على أنها تجربة شاقّة ومحنة قاسية، يعاني الإنسان هولاً شديداً في احتمالها. يطلع

الصباح والسماء صافية والجوّ خال ممّا ينذر بعاصفة أو يشعر بالريح آتية، وتتبسم الصحراء لنا ونحن نهمّ بالرحيل، فتتحرّك القافلة فرِحةً طروباً. ولا يلبث أن يمرّ وقت قليل حتّى يهبّ نسيم عليل لا يُعرف مصدره، يمضي همساً فوق الرمال ثمّ يشتدّ من دون أن نشعر بذلك، وإلى هذا الحدّ لا ننزعج من هبوبه. ثمّ ينظر الإنسان إلى وجه الصحراء، فإذا سطح الأرض قد تغيّر تغيّراً غريباً، وإذا بذرّات الرمال ترتفع قليلاً وتدور كأنّها بخار يتصاعد من ثقوب لامتناهية في أنابيب مدّت تحت ذلك السطح. وتتأجّج ثورة الرمال شيئاً فشيئاً كلما اشتدّت الرياح، إلى حدّ يخيّل للإنسان أنّ سطح الصحراء كلّه يرتفع طاعةً لقوّة دافعة رافعة من تحته.

ويتطاير الحصى ويتناثر، فيصيب قصب الأرجل والركب والأفخاذ. وتتصاعد حبّات الرمال الراقصة على الأجسام حتّى تلطم الوجه وتدور فوق الرؤوس. ثمّ يملأ الغيم السماء

فلا يرى البصر إلا أشباح الجمال القريبة منه. وتثور الطبيعة حتى ليخيل للمرء كأنّ في الجوّ قوى خفيّة تصبّ العذاب لطماً وقذفاً ولدغاً. وخير لمن تدهمه الزوبعة أن تهبّ الريح من ورائه، لأنّ لطم الرمال لوجهه عذاب أليم، وفوق ذلك ليس بوسعه البقاء مفتوح العينين، ولا يجسر على أن يغمضهما، فلدغ حبات الرمال شرّ وبلاء، إلا أنّ فقدان الطريق شرّ أعظم وبلاء أكبر. ولحسنّ الحظّ، فإنّ الريح تهبّ في عواصف متلاحقة تراوح بين ثلاث وأربع، وتتبع كلّ عاصفة بضع ثوانٍ من السكينة المباركة. وعند هبوب العاصفة، يدير المسافر وجهه ويتّقي الرمال بطرف كوفيته، ويكاد يمسك عن التنفّس حتّى تحلّ فترة من السكون، فيكشف عن وجهه ويلقي نظرة سريعة ليرى الطريق، ويعجّل بالتأهّب للهبّة الثانية.

وكأنّ هناك شيطاناً هائلاً عاتياً ينفخ في تلك العواصف والهبات المدوية في الرمال، فيجعلها تتطاير فوق رؤوس المسافرين. ويدويّ في الفضاء صوت يصمّ الآذان، وكأنّ هذا الصوت من يد ذلك الشيطان التي تضرب بأصابع قويّة خشنة ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير. وعندما تبدأ زوبعة الرمال، لا يسع المسافر إلا أن يندفع في سيره، فالرمال إذا أصابت شيئاً ثابتاً، سواء أكان ذلك الشيء عموداً أم جملاً أم رجلاً، تتكدّس حوله حتّى تصبح ركاماً.

وبالتالي، إذا كان السير يخبّئ عذاباً وأهوالاً، فالتوقف قد يتسبّب بالموت. وقد تظلّ زوبعة الرمال على أشدّها لمدّة خمس ساعات أو ستّ، ولا يمكن للقافلة أن تتابع التقدّم عندئذٍ إلاّ مع الحرص الشديد على وضوح الطريق أمامها حتّى لا تخطئه. وإذا تمرّدت العاصفة واشتدّت، فإنّ الإبل تصبح في وضع تكاد فيه غير قادرة على التقدّم، ولكنّ غريزتها تجعلها تتوقّع الموت إذا ما توقفت عن السير. ويتجلّى ذكاؤها الغريزي عندما يبدأ هطول المطر فتستشعر عدم الخطر فتقف بغتة أو ترقد.

وتدفع العاصفة ذرّات الرمل فتخترق كلّ شيء يحمله الإنسان وتغطي ثيابه وطعامه وحوائجه وآلاته العلمية، وكأنها تبحث عن مواطن الضعف لتنفذ إليها، فيحسّ بها المسافر ويتنفّسها ويأكلها ويشربها. وقد تنفذ ذرّات الرمل الدقيقة إلى مسامّ جلده فتؤذيه أيما أذى.ويعرف البدوي خصائص هذه العواصف، فيحيط بها علماً كلّ غريب عن الصحراء. يقول البدو إنّ الريح التي تنذر بالعاصفة تهبّ خلال النهار أو تستكين مع غروب الشمس،

والعاصفة لا تهبّ في ليلة مقمرة، ولا تثور بين العصر والمساء. ولكن، في رحلتنا إلى جالو، صادفتنا استثناءات، ثارت العواصف حين كان القمر يطل بهياً خلال الليل، كما تعرضنا لزوابع بدأت قبل الفجر وأخرى ثارت بعد الغروب بزمن طويل. وقد واجهتنا عواصف بين العصر والمغرب، حتّى لم نعد نميز الفارق في ضوء النهار بين العصر والمغرب. وتنوعت العواصف الّتي تعرضنا لها، فكانت منها الضعيفة ومنها القوية، ومنها قصيرة الأمد أو طويلة الهبوب، ومنها العواصف الثائرة في النهار وأخرى القائمة في الليل.

هذه هي حال الصحراء في شدّتها وقسوتها، في غضبها وثورتها، غير أنّها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل، وتظهر لنا بصورة جديدة من صورها الساحرة. فقد يحدث في المساء أن نكون في صراع هائل مع أكوام الرمال المتطايرة، وفجأة تسكن الريح كأنّها أُمِرت فامتثلت للأمر، ثمّ تستقرّ حبات الرمل الدقيقة كأنّها ضباب يستقر، ويطلع القمر فتأخذ الصحراء شكلاً جديداً تحت ضوئه السحريّ الباهت الذي يغمر نواحيها. أكانت هناك زوبعة ثائرة منذ برهة كادت تودي بحياة القافلة؟ من يستطيع أن يتذكر ذلك؟ أيعقل أنّ هذا الفضاء الهادئ البديع كان قاسياً منذ قليل؟ من يستطيع أنّ يصدّق ذلك؟ وبالفعل لم تكن رحلتنا إلى جالو سهلة، فقد كانت زوابع الرمال تضايقنا باستمرار، وبلغت في بعض الأحيان حدّ الخطر. وكان الجزء الثاني من الطريق مليئاً بكثبان من الرمل كانت تضطرّ القافلةللسير بشكل متعرج لتجنّبها، مع ما يتطلّبه هذا التعرّج من إجهاد فكري ومشقّة كبرى لتتبّع البوصلة. وقد ازداد الأمر صعوبة جرّاء ثورة الزوابع التي ينجم عنها تطاير الرمال في عيون رجال القافلة. وعلى الرغم من ذلك، تابعنا السير مجدّين، وكانت لنا ساعات لهو وسرور أثناء هذه المرحلة، على الرغم مما عانينا من أذى الرمال. فالذاكرة لا تنسى ليالي الفرح التي كنّا نجتمع فيها حول النار، نتناول أقداح الشاي بعد العشاء. فيبدأ الحديث رفيقنا مُغَيِّب الشيخ الكبير، فيما ألسنة النار المتراقصة تنعكس على لحيته الشعثاء التي غزاها الشيب، وهو يقصّ علينا فصولاً من تاريخ قبيلة زويّ، أيّام كان جدّه يقصد واداي لمحاربة قبائل السود ويغنم الجمال والعبيد.

ويتبعه الرفيق صالح ويسلّينا بأخبار الربح الطائل الّذي جناه ابن عمّه حين قام برحلته الأخيرة إلى واداي حيث لم يحارب أحداً، بل جاء منها بالجلود وريش النعام والعاج، التي

باعها في أسواق برقة. وكنتُ أحبّ سماع أغنية من أغاني العرب. فأطلبها من عليّ، وكان شاعراً وخطيباً لأخت حسين الّذي يعكس جمال وجهه جمال أخته. وكانت تتّجه أنظار عليّ إلى عمّه مُغيِّب وكأنّه يستأذنه في تلبية طلبي، وهو منشغل عنّا بسبحته، متعمّداً عدم الالتفات إلى مجرى الأمور الجديد، لأنّ الشيخ البدويّ لا يليق بوقاره أن يستمع إلى أغاني الحبّ من صغار الشبّان. ولكنّ احترامه لي دفعه إلى الموافقة وعدم ترك المجلس، وكان يقول لعليّ بصوت خافت: «غنِّ للبيك ما دام يحبّ أغاني البدو». فيبدأ علي بالغناء بصوته الرخيم الذي تحمله أجنحة نسيم الليل العليل، بينما تتهالك حبّات سبحة الشيخ مُغيِّب بين أصابعه منتظمة متوافقة، كأنّما لا يشغله شاغل عن الانقطاع لأداء فروض تعبّده.

ويغنّي عليّ فيقول[1]:

مَضيت أغنّي وكلُّ الرجال التفتوا ليستمعوا إليّ

إنّها خَضرة التي تبعث الأغنية في روحي

وجنتاها حمراوان كالدمّ السائل، نحيلة ومستديرة كالقصب

ليست شابّة كثيراً وليست عجوزاً كثيراً

إذا التقيتها في الطريق، سوف أتمايل لها، كعلم بلادي المرفرف

ويسكت علي لبرهة، فلا أدري أيّ الشيئين أسرع انحداراً، أخيالي في طريقه البعيدة أم حبّات سبحة مُغيّب بين أصابعه؟ ثمّ يغنّي علي:

يا نرجس البستان، ريقٌ عسل فوق أسنان من العاج،

كاللبوة التي تركض خلف طريدتها

هل تقبلينني أو أنّك تحبّين غيري

بطنك كالسوط الرقيق ومرقد صدرك كالجنّة

الحبّ لا يُخفى، والقدر بيد الله

---

(1) حواشي هذه الأغنية تركتها كما وضعها المؤلّف. (المترجم)

وعندما ينتهي عليّ من الغناء، تسود السكينة القافلة بالكامل، ولا يخترق هذا الهدوء سوى أزيز النار الخامدة والصوت المتناسق المنبعث من حبّات السبحة التي تغيّر إيقاعها بصورة واضحة لأنّ أصابع الشيخ مُغيِّب توقفّت بغتة ومن ثمّ أسرعت في إطلاق الحبّات. وكأنّ هذا الشيخ أراد ألا يشعرنا بتوقفّه عن التسبيح، غير أنّ الذي شغله عن التسبيح تحليق خياله في سماء الماضي الذي كان فيه شابّاً مغرماً. ومن يدري ما إذا كان كلّ جالس بيننا عاشقاً، ومن حسن حظّه أنّه لم يكن يحمل سبحة تفضح سرّه.

واجتزنا بئر أبي سلامة، وهي تبعد عن جغبوب سفر يوم، فاخترقنا ناحية يوجد فيها بقايا غابة متحجّرة، وكنا نصادف خلال سيرنا قطعاً كبيرة من الأحجار قائمة كأنّها أعلام في الطريق. وكانت هذه الصخور، منذ أجيال بعيدة، أشجاراً نامية. إلا أن عوامل الطبيعة نقلتها من مملكة

النبات إلى مملكة الجماد. وكانت هناك قطع قليلة متناثرة من الأخشاب المتحجّرة. غير أن معظمها كان مدفوناً تحت الرمال، بينما بقِيت القطع الكبيرة منها ظاهرة، لأن من عادات الصحراء أنّ كلّ من يمرّ ويجد علماً ساقطاً من هذه الأعلام عليه أن يرفعه. ومن العادات أيضاً أن توضع أكوام من الصخور في الدروب الجديدة لتدلّ القوافل على تلك الدروب.

وقد يحدث أن يمرّ إنسان بشجرة أو شجيرة، علّقت عليها خرق من ثياب، فلا بدّ من أن يضيف اليها شيئاً من حوائجه، فيكون تكدّس هذه الأشياء دليلاً على وجود أشجار في هذه الدرب، ما يشجّع المسافرين على مواصلة السير. فالشعور بمرور زميل سابق أمر ينعش قاطع الصحراء في ظلّ ذلك السكون الشامل والفضاء الممل بتشابه مناظره. أضف إلى أنّ رؤية روث الجمال وعظامها المبيضّة، بل العثور على هيكل عظمي لمسافر قضى في الطريق، يسرّ عين المارّ بها لكونها تؤكّد له مرور قافلة على تلك الطريق من قبل.

وبعد مغادرتنا جغبوب بوقت قليل، عثرنا على علم مغاير لأعلام الطريق المألوفة. وكان ذلك عبارة عن أكوام صغيرة من الرمل كأنّها بيوت النمل ممتدّة تعترض السبيل، ويسمّى هذا العَلَم عَلَم «بو الظفر»، وهو في الواقع رمز لعادة بدويّة طريفة. فالمتعارف عليه أنّه إذا مرّت قافلة بهذا العلم، وكان فيها من مرّ به من قبل، فعلى المسافرين الجدد أن ينحروا شاة

للمسافر الذي مرّ به من قبل. واشتُهرت هذه العادة بعادة «بو الظفر». وفي حال لم ينتبه سالكو هذه الطريق للمرة الأولى إلى أداء هذا الواجب، نبّههم إليه من سبقهم بأن يتقدّموا بالقافلة وينشروا أكوام الرمل في طريقها، حتّى إذا أوشكت القافلة أن تجتازها صرخوا قائلين «بو الظفر»، «بو الظفر» فينتبه رفقاؤهم، وينحرون الشاة وتقام المأدبة المألوفة. وكان في قافلتنا كثيرون لم يعبروا تلك الطريق من قبل وكنت من بين هؤلاء. وحضّرت العدّة قبل رحيلي من جغبوب:

فاشتريت شاة كي أنحرها لمن تقدّمني في اجتياز تلك الطريق من أفراد القافلة. وبالتالي لم يكن رفاقي بحاجة إلى تكديس أكوام الرمل في طريقي وتنبيهي إلى هذه العادة الطريفة. وقد حالفنا الحظّ في هذه الرحلة، فوجدنا مراعي لجمالنا على طول الطريق حتّى وصلنا إلى جالو. وقد وقع لنا أحياناً أننا حدنا عن الطريق المستقيم للوصول إلى البقاع المعشبة، ولكنّنا كنّا نوفق دائماً في إيجاد ما ترعاه إبلنا. والجدير بالذكر أن ثلاثة أنواع من الأعشاب تنمو في هذه النواحي. فالبلبال عبارة عن عوسجة ذات أوراق لا تصلح طعاماً للجمال، وهي لا تنمو إلا على مقربة من الآبار ولا تمسّها الإبل عادة إلا إذا أحسّت بجوع شديد. وفي هذه الحال، يُخشى عليها من المرض إذا لم يراقبها أصحابها مراقبة دقيقة. والضمران عبارة عن عوسجة أخرى تشبه البلبال، ولكن أوراقها أشدّ سواداً وضلوعها سمراء تصلح وقوداً وهي جافّة. وتعتبر هذه الشجيرة طعاماً جيداً للجمال التي تُقبل عليها بشهيّة. أمّا النوع الثالث من هذه الشجيرات فيسمى النشا، وهي شجيرة ذات أوراق رقيقة يصل ارتفاعها إلى علوّ قدم، وهي صالحة لأكل الجمال. وفي فصل الشتاء، تنمو هذه الشجيرات حيث يهطل القليل من المطر. ولذلك لا يقوى البدويّ على قطع المسافة بين جغبوب وجالو في فصل الصيف، ما لم يكن قد حمل معه علفاً لإبله.

ووصلنا إلى بئر «عزيلة»، وهي أوّل بئر بعد بئر أبي سلامة، في اليوم العاشر من رحيلنا عن جغبوب. وعَلم هذه البئر عبارة عن أشجار قليلة وأدغال صغيرة مخضرّة. وقد أمكننا أن نصل إلى الماء العذب بعد أن أزلنا الرمال عن جوانب البئر، ولكنّنا لم نشرب منها كثيراً حيث إنّ مذاقها لم يكن في عذوبة ما شربناه في البداية. وبعد ذلك بيومين، شارفنا على الوصول إلى واحة جالو، ولم نكد نقترب من الواحة حتّى اندفع إلينا رسول جاء لمقابلتنا

حاملاً خطاباً من سيدي محمّد الزروالي، وهو من الإخوان السنوسيّين، الذي أمره السيّد إدريس أن يرافقنا إلى الكُفرة. وطلب منّي الرسول أن أحطّ رحالي حتّى يتهيّأ القوم لمقابلتنا بما يليق من الحفاوة والإكرام. وكان السيّد إدريس قد أخبر رجال جالو عند مغادرتها قبل ذلك بشهرين أنّني قادم إليهم، وأمرهم أن يحسنوا وفادتنا. وقد انتظر أهل المدينة وصولنا فترة طويلة، وإذ تأخرنا عليهم ظنّوا أننا غيّرنا الطريق إلى الكُفرة. ونصبنا الخيام على مقربة من المدينة. وبعد ذلك بساعات قليلة جاءنا جمع من البدو ووقفوا صفّاً طويلاً مهيب الهيئة على طول طريق قرية اللبّة، وهي إحدى القريتين اللّتين تكوّنان جالو. وتقدّمنا نحو القوم، ونحن في اللباس الأجمل والذي يليق بهذا اللقاء الرسميّ، وكان مع رجالي من الذخيرة ما يكفيهم لطلقات الترحيب.واقتربت من القوم وصافحتُ سيدي السنوسي قدربوه، وهو قائمقام تلك المنطقة. كما صافحتُ أعضاء مجلس جالو وأشرافها. رحّب بنا القائمقام فرددتُ عليه وأطلق رجالي النار مرحّبين. ثمّ دخلنا المدينة فقصدتُ الدار التي وضعت بتصرّفي، واستقبلتُ أعضاء مجلس جالو وسيدي الفضيل السيّد إدريس وتناولت العشاء مع سيّدي قدربوه السنوسي، كما قضيتُ المساء أناقش سيّدي الزروالي في وضع الخطط لرحلتنا إلى الكُفرة.

الفصل التاسع
في واحة جالو

تُعدّ جالو واحة من أهمّ واحات برقة، وهي تقع على مسافة 240 كيلومتراً من أقرب نقطة من شاطئ البحر الأبيض المتوسط وراء جدابيا، وعلى مسافة 600 كيلومتر من الكُفرة الواقعة في الجنوب مباشرةً، وهي الواحة التي تنتج أكبر كميّة من البلح في جميع تلك الجهات. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ جالو هي المنفذ الذي تُصدّر عن طريقه محاصيل واداي ودارفور بعد مرورها بالكُفرة.

هذا ويمرّ بجالو كلّ ما يتمّ إرساله من الجهات الأخرى إلى الكُفرة، ولقد وصفها السيّد البشاري، وهو من كبار شيوخ قبيلة المجابرة، فقال: «إنّ الصحراء بحر وجالو ثغر ذلك البحر. وقد كانت هذه المدينة في أوجّها منذ نحو ثلاثين عاماً، أيّام كان المهدي يتخذ الكُفرة مركزاً للطائفة السنوسيّة، فكانت ترتادها أسبوعياً قوافل مؤلّفة من مائتين إلى ثلاثمائة جمل تتنقّل بين جالو وجهات الجنوب. ولكن هذه الحركة تراجعت في خلال الأيام التي زرتها. بيد أنّها تعود إلى الازدهار ثانية في الصيف أيّام موسم البلح. وتتألّف جالو من قريتين تفصلهما مسافة ميل، وهما العرق واللبّة وتتناثر أشجار النخيل بين هاتين القريتين وحولهما، ولا يقل عدد نخيل هذه الناحية عن مئة ألف نخلة.وتقع أوجلة على مسافة اثني عشر ميلاً من غرب جالو، وهي الواحة القديمة التي قال عنها هيرودوت إنّها شهيرة ببلحها. وفي أوجلة، يوجد قبر عبد الله الصحابي الذي عُرف بأنّه كان كاتب النبي محمد عليه السلام. وهذه الواقعة مشكوك في صحّتها، وصحة أنّ النبي ﷺ قد اتّخذ كاتباً اسمه عبد الله الصحابي، وأنّ هذا الصحابي هبط شمال أفريقيا، وأن هنالك قبراً لرجل بهذا الاسم في أوجلة. ويروون أنّ السنوسي الكبير وجد جثّة سيدي عبد الله الصحابي مدفونة في ناحية بعيدة، ورأى في بعض أحلامه روح ذلك الجسد النائي تقول له: «أخرج جسدي من مقرّه وضعه على جمل، وحيثما يقف بي الجمل ابنِ لي ضريحاً». وأطاع السنوسي الكبير الأمر

وسافر بالجثّة حتّى وصل أوجلة، وعندها وقف الجمل بغتة وأبى أن يتقدّم في سيره، فأقيم ضريح في مكان وقوف الجمل.

ويعتقد الناس أن مؤسّس الطائفة السنوسيّة وأعضاء الأسرة السنوسيّة وكبار الإخوان يملكون قوّة خفيّة ومعرفة بالغيب. وكان للسيّد المهدي قوى خفيّة غريبة، يسمّيها البدو «كرامات»، وقد أخبرني أحد الإخوان في جغبوب بقصّة عنه قائلاً:

جاء المهدي أعرابيٌّ جاهلٌ يطلب العلم في جغبوب، ولم يكد يفاتح المهدي بهذه المسألة حتّى تذكّر أن موسم الزرع قد حلّ وأن ليس له من يتعهّد أرضه في غيابه، فرأى من المناسب أن يسافر إلى بلده وعندما ينتهي موسم الحصاد، يعود لطلب العلم. وقصد السيّد المهدي ليودّعه قبل سفره. فدخل غرفته وجلس منتظراً حتّى يبدأ المهدي الحديث كما جرت العادة. وتغافل المهدي عنه للحظات، فغلب على البدويّ النعاس وغفا قليلاً، ثمّ استيقظ على صوت المهدي الخافت يقول له: «الآن هدأ بالك وارتاحت نفسك لأنّك تعلم أنّ الأمور هيّئت لك على ما يرضيك».وبالفعل، هدأ بال البدويّ لأنّه رأى في تلك الإغفاءة القصيرة حلماً، تمثّل له فيه أخوه يحرث الأرض ويبذر الشعير. واستطرد المهدي في حديثه فقال: «ستكون ضيفنا وستتلقّى العلم عندنا، وأسأل الله أن يهديكَ سواء السبيل ولا تخف شيئاً، فقد رأيت كيف سارت أمورك كما شئت، وأنّ الله رحيم يرعانا جميعاً بعين عنايته».

وهكذا أقام الرجل في جغبوب ولم يعد إلى بلده إلاّ أيّام الحصاد، وعاد بعد ذلك إلى جغبوب، فأخبر أحد الإخوان أن رؤياه قد تحقّقت في دار المهدي حين رأى أخاه يبذر الحبوب في أرضه، اضافة إلى أنّ قطعة الأرض التي رآها تزرع في منامه، كان يجري فيها العمل في الوقت نفسه الذي شاهد فيه الرؤيا. وأخبرني حاكم جالو بقصّة أخرى، قال فيها: «كنت مسافراً مع جماعة من الرفقاء من بنغازي إلى جغبوب لزيارة السيّد المهدي، فأسأنا تقدير موقع بئر على الطريق وشعرنا بضيق شديد لقلّة الماء. وحلّ المساء فالتفت إليّ أقلّ رجال القافلة رغبةً في زيارة المهدي، وقال: «أما وقد أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل، التقي ذي الكرامات، هلا سألته أن يرسل إلينا ما يبلّ ريقنا، إن كان فيه من التقوى والصلاح كما تقول».

وفي تلك الليلة، حدث في جغبوب أنّ السيّد المهدي استيقظ من نومه ونادى عبدين من عبيده وأمرهما أن يقوما في الحال ويحملا الزاد والماء على خمسة جمال وأن ينطلقا إلى الصحراء ويسلكان الطريق التي أشار إليها، فلا يقفان حتّى يلتقيا بقافلة في الطريق. وبالفعل، مضى العبدين في طريقهما والتقيا بقافلتنا وقد أشرف رجالها على الهلاك». ولا يزال بين رجال الطائفة إخوان قدماء يخشاهم أعضاء الأسرة السنوسية أنفسهم، خوفاً من تأثير قواهم الخفيّة. ومن بين هؤلاء الرجال، أذكر رجلاً يعيش في الكُفرة، وكان سابقاً من بينالإخوان في زاوية ببرقة. فأحضر أحد البدو غنمه لتشرب من البئر القريبة في الزاوية، فشرد بعضها وأكل الشعير في قطعة الأرض المجاورة للزاوية. وأنذر الإخواني ذلك البدويّ أن يوقف غنمه عن إتلاف الزرع، فأظهر البدويّ أنه سيمتثل لأوامر الإخواني. ولكنّه كان ينوي فيقرارة نفسه أن يطلق غنمه في الزرع، وأطلقها في غفلة من الإخواني. وخرج هذا الأخير من الزاوية ورأى الغنم تفتّك بالشعير، فصبّ عليها اللعنة قائلاً: «أهلك الله الغنم التي تأكل زرع الزاوية». ويقول رواة هذه القصة إنّه لم تخرج نعجة حيّة من مزرعة الزاوية.

ولا يزال البدو إلى هذه الأيّام يخشون أسرة السنوسيّين، ليس لسلطتهم الزمنيّة وإنّما للقوّة الروحيّة التي يعتقدون أنها موجودة فيهم. فإنّ السنوسيّ إذا صبّ لعنته على أحد ظلّ طول عمره خائفاً متوقّعاً أن يصيبه مكروه، وقد يتحاشاه إخوانه وأهله حتّى لا ينالهم أذى مما يصيبه. ومن المواضيع المعروفة في هذا المجال موضوع رئيس كتبة السيّد المهدي الذي يعيش الآن في الكُفرة نصف مشلول، وقد زرته فرأيته سعيداً راضياً رغم عجزه عن تحريك جسمه. ثمّ رأيته مرّة أخرى، فسألني، وهو يتردّد بين الاعتقاد والشكّ، إن كان بين أدويتي شيء يشفيه من مرضه. وتردّدت في الإجابة لأنّي لم أرد أن أفقده الأمل. أما هو فقد رأى ذلك في عيني، فلم يترك لي الوقت الكافي للردّ عليه، وقال: «لقد كتب الله عليّ ما أنا فيه وكان الذنب ذنبي. ففي الواقع، أمرني السيّد المهدي أن أسافر شمالاً فلم أقوَ على عصيان أمره، ولكنّي أردتُ أن أتخلّص من تلك الرحلة بعد أن وصلتُ إلى سيدي الهوّاري[1]، فكتبتُ إليه مدّعياً المرض. وجاء ردّه بإعفائي من متابعة الرحلة، إن كنتُ صادقاً فيما ادّعيت. وفي اليوم التالي أصابني الشلل وحملت إلى الكُفرة، ولا أزال فيها

(1) سيدي الهواري هي إحدى ضواحي مدينة وهران في الجزائر.

حتّى الآن، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة». وقد أخبرني حاكم جالو بقصّة أخرى حين كنّا نتناقش في الكرامات، فروى قائلاً: «قامت عاصفة شديدة في أوجلة وعصفت الرمال حتّى غطّت قبر السيّد عبد الله الصحابي، فأحضر العبيد لرفع الرمال المتراكمة على القبر. وبينما كان هؤلاء دائبين في مهمّتهم، دخل الحاكم الغرفة التي بها المقام فشمّ رائحة بخور قويّة. ونادى أحد العبيد فسأله ما اذا كان أحد أشعل بخوراً، فأنكر الرجل. ولا يزال زائر هذه الغرفة إلى يومنا هذا يشمّ تلك الرائحة الزكيّة، حتى لو لم يكن هناك أي بخور في نواحيها».

وتُعدّ جالو مركز القبيلة البدويّة «المجابرة» التي تعتبر رائدة في التجارة في الصحراء الليبية، كما تجد في جالو بعض رجال قبيلة زويّ. ولكن أكثرية الألفي شخص الذين يقيمون فيها هم من «المجابرة». ولهؤلاء ميل غريب للتجارة، فإنّ الرجل منهم يفخر بأنّ أباه مات فوق سرج جمله كما يفخر ابن الجندي بأنّ أباه مات في ميدان القتال. وكانت العلاقات متوتّرة أيام إقامتي بجالو بين السلطات الايطالية وبين السيّد إدريس السنوسي، فمنعوا إرسال البضائع من بنغازي وغيرها من ثغور برقة إلى البلاد الداخلية، ولذلك ارتفعت أثمان البضائع ارتفاعاً سريعاً في مدن الصحراء كجدابيا وغيرها. وسمع تجّار المجابرة من أهل جالو بحالة التجارة في مناطق الشمال، وكان معهم بضائع كثيرة من مصر فلم يتردّدوا في الاستفادة من هذه الفرصة، وغيّروا وجهتهم وساروا شمالاً بدلاً من أن ينحدروا جنوباً، وباعوا بضائعهم في جدابيا، ما سمح لهم بجني أرباح وفيرة. ثمّ عادوا بسرعة إلى مصر والجنوب يطلبون بضائع أخرى وعادوا بها إلى جالو، فقارنوا بين ارتفاع الأثمان في جدابيا والكُفرة، ثمّ اختاروا منهما السوق حيث تزدهر تجارتهم بشكل أوسع.

وأعجب ما في الصحراء سرعة انتقال الأخبار، على الرغم من طول المسافة التي تفصل بين بلد وآخر. فإنّ المسافة بين جالو وجدابيا مسير خمسة أيّام، وبين جالو والكُفرة مسير نحو خمسة عشر يوماً، مع أنّ القوافل لا تسير بسرعة كبيرة. وأعتقد أن التحليل الصحيح لهذا الأمر هو أنّ كلّ شيء في الصحراء نسبي، فالأخبار تسير مع خطوات الجمال، وكذلك كلّ ما عداها. وإن اشتهر تجار المجابرة بالتفوّق على غيرهم في مجال التجارة، فإن لقبيلة «زويّ» ما يدعو إلى الفخر. والمنافسة بين هاتين القبيلتين تحتدم من وقت لآخر

وفقاً للظروف. وأفراد قبيلة «الزويّ» محسودون من جميع قبائل برقة لأنّ منهم علي باشا العابدية، وهو الذي يلي السيّد إدريس في المرتبة بين السنوسيّين. وعلي باشا جندي ماهر، وكان سنداً قويّاً للسيّد إدريس وموضع ثقة عنده. وقد تحدثنا في جالو، ذات ليلة بعد تناول العشاء، عن المنافسة بين «زويّ» وباقي القبائل. فناقش سيدي صالح، وهو من سلالة النبي ﷺ ولا ينتسب لأيّ قبيلة في برقة، مع رجلي مُغيّب الزروالي، وهما من قبيلة «زويَ»، في شأن تلك المنافسة. وبعد أن سمع منهما المدح المفرط لقبيلتهما، هزّ رأسه وقال: «قد يكون تاريخ «الزويّ» مجيداً كما يقول سيدي مُغيّب، ولكنّهم لا يخافون الإنسان، والويل لمن يتعرّض لقافلتهم أو يسطو على خيامهم».

ثمّ التفت إليّ وقال: لقد باركنا السيّد المهدي إذ أتى إلى مركزنا في الكُفرة ومن ثمّ اختفى منها». واللافت أنّه لم يقل كلمة «مات» لأنّ السنوسيين لا يتفوّهون بكلمة موت، وإنّما يستخدمون كلمة «اختفى» وما يشبهها من عبارات، حيث إنّ الشائع بينهم أنّ المهدي لم يمت وأنّه يهيم في نواحي الأرض حتّى يعود إلى رجاله أهل الصحراء. وأحبّ شيوخ السنوسيين إلى الزويّ السيّد المهدي لأنّه نقل مركز حركة الطائفة إلى الكُفرة، وبنى فيها قبّة المسجد التي هي أجمل مظاهر تلك المدينة ومحطّ فخرها.

وفي سياق آخر، أدركتُ بعد تجارب عدّة أنّ أفراد قبيلة «زويّ» يضمرون العداء للأجانب. فقد لاحظتُ، وأنا المسلم ابن ذلك الرجل التقيّ العالم في الأزهر الشريف وموضع ثقة عند السيّد إدريس، أنهم غير راضين عن إقامتي في الكُفرة. وبان لي ذلك جليّاً حين سمعتُ أنّ أحدهم تمنّى لو أنّني أغادر الكُفرة إلى الأبد وألا أعود إليها. ولكن، وعلى الرغم من معرفتي بهذا النفور، لا أظنّ أنّ في استطاعتي أن أجد رجالاً أكثر قدرة على قطع الصحراء، وأكثر معرفةً بطرق السير فيها، من أفراد هذه القبيلة الذين كوّنوا جزءاً من قافلتي. فقد كان الزروالي، وهو مثال الزويّ الصحيح، أمتع رفيق لي في السفر، وأحقّ أفراد القافلة باعتمادي عليه وثقتي به. ويجري في عروق البدوي في برقة دمّ العرب الذين اجتازوا شمال أفريقيا متّجهين نحو الأندلس، وعلى الرغم من اختلاطه برجال القبائل الأخرى، يحافظ على الكثير من تقاليده العربية القديمة. فجريمة القتل عند السنوسيّين تفصل فيها قوانين البدو الخاصّة. والعادة أن يتداخل الإخواني في الخصومات ويصلح المتخاصمين في ما

بينهم. فيأخذ القاتل وشيخاً من شيوخ قبيلته ويقصد خيام المقتول فينصب خيامه على مقربة منها، ثمّ يتقدّم مع القاتل إلى أفراد أسرة القتيل قائلاً: «ها هو قاتل رجلكم». ثمّ يأخذ بيده ويضيف: «هذا قاتل ولدكم، أسلّمكم إيّاه فافعلوا به ما تشاؤون». فيكون الجواب عادةً: «سامحه الله وأنزل عليه عدله ورحمته». ثمّ يأخذ الإخواني بعد ذلك في تسوية مقدار الدِيَة، وهي في غالب الأحيان تكون ثلاثة آلاف ريال وعبد يكون معروف الثمن في سوق الرقيق. ويعود لأقارب القتيل حقّ الاختيار بين قبض المال أو أخذ قيمته جمالاً وغنماً وما إليها من حوائج البدو. فإن اختاروا المال، يُدفع على أقساط تجري من سنة إلى ثلاث سنين، ويتمّ الاتفاق على ذلك وينتهي الأمر. وقد يحدث في أحوال نادرة، وإذا كان طلب الثأر مستحكماً بين رجال القبيلتين، أن يرفض قبول الدية. ويعني ذلك أنّ في نيّة قبيلة القتيل أن تقتل قاتله أو أحد أقاربه أو رأساً من رؤوس قبيلته.

أمّا شبّان البدو وخطيباتهم العذارى فلهم الحريّة في الاختلاط ببعضهم البعض، ولا تحجب المرأة إلا في الأسر الكبيرة. ويختار الشاب الفتاة التي يريد أن يتزوّجها، فيقصد خيامها ويغنّي لها من شعره، فإن مالت نفسها إليه، خرجت وراحت تغني له أيضاً. وبعد ذلك، يقصد الشاب اهلها ويدفع المهر إن تمّ الاتفاق، ثمّ يعود إليها مع مجموعة من أصحابه ويأخذها إلى داره تحيط بهما الفرسان المتبخترة، وتدوي فوق رؤوسهم طلقات البنادق.وقد يخطف الحبيب حبيبته فينتهي الأمر بين قبيلتيهما بسفك الدماء، لأنّ البدو يعتبرون من يخطفحبيبته سارقاً. ويجري الإخواني عقود الزواج، ويتمّ العقد وفقاً للشرع الإسلامي الشريف. ويعتمد الزواج عند العرب في سنّ مبكرة على نمو الفتاة، وفي غالب الأحيان تتزوّج الفتاة في سنّ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ويتزوّج الشاب في سن السابعة عشرة حتى العشرين. ومن هو قادر من البدو يستطيع الزواج من اثنتين أو أكثر، ولكن الزوجة الأولى في هذه الحال تبقى سيّدة الدار وبيدها أمر تدبيرها، وتُفضّل على ضرّاتها بمن فيهن أقربهنّ إلى زوجها في كلّ ما يتعلّق بالشؤون المنزليّة. وقد سمعت بشبّان كثيرين قد أغرموا إلى حدّ الوله بفتيات، غير أنّ حبهم ظلّ حبّاً مستحيلاً، ورأيت بعيني ضحيّة من ضحايا الحبّ. جاءني شاب بدوي يسألني دواءً وكان نحيلاً، طويل القامة ومتناسق الأعضاء، فتقدّم إليّ وقال: «أريد دواء يعيد إلي الصحّة».فسألته مم يشكو، فهزّ برأسه قائلاً: «الله أعلم». وكان في هيئته غرابة حيّرتني، بيد أنّني أعطيته بعض أقراص مركّزة من اللّبن،

وأمرته أن يتناول منها ثلاثاً كلّ يوم.وما كاد الشاب يمضي حتّى دخل رجل مسنّ وجلس القرفصاء، ثمّ قال: «وهبك الله الصحّة وجعل الشفاء على يديك، لقد قصدك ابني مُستشفياً وأعطيته الدواء، فهل تدري ما علّته؟ لقد جئتُ كي أخبرك عن بعض ما يشعر. إنّه يشكو ضعفاً وصداعاً قاسياً، وإذا جنّ اللّيل هجر الناس والتجأ إلى الوحدة، وقد يقضي طوال اللّيل منفرداً مع الصحراء».فقلتُ للشيخ: «لقد أعطيتُ ابنك ما آمل أن يخفّف عنه بعض آلامه». فأجاب، وفي صوته رنّة حزن: «الشفاء من عند الله، غير أنّني أعلم الطريق إلى شفائه، ولكنّ الأقدار كتبت عليه ألا يشفي الوقت داءه، فهو يحبّ غادة رفض أبواها أن يزوّجاها له». فقلتُ له: «ولم لا تسعى في سبيل التوفيق بينهما، وقد عرفت ما هو سبب داء ابنك؟»

فأجابني الشيخ: «لقد فات الآوان، فإنّ الفتاة تزوّجت. ويعلم الله انها تشكو داء ابني، نظراً لبعد المسافات».

ثمّ قام وترك خيمتي والحزن يملأ عينيه ويظهر الاستسلام في مشيته.

ولقد روى لي أحد الإخوان أنّه جاءه فتى وذكر له أنّه مولع بحبّ غانية، وهي مولعة كذلك بحبّه، ولكنّ أبويها رفضاه. وذكر أنّه سيعمد وإيّاها إلى الهرب، وهذا يفتح باب الثأر بين أسرتيهما. فاقترح الإخوان عليه بأن يوعز لحبيبته بالتظاهر بالصرع كلّ مساء عند غروب الشمس، وكان ما أشاروا به. وكان هذا الأخ مشهوراً بين القوم بقدرته على مداواة العلل والأمراض. فجاء أهل الفتاة إليه يطلبون عونه وطبّه. فراح يصف لها الوصفات المختلفة من دون أن تشفى من الصرع بطبيعة الحال، حتّى عيل صبر الأهل. فقال لهم الأخ: «لم تنفع حيل الطبّ مع الفتاة، ولم يبقَ إلا أن أستمدّ من حول الله وقوّته ما يكون فيه الشفاء، فاعطوني بعض ملابسها أقرأ عليها آيات وأدعية ثمّ أضعها على وسادتي أثناء نومي الليلة، وفي الصباح أخبركم بما توصي به الرؤيا. وفي اليوم التالي، قال لهم: «لقد رأيت حلماً والله أعلم بما فيه الخير. لقد أوصتني الرؤيا أن أطلب منكم أن تعقدوا عقدها على (فلان)، وفي اليوم نفسه سأكتب حجاباً، أُلهمت إليّ صيغته، فإذا انقضى أسبوع من دون أن يصيبها الصرع، زوّجوها منه وإلا أجبروه على طلاقها أضاف: «هذا سبيل شفائها الوحيد، وإلا بقيت طول حياتها مصابةً بالصرع».فأطاع أهلها ما أمرهم به الأخ وتزوّجا.

ولم أستطع في جالو، كما كانت الحال من قبل في جغبوب، أن أجد جمالاً في انتظاري. ولكنّ السبب في الحالتين لم يكن واحداً. ولم تضايقني حيرتي هذه المرّة كما حصل في المرّة السابقة، فقد كنتُ اتّفقت على أجر الجمال، وكان صاحبها عمر أبو حليقة على أتمّ الاستعداد للانطلاق عند عودة إبله من مراعيها. فإنّ البدويّ العاقل لا يدع جماله تقطع مرحلة بعيدة من غير أن يشبعها علفاً نضراً قبل رحيلها. والمرحلة إلى الكُفرة طويلة وخالية من كلّ مرعى، وتضطر الجمال في قطعها إلى الاكتفاء بالبلح الجاف. ويدرك صاحب الجمال أنّ البلح الجاف مؤذ لكبد جماله، وبالتالي يدعها تأخذ كفايتها من الأعشاب قبل السير. وكان أبو حليقة قد أرسل إبله إلى مرعى قريب وأمر رعاتها أن يحضروها في اليوم المحدّد. ولكن الإبل لم تظهر في الموعد المتّفق عليه. وعجبت لذلك في اليوم الأوّل، ثمّ انشغل بالي في اليوم الثاني، وتملّكتني الحيرة في اليوم الثالث، خشيةً أن تكون الجمال قد أفلتت من رعاتها. ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل، فقد ظهرت في اليوم الرابع متأهبّةً تماماً للسير. ولقد حظي ابو حليقة بخمسة وثلاثين جملاً مقابل أجر باهظ، مع أنّه كان باستطاعتي أن أشتري الجمل منها بثمن يتراوح بين اثني عشر جنيهاً وثمانية عشر، بينما طالب أبو حليقة في الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيهاً ونصف جنيه أجراً للشهرين أوالثلاثة أشهر التي يستغرقها السفر إلى بشة في واداي. وكان استئجار الجمال أنسب لي لأنّ امتلاكي الإبل يحمّلني مسؤولية سلامتها طوال الطريق، ويضطّر رجالي إلى الانقطاع للاهتمام بها نظراً لأمانتهم ورغبتهم في نجاح الرحلة. ولكنّ مرافقة أبي حليقة ورجاله لجماله مهّدت سبيل العناية بها والسهر عليها طوال الطريق. فإنّ أبا حليقة لم يغفل لحظة عن الاهتمام بجماله، فكان يخفّف أحمال الضعيف منها أو المريض. وظلّ مشغولاً بها حتّى نهاية الرحلة، فلم آبه كثيراً بما بذلت من مال في سبيل تحقيق أهدافي. وفي ظلّ هذه الأجواء، كنتُ بحاجة كذلك لوجود أولئك الأربعة الذين انصرفوا لخدمتي ورافقوني من القاهرة والسلّوم وسيوة، وهم عبد الله وأحمد وحمد وإسماعيل بالاضافة إلى خمسة آخرين، وهم الدليل السنوسي أبو حسن وسعد الأوجلي وحمد وفرج العبد والسيّد محمّد الزروالي الذي تفضّل السيّد إدريس وأمره بمرافقتي إلى الكُفرة. وكان مع أبي حليقة ولده وجمّالان وخمسة من قبيلة التبو، وهم من العبيد الرحّالة في تيبستي الواقعة في الشمال الغربي من واداي. وكان عبد الله والسيّد الزروالي رئيسي القافلة، وكان الأوّل

مكلفاًبحراسة الحوائج والمؤن والثاني تعهّد الاهتمام بالرجال والجمال. والحقّ أقول إنّ هذين الرجلين كانا أصلح رفيقين يصحبهما الإنسان في رحلة صحراويّة.وكنّا في حاجة إلى ملابس، وبعض أنواع من الأطعمة، وفي عوز شديد إلى الأحذية، فإنّ الحذاء البدوي الخالي من الكعب، وهو أفضل الأحذية للسير على الرمال، هو كلّ ما تصل إليه يد السائح في الصحراء. ولكنّه يتلف بسرعة ويضطّر صاحبه إلى رتقه في الطريق، فكان على كلّ منّا أنّ يجهّز الجلود اللازمة لرتق حذائه حتّى يصل إلى الكُفرة. ووجدتُ في جالو صانع أحذية معروفاً، وهو حميدة الذي لقيته منذ سنتين في الكُفرة، فاستدعيته وأعطيته الأحذية الّتي صنعها ذلك الوقت، وكان لا بدّ من ترقيعها. ففرح كثيراً عندما طلبت منه إصلاحها. وكان حميدة رجلاً مهيب الطلعة، يظنّ من يراه أنه قاض أو عضو مجلس على الأقلّ. وقد اتى إلى داري ليعمل في رتق أحذيتي الخمسة، وصنع أحذية أخرى لرجالي، وإصلاح سروجنا وغيرها من الحوائج الجلدية. وكان يسرّه كثيراً أن أدعوه للغداء ثمّ أقدّم له كوباً من الشاي. وذات يوم، عند تقديم الشاي له، راح يسعل بقوّة ومن دون تقطّع، فأشفقت عليه جرّاء دائه. فنظر إليّ من وراء كوب الشاي وقال بصوته الخافت: «إنّ الشاي الذي تقدّمه لي يشفيني من السعال يا سيّدي البيك، ولا أجد الشفاء في غيره». ولم تخفَ عنّي هذه الإشارة اللطيفة، فمنحته القليل من الشاي قبل مغادرتي جالو.واشتريتُ ملابس لرجالي، وسمناً وزيتاً وشعيراً ووقوداً وثماني حاويات ماء. وأخبرني علي كاجا، وهو عبد السيّد إدريس الصفيّ ووكيله الأمين في جالو، أنّ سيّده أمر بوضع مخازنه تحت تصرّفي، فشكرته جزيل الشكر، غير أنّني لم أستهلك أيّ شيء منها. فقد تركت مصر مزوّداً بكلّ ما أحتاج إليه، وأنا أعرف أنّ ما لديهم يحتاجون إليه أشدّ احتياج لتعذّر الحصول عليه في الصحراء. وقضيت في جالو عشرة أيّام في تحضير العدّة لرحيلي، وفي قبول دعوات مشايخ العرب وردّ هذه الدعوات والانقطاع إلى أعمالي العلمية. وكانت المآدب التي أقيمت لي غايةً في إظهار كرم البدو، فتناولت العشاء في اليوم الأول في دار السنوسي قدربوه، حاكم جالو. وفي اليوم التالي، تناولت الغداء عند البشاري، وهو أكبر تجّار المجابرة وأشهرهم، ووقف في خدمتنا مع أبنائه أثناء تناول الطعام كما تقتضي عادة البدو. وفي اليوم الثالث، لبيّت دعوة إلى الغداء من أعضاء المجلس، وشاركني فيه الزروالي وعلي كاجا ومُغيّب. وبعد الغداء، أجريت حديثاً مع القاضي حول تاريخ السنوسيين، فأطلعني على خطابات من السنوسي

الكبير وابنه المهدي. وجاء العشاء في هذا اليوم عند الحاج فرحات، وهو من كبار تجّار المجابرة كذلك، وشاركني فيه الحاكم والزروالي وعلي كاجا ومُغيّب وعبد الله. وفي اليوم الرابع، تناولت عند الحاج علي بلال المجبري غداءً، أشرتُ في مفكّرتي إلى أنه كان جيداً جدّاً (وأنّه حضره الجمع المعتاد). وجاءني الحاج علي من عند الحاج سعيد، وهو من تجّار «المجابرة» أيضاً. وفي اليوم التالي، تناولت الغداء في دار الحاج غريبل. أما في المساء، فوقع لي حادث من أهم حوادث الضيافة التي حظيتُ بها، واتضح لي كرم البدو بأجلى مظاهره حين دعتني فضيلات نساء الأسرة السنوسية إلى تناول العشاء.

وفي جالو، كانت تقيم نساء كثيرات من الأسرة السنوسيّة، بينهنّ زوجة السيّد إدريس وأخته. وقد أرسل إليّ هؤلاء السيّدات الكريمات، وذلك بعد وصولي إلى جالو بقليل، ليدعوني إلى العشاء. وتُعتبر هذه المسألة خارجة على المألوف لأن نبيلات الصحراء لا يقمن الولائم للرجال، كما تفعل نساء الغرب. وبطبيعة الحال، أدركت أنّني غير مدعو لتناول العشاء مع هؤلاء النساء، ولكنّني قدّرت هذا العطف من ناحيتهن، فقبلتُ دعوتهنّ راضياً شاكراً. وجاءني السيّد الزروالي والحاكم في الوقت المحدّد لمرافقتي إلى دار الضيافة، وكانت دار الحكومة في عهد الأتراك. فدخلنا إلى غرفة فسيحة تنبعث منها رائحة البخور الزكيّة، وينتشر فيها نور ضعيف من سراج نحاسي فاخر وشموع كثيرة، يلقي أشعّته النديّة على ما في الغرفة من سجّاد ثمين وطنافس[1] حريرية، فيرسل عليها أضواء بهيجة.

ولقد قام بإكرامنا سيّدي صالح، وهو زوج سيّدة من سيّدات الأسرة السنوسية، فأشرف على مجموعة من العبيد قدّموا إلينا ما لذّ وطاب من طعام وشراب. وبعد أنّ قدّم الينا من كل أنواع وأصناف الأطعمة، وفقاً لعادة البدو، جاءنا العبيد بجرن من النحاس فغسلنا أيدينا ثمّ تناولنا ثلاثة أكواب الشاي المعتادة، ورُشّت علينا قطرات الورد، وأطلق البخور الزكيّ. وبعد ذلك تقدّم إليّ رئيس العبيد باحتشام وهمس في أذني سائلاً إن كنت أحبّ أن أسمع شيئاً من الأغاني، فيدير لي «الفونوغراف»[2] ويسمعني بعض إسطوانات للمطربين المصريين المشاهير، فأبيتُ شاكراً له لطفه. وقد يكون ذلك أغضب رفقائي، ولكن ما

---

(1) بِساط يوناني.

(2) الفونوغراف (يعرف أيضًا بالغراموفون) هو أقدم جهاز استخدم لتسجيل واستعادة الصوت. (المترجم)

دفعني إلى الرفض هو رغبتي في الاستمتاع بوجودي في تلك الغرفة ذات الأثاث الفاخر والجوّ المعطّر، وإطلاق العنان لخيالي بعيداً عن صخب المدن في نواحي الصحراء وفي حياتها البدوية، والإستناس إلى روحها التي تشيع في نفسي الخالية المنفردة.

وانطبعت ذكرى هذه الليلة الفريدة في خيالي لما رأيته من جمال المكان، وأحسست بالبعد عن العالم وبلذة الاستمتاع بضيافة شريفات البدو، اللواتي اختفين عن عيني، وهنّ يخدمنني ويظهرن نحوي من دلائل الكرم والرعاية. وحمّلت رئيس العبيد أجلّ تحياتي إلى السيّدات، وطلبتُ منه أن يبلغهنّ تقديري لهذا العطف الشديد، ثمّ انطلقت في الصحراء في تلك الليلة البديعة، وكان النسيم يتسلل إلى ثنايا جردي، فيثير في الجوّ ما علق به من نشر البخور، وتثور في خاطري ذكرى تلك الغرفة التي نعمت فيها بذلك المجلس الشهي. وفي الصباح، أعددتُ وليمة لضيافة من أكرموني في خلال الأيام الماضية، ولكنّ غرفتي الحقيرة التي تعمّ فيها الفوضى وتتناثر فيها أمتعة سفري لا تُقارن البتّة بتلك الدار الجميلة التي تناولت فيها عشاء الأمس. غير أنّ علي كاجا تعهّد بأن يجعل هذه الغرفة صالحة للوليمة بقدر ما تسمح به الظروف. فاستعار من بيت السيّد إدريس سراجين جميلين من النحاس وبعض البسط الفاخرة، وأضاف إلى ذلك بعض الأثاث الآخر وجعل من الغرفة بهواً يليق بإقامة مأدبة. وكان بين ضيوفي حاكم المدينة وأعضاء مجلسها وأخوان سنوسيّان والقاضي وعلي كاجا وموسى، ضابط المدفعية السنوسيّة والسيّد الزروالي. ولبستُ أفخر ثيابي البدوية ثمّ وقفت في خدمتهم كما الطعام، ولكنّني وعدتهم أن أفعل ذلك إذا شرفوني وزاروني في القاهرة. وقد أظهر طاهيّ أحمد معرفةً واسعة في تنويع أصناف الطعام، فقدّم بعضاً من الأطعمة الأوروبية، ولم يسع ضيوفي إلا امتداح هذا الطعام والثناء على طاهيه. وكانت وليمتي هذه آخر الولائم، وبعدها كنتُ أتناول طعامي منفرداً وبهدوء، وقد أراحني ذلك كثيراً، غير أنّني أشكر جزيلاً كلّ من استضافني وأظهر لي كرماً.

وقد اهتممت أثناء إقامتي في جالو بتدوين بعض الملاحظات العلمية. فرصدتُ الشمس والنجوم لمعرفة خطوط الطول والعرض، وواصلت مراقبة «البارومتر»[1] و«الترمومتر»[2]

(1) ميزان الضغط الجويّ.

(2) ميزان الحرارة.

لمعرفة ارتفاع المكان. ولمّا راجعت ملاحظاتي في هذا الشأن مقارنةً مع ملاحظات البارومتر التي دونت في سيوة في اليوم نفسه، اكتشفت أمراً هاماً وهو أنّ سطح جالو، في مثل هذه الأيام، أعلى بمقدار 60 متراً، أيّام زارها رولفس سنة 1879. فقد اعتبر هذا الرحالة أنّ جالو تكاد تكون موازية لسطح البحر، في حين أنني وجدتها أعلى منه بستين متراً. وكان وجود هذا الفرق واضحاً أمام عيني، فقد رأيت الرمال المتراكمة تتكدّس حول جذوع النخيل وعلى جدران المنازل وتكاد تغمرها جميعاً. وكانت نتيجة ذلك أن انتقل بعض سكّان المدينة من مساكنهم القديمة وبنوا دورهم في جهات أكثر ارتفاعاً. وما زاد من ارتفاع جالو عن سطح البحر زهاء مئتي قدم خلال أربع وأربعين سنة، تلك الرمال المتراكمة الناجمة عن العواصف، التي تعترضها الأشجار والمنازل وتجعل منها ركاماً. وكانت الدار التي أقمت فيها، حيث دوّنت ملاحاظاتي، أعلى من بقيّة دور جالو بنحو عشرين متراً. وكنت شديد الحرص على تسجيل هذه الملاحظات، لأنّ البدو يسيئون الظنّ بكلّ جهاز علمي، فما بالك بآلة التيودوليت[1] التي ربّما ظنّوا أنّي باستعمالها أرسم خريطة لتلك المناطق بقصد العودة لغزوها. ولم يفتني، وقد رآني شيخ من شيوخ البدو وانا أستعمل التودوليت، أن أفسّر له بسرعة واهتمام أنّي أعمل في إعداد إمساكيّة لشهر رمضان. وكان عبد الله، وهو ليس بدوياً ساذجاً، يعينني كثيراً في سبيل شرحملاحظاتي العلمية. وكان اختصاصياً في الاحتيال على تفادي العقبات التي تعترض سبيل أعمالي، مظهراً في ذلك ذكاءً شديداً في منع سوء التفاهم.وذات يوم، كنتُ أدوّن على مسافة من جالو بعض الملاحظات مستخدماً جهازي، فمرّ بنا أحد سكّان المدينة وسأل عبد الله ماذا نعمل؟ فأجابه عبد الله: «إنّنا نأخذ صورة لجالو». فسأل البدوي: «أتأخذون صورتها على هذا البعد؟»، عندها قال عبد الله على الفور: «إنّ هذه الآلة تجتذب الصورة فتطير إليها وتنطبع فيها». فقال البدوي: «وكيف يجتذب الصندوق صورة؟» فهزّ عبد الله كتفيه وقال: «اسأل المغناطيس كيف يجذب الحديد». وهكذا انتهت هذه المناقشة التي أظهرت ذكاء عبد الله ولباقته.

(1) آلة يستعملها المساحون لقياس الزوايا.

الفصل العاشر
زاد الطريق

تأهّبت للسير يوم الخميس في 15 مارس، فاستيقظتُ الساعة السادسة صباحاً لأحضر حوائجي. واستلزمنا ثلاث ساعات لإعداد كلّ شيء، كما هي العادة في أوّل يوم من أيام السفر، نظراً لعدم تعوّد القافلة على ما يستلزمه السفر من ربط وحلّ. وكان علينا قبل أن نسير، على عادة البدو، أن نقوم بما يُعرف بـ «التجهيز»، وهو المصطلح الذي يطلق على الذهاب إلى بئر قريبة قبل البدء في سير طويل، كما كان علينا الاستعداد خلال بضعة أيام للقيام بالترتيبات الأخيرة بعيداً من مشاغل حياة المدن. وكانت بئر بو الطفل، وهي على بعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً من جالو، البقعة التي أردنا أن نجري عندها «التجهيز». وبعد أن حزمنا كلّ الأمتعة، جاءنا حاكم المدينة وأشرافها وإخوانها ليودّعونا. فجلسنا جميعاً القرفصاء نتشاور في أمر الرحلة. وكنت قد سافرت إلى الكُفرة قبل سنتين من هذا الوقت، في ظروف أكثر ملاءمةً وأسعد حظاً. ومع ذلك، فقد ضللت الطريق قبل الوصول إلى الكُفرة، وكان الجوّ في رحلتنا السابقة مناسباً أكثر والريح والعواصف أقلّ هياجاً والقافلة أقلّ عدداً.وفي رحلتي الأولى، لم تشغلني مسألة إعداد الجمال وعلفها وتهيئة الرجال وطعامهم وأدواتهم، لأنّ السيّد إدريس تفضّل فقام عني بتعهّد القافلة ولوازمها. وكانت هذه الرعاية من جانبه باعثاً قوياً على تهدئة خواطر البدو وإزالة خوفهم ومحو نزعة الكراهية فيهم للأجانب. ولكنّ، وجدتني هذه المرة مضطراً لترتيب كلّ شيء بنفسي، مع ما يبعث في نفوس العرب من الدهشة من أمثال هذه القافلة الكبيرة التي تحمل كمية وافرة من الحوائج التي تستلزمها رحلة طويلة.وأوّد الإشارة إلى أن الطبيعة تكون قاسية أثناء قطع المسافات الطويلة الخالية من الماء، حيث عدوّ الإنسان الوحيد، كما في مقدورها أن تكون عدواً لدوداً إذا شاءت. غير أنّ تضامن الرجال وغيرتهم على العمل يجعلان القافلة تهزأ بالحوادث وتمضي في سيرها آمنة مطمئنة. وكان رجالي الأربعة الذين

استحضرتهم من القاهرة وسيوة من خيرة الرجال الذين قابلتهم. وكان الزروالي، وهو الأخ الذي انتدبه السيّد إدريس لمرافقتنا، مثال اللطّف والإخلاص، وقد عمل كلّ ما في وسعه لتوفير أسباب الراحة خلال الرحلة. والحقّ أقول إنني لم أكن أحمل همّاً للطوارئ مهما قست علينا الطبيعة.وبعد أن حمّلنا الجمال بدأت حفلة «الموادعة» التي اعتادها العرب، فوقفتُ مع رجالي على شكل نصف دائرة، وواجهنا شيوخ جالو وإخوانها، وقد وقفوا على شكل نصف دائرة أخرى. ورفعنا الأكفّ خاشعين مبتهلين أن يبارك الله رحلتنا وأنّ يسدّد خطانا، ويعيدنا سالمين إلى الأوطان. وقرأنا سورة الفاتحة وختمها أكبر الإخوان سنّاً بالقول «صدق الله العظيم»، ثمّ تبادلنا الشدّ على الأيادي، وبدأنا السير في ظلّ صراخ الرجال الذي يستحثّ الجمال، وزغردة النساء تدويّ في الفضاء.وزاد إقبالنا على السفر ما حدث لنا عند إختراقنا «اللّبة»، وهي ثانية القريتين اللتين تكوّنان مدينة جالو، فقد لاح لنا على جانب الطريق بدويّة رشيقة القوام قد انفردت وهي مسدلة نقابها على وجهها. فلمّا مررنا بها نظر رجالي إلى الغانية وصرخوا بصوت واحد: «وجهك وجهك!»فعطفت البدوية وأزاحت نقابها وهي خَفِرة، فكشفت عن وجه جميل التقاسيم، صافٍ ينمّ عمّا عرف بين غواني البدو من حياء وجلال. وبهر جمالها رجالي وملك أدبها نفوسهم، فأطلقوا عبارات الإعجاب والسرور، ولم يسعني أمام ذلك إلاّ أن أسير وفقاً لعادات البدو في مثل هذه الظروف، فأمرت رجالي أن يفرغوا البارود عند قدميها.فتقدّم حامد ورقص أمامها رقصاً رشيقاً كأنّه يرقص على ايقاعات طبل منتظمة، وهو ممسك ببندقيته فوق رأسه بيديه جاعلاً فوّهتُها إلى الأمام. ثمّ اقترب من الغانية وهو يغني أنشودة بدوية من أناشيد الغرام، حتّى إذا صار قبالتها هوى على ركبة واحدة وصوّب بندقيته إلى أسفل قدميها، ثمّ أطلق النار على مقربة شديدة منهما. وكان هدفه قريباً ودقيقاً إلى حدّ أصاب لهب البارود حذاء الصبيّة، فاحترقت جوانبه. أما هي، فلم تُجفل عند إطلاق النار بل ظلّت منتصبة القامة، فخورة بالشرف العظيم الذي نالته، لأنّ الحذاء المحترق في أرجل الغادة البدوية دليل فخر تصبو اليه فتيات الصحراء.وحاكى سعد أخاه حامداً، وما إن انتهى من اطلاق النار حتّى صرخ رجال القافلة مهلّلين مستبشرين. وبدأنا السير، متفائلين بالوجه الصبوح الذي أشرق علينا في أوّل ساعة من ساعات السفر. وتركت بسمة الصبية أثرها فينا كأنما فرحت بما لاقته من إكرامنا لها. واحتوانا فضاء الصحراء، فوصلنا

بعد سير ثماني ساعات إلى بئر أبي الطفل، حيث قرّرنا الإقامة يوماً. وقضينا ليلتنا بأطرب ما يكون، ورحنا نتسامر ونغنّي حتّى منتصف اللّيل. وعندما تهيّأ رجالي للنوم أخذتُ غليوني واختليتُ بنفسي. ولم يكن أحبّ إليّ في الصحراء من تلك الرياضة الانفرادية التي أدّخن فيها غليوني الأخير قبل الإقدام على السفر الطويل، وأنا هانئ البال.وكنتُ راضياً عن كلّ شيء، يسرّني التوفيق في اليوم السعيد، ويملأني الأمل في الغدّ. ولا أبالغ إن قلتُ إنني لم أدخل فراشي ليلة من ليالي السفر، وأنا أحمل في نفسي هماً من الهموم، مهما عاكستني الظروف والأحوال.وقضينا اليوم التالي في التحضيرات الأخيرة للسفر، وتبِعنا أبو حليقة، صاحب الجمال في قافلة صغيرة تتكوّن من ثلاثة جمال، وتبعه في اليوم نفسه رجل من جالو. وكنّا بحاجة إلى حبال ومِشدّ، ولكن بائعيها بالغوا في طلب الثمن وأطال عبد الله مع هؤلاء المساومة وترك البتّ في أمر الشراء حتّى آخر لحظة. واتّفق مع رجل منهم، يُدعى السنوسيّ أبو جابر على أن يتبعنا بالحبال إلى بئر أبي الطفل. وحضر الرجل إلى خيمتي وأخبرني أنّ له أخاً في واداي، وطلب مني أن آخذه معي شرط أن يخدمنا طوال الطريق مقابل نفقات الرحلة. فشعرتُ أن الرجل جدير بمرافقتنا، ولفتتني على وجه الخصوص روح الفكاهة والمرح، اللذين كنا أحوج ما يكون إليهما خلال الرحلة الصحراوية. فقد تخون الإنسان قواه، ولكي يتحمّل التعب، يلجأ إلى إشغال نفسه بسماع الفكاهات والقصص المضحكة. وكنتُ أودّ أن يرافقنا ذاك الرجل، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، وهذا ما ظهر من خلال هذا الحديث الذي جرى بيني وبينه:قلتُ: «إننا مسافرون في التوّ وليس لديك من الوقت لتتمكّن من السفر إلى جالو والعودة بأمتعتك.فقال: «إنّ لديّ كلّ ما أحتاجه».فسألته، وأنا أدور بعينيّ مندهشاً: «وأين حوائجك؟»فأشار إلى قميصه وعصاه وقال: «هذا كلّ ما يلزمني».فضحكتُ من أعماق قلبي، حيث رأيتُ أن هذين الشيئين هما كلّ ما يحتاجه الرجل في رحلة صحراوية متعبة، وشاركني الرجل في ضحكي طروباً. ورضيت بمرافقته ولم أندم على ذلك فيما بعد، فقد خبرته أثناء السفر، ووجدتُ أنّه من أحسن رجالي. وسقينا الجمال في اليوم التالي، ولم نكن على عجلة من أمرنا حيث إنّ حال الجمال أهمّ أثناء قطع الصحراء. ليس كافياً إشباعها وتسمينها قبل الرحيل، بل يجب تركها تشرب قدر ما تشاء من الماء، والسماح لها بعد ذلك بالراحة. واستعدّت الجمال، فحمّلناها بعناية كبيرة، لأنّ وضع الأحمال بدقّة على ظهور الإبل في

بداية الرحلة يوفّر وقتاً طويلاً وعناءً شديداً أثناء السير. فقد يوفّر المسافر بذلك يوماً أو يومين من الوقت المحدّد للرحلة، إذا لم يضيّع وقتاً طويلاً في وضع الأحمال ورفعها يوماً بعد يوم.وتأهّبنا للسير عند الساعة الثالثة، وما كادت الجمال تتحرّك، حتى صرخ أبو حليقة، وفقاً لعادة البدو. فإنّ التقاليد البدوية تحتّم على القافلة التي تستهلّ سيرها بالصرخة، وتختتمه بالصرخة كذلك، فلا تلاقي في الطريق أذىً أو مصيبة. وقد زاد عدد القافلة بالتدرج حتّى أصبحت تضمّ تسعة وثلاثين فرداً، أنا ورجالي الأربعة عبد الله وحمدان وأحمد واسماعيل والسيّد الزروالي وأبا حليقة، صاحب الجمال وابنه وابن أخيه وعبده وداوود عمّ الزروالي الذي أراد السفر على جمله الوحيد إلى واحة تيزربو لإحضار زوجته وابنته، ودليلنا أبو حسن والسنوسيّ بو جابر، صاحب القميص والعصا، وحمد الزاويّ، مطربنا، وسعد الأوجلي وفرج العبد وعبدان من قبيلة «التبو»، وبرفقتهما ثلاثة جمال، وثلاثة عبيد آخرين من القبيلة نفسها، ومعهم ثلاثة جمال محمّلة بالبضائع لتسليمها إلى بعض تجّار الكُفرة.واتّجهنا جنوباً قاصدين الكُفرة، وكان يوم الرحيل حاراً وشديد الرياح، ورمال الأرض المنبسطة متماسكة وتتناثر عليها الحصى الصغيرة. وكان مقصدنا الأوّل بئر زيغن الذي قدّرنا أن نصل إليها في تسعة أيام. وكانت العادة، قبل عهد السنوسيّين أن تقطع هذه المرحلة في غضون أربعة أيام من غير أن تقف القوافل في الطريق لتناول الطعام أو طلب الراحة. ولكن السنوسيّين أبطلوا ذلك وأدخلوا عادة حمل الزاد والماء الكافيين للقيام بهذه المرحلة خلال ضعفي الوقت السابق، وتمكين الرجال والجمال من الراحة كلّ يوم. وفي البداية، لم تُقبل الجمال على السير، فحاول أبو حليقة أن يجعل تجّار «التبو» يتقدّمون القافلة بجمالهم، ولكنّهم رفضوا ذلك بلباقة لأنّ السير في المقدّمة أمر شاقّ على الجمال، إذ يفضّل الجمل أن يلحق سابقه على أن يسير في الطليعة. ولذلك يضطّر الجمل المتقدّم في بعض الأحيان إلى الاستمرار في السير بالوخز والضرب بالعصا، وهذا هو السبب الذي دعا العبيد إلى تفضيل السير في مؤخّرة القافلة حتّى لا يضطّروا إلى حثّ جمالهم. ولم يأب أبو حليقة أن يتنازل لهم عن ذلك، لكنّه استفاد من خدماتهم أثناء السير.واستمرّ اشتداد الحرّ وهبوب الريح حتّى عصر ذلك اليوم، ثمّ حلّ المساء فهدأت الرياح وأصبحت نسيماً عليلاً، وبدأت الصحراء تعود إلى رونقها الساحر. وإنّني أجد في يوميّاتي التي كنتُ أكتبها أثناء الرحلة بضع فقرات دوّنتها كي

أصف أحاسيسي، عند عودتي إلى هذه الصحراء التي جئت إليها من قبل، وشعوري بالاقتراب من الجهة التي ضللتُ فيها الطريق منذ سنتين. وإلى القارئ بعض ما كتبت: «هذه عين الصحراء المنبسطة التي تبعث في خاطري ذكريات قديمة، فالإنسان يغفر لشمس الصحراء المحرقة ورياحها العاتية إذا هدأ المساء وطلع القمر وهبّ النسيم عليلاً، وهو ينسى مخاطرها بسرعة عند الاستمتاع بملذّاتها التي تجذبه إليها، رغم قساوتها وجفائها. إنّني أنسى آلامي في كوب من الشاي وفي غليون أدخّنه ورجال القافلة نائمون. كما أجد لذّةً في رؤية انعكاس ألسنة اللّهب على وجوه رفاقي، بين شيخ مغضّن الجبين وشاب بهيّ الطلعة. وأفرح عندما أرى الرجال يعملون، فمنهم الموفقّون ومنهم الخائبون، ويملأ نفسي بالاضافة إلى ذلك إحساس بالقرب من الله جلّ وعلا والشعور بحضوره».استيقظنا في اليوم الثامن عشر عند الساعة السادسة، فحمّلنا جمالنا في غضون خمس وثلاثين دقيقة، ولم نستطع تحميلها بهذه السرعة لولا عنايتنا في تحميلها، أوّل الأمر في جالو وبئر «بو الطفل». غير أنّنا لم نبدأ السير إلاّ عند الساعة التاسعة لأنّ الإسراع في إعداد العدّة للرحيل أمر يضايق البدوي، فذلك يجبره على الإسراع في تناول طعامه، وأن يُحرَم من دقائق فراغ لازمة لتنظيم عملّية الهضم بعد الأكل. ويُعتبر حكيماً بين رؤساء القوافل من يلاحظ كلّ هذا قبل إصدار أمره بالرحيل. وإنّني أرى الفرصة هنا مناسبة لإعطاء القارئ صورة ليوم من أيّام السفر تكون نموذجاً لجميع الأيام التي قضيناها في السفر إلى أن وصلنا إلى واحة أركِنو.كانت رحلتنا هذه في شهر مارس، ومع ذلك كان البرد شديداً يضطّرني للاستيقاظ بعد الفجر بقليل، فالبقاء في الفراش يعرّضني للبرد القارس، على الرغم من الدفء الذي أشعر به في أكياس النوم وتحت ملاءة البدو المصنوعة من الصوف. وأنظر من ثقوب الخيام فأرى نجوم الصباح تغيب وهي كسلى. وعندما أصحو أجد أحد رجالي قد أشعل النار، وأشعر بدافع إلى الاسراع في طلب الدفء، فألتحف بجردي وألّف كوفيتي حول أذنيّ، ثمّ أندفع إلى النار وأنا ما زلت نعسان في تلك الساعة المبكرة من الصباح. أقف إلى جانب النار وأنظر إلى الرجال المنكمشين بسبب الصقيع، وقد استيقضوا من نومهم جميعاً، وألاحظ أنهم قد أنِسوا إلى الدفء ملتحفين جرودهم وكلّ ما توفّر لهم من ثياب. واعتدنا، عندما يكون الماء وفيراً، أن نكثر من شرب الشاي، ثمّ تسري في الرجال روح العمل فينطلق كلٌّ إلى عمله. أما الجمّال

فيقوم بعلف إبله بلحاً جافاً تلتهمه بما فيه من حصى وتراب. ثمّ يتعهّد الجمّال فيخفّف عبء الجمال التي شكت بالأمس ثقل أحمالها، ويرتب ما أسيء ترتيبه ووضعه على ظهرها من قبل. ويقوم رجال آخرون فيحلّون خيامنا الثلاث المنصوبة على شكل مثلث، ويستعدّون لتحميل حوائجنا التي كدّسناها للوقاية من الريح الباردة. وفي هذه الأثناء، أكون منشغلاً بملاحظة البارومتر والترمومتر وتدوين الملاحظات في يوميّاتي العلميّة، ثمّ أتحقّق من وجود شريط للتصوير جديد في آلة التصوير. أقوم بهذا وأنا أسمع أصوات الرجال بين الخيم، خافتة النبرات، تحت ما ترتديه الرجال من الكوفيات وغيرها من الملابس. ويعدّ طعام الفطور، وقد يكون عصيدة[1] أو أرزاً، وهما طعامان بسيطان، ولكن الاقبال عليهما كبير لأنّ الإنسان لا يشعر في الصحراء بما يشعر به سكّان المدن من عدم الرغبة في تناول الفطور. ويتبع الفطور ثلاثة أكواب من الشاي يحتسيها الرجال ببطء وهدوء، لأنّ دفع البدويّ للاسراع في تناولها يضايقه ويجعله يتباطأ في إنجاز عمله. ويشعر رجال القافلة، بعد الفطور، بالدفء والرضى والاستعداد للعمل، فيسرعون إلى تحميل الجمال، رغم عناد صِغارها التي لا تخلو قافلة منها والتي ترمي بأحمالها إلى الأرض بعد وضع كلّ شيء على ظهورها. وكان السيّد الزروالي وعبد الله يشرفان على دقّة التحميل والعناية به، لأنّ إضافة نصف ساعة إلى الوقت هذا توفّر علينا تأخير ساعات في الطريق. وتستعدّ القافلة للسير، فيطلعنا الدليل على اتّجاه سير اليوم، ويرسم خطّ السير في الرمل، فأتحقّق منذ ذلك على إبرة البوصلة، وهو يلاحظني بغير رضا لعدم ثقتي بما يقول. ولكنني، أرضي نفسي بذلك لأضمن، بملاحظة البوصلة من وقت إلى آخر، صحّة إتّجاه سير القافلة طيلة اليوم. ولستُ أنكر أن ذلك الاحتراس الشديد هو مثابة الوسواس في داخلي، لأنّ السنوسيّ أبا حسن كان لا يخطئ وجهته، كأنّه حمامة تقصد بيتها، وإنّ كان في وسط النهار يحيد عن مسار الطريق. فهو يعتمد على ظلّه في السير، فيخونه في الظهيرة حيث يختفي تحت قدميه. وتنتاب الحيرة الدليل في ساعة الغسق، لأنّ الجهات الأساسية تصبح ملتبسةً في منبسط الصحراء. وبالتالي، كانت البوصلة نافعة في بعض الأحيان، كما حدث يوماً في إحدى رحلاتي عند الغسق، إذ رأيت بفضلها، الدليل قد حادَ ما يقارب التسعين

(1) العصيدة من المأكولات والحلويات الشعبية المشهورة، خاصة في بلدان الخليج وخصوصاً في دولة الإمارات العربية المتحدة. (المترجم)

درجة عن السبيل. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ دقّة الدليل الماهر في ملاحظة الاتّجاه الصحيح خارقة للطبيعة.

ونتهي من مشاورة بعضنا بعضاً في أمر الطريق الذي سنسلكه في غضون يومين، وننتهي من تحميل آخر جمل من جمال القافلة، فيتقدّم الدليل وتتبعه الجمال، واحداً تلوَ الآخر، ويدفئ الرجال أيديهم وأرجلهم للمرّة الأخيرة على وهج النار الخابية، ثمّ ينتعلون أحذيتهم البدوية ويسرعون إلى اللحاق بجمالهم وهم يغنّون، في حين أن نسيم الصباح ينعش نفوسهم ويبعث فيهم النشاط والهمّة.وتشتدّ حرارة الشمس بعد ذلك، فإذا لم تكن هناك ريح تزيد من حدّة حرارتها، خلع الفرد ما غطى به حول أذنيه وعنقه، وانتهى به الأمر إلى خلع جرده ووضع الثياب على ظهور الجمال. ثمّ يأخذ الجميع بتبادل الفكاهات ويتسابقون في الركض وهم فرحون نشطون. وبعد ذلك، يشكّلون جماعات على طول القافلة، ويتبادلون الحديث في مختلف الشؤون. وكثيراً ما كنتُ أتقدّم القافلة أو أتعقّبها على مسافة، كي ألاحظ اتّجاه السير وحيداً وأنعم بجمال الصحراء. وعند منتصف النهار، تراودني في بعض الأحيان ذكريات بعيدة تقطع عليّ حبل التفكير في جمال الطبيعة. فتتماثل أمامي المطاعم المألوفة في المدن البعيدة واستمتاعي بمختلف أصناف الأطعمة التي أشتهيها في تلك الساعة من النهار. فيفاجئني أحمد أو عبد الله في هذه الآونة فيضع في يديّ كيساً من البلح يمحو هذه الأحلام. وعلى الرغم من إلتهامي هذا البلح بشهيّة، فإنّي لا أقبل بمثل هذا الطعام على مائدة في بلاد الحضارة والمدنيّة والرفاهيّة. وتجدر الإشارة إلى أنّنا لا نتوقف عن السير لتناول الغداء لأنّ الجمال تأكل مرّتين في النهار.وعندما نصل إلى واحة، نعمد إلى أخذ حاجتنا من الخبز، فيبقى عادّة طريّاً لدى خروجنا من الواحات ويأكل كلّ منّا رغيفاً أو نصف رغيف، حتّى إذا طال السير بنا بين واحة وأخرى جفّ الخبز أو نفد. وبالتالي، كنّا مقتنعين بالبلح الذي ينقطع عنّا مورده. وكان من عاداتي أن أضع خيمة مطوية على ظهر أحد الجمال حتّى يستريح عليها كلّ مُتعب من السير، وكان أحمد يسمّيها «الكلوب». وأتذكّر أنّ عبد الله راح يبحث عنّي ذات يوم لإعطائي نصيبي من الخبز والبلح، فسأل أحمد: «أين البيك؟»، فأجابه أحمد، وهو يغمز بعينيه: «إن البيك يتناول غداء اليوم في «الكلوب».وقد يمتطي الإنسان الجمل فيغفو قليلاً على ظهره، غير أنّه يفضّل المشي لأنّ سير الجمل بطيء يمكّن صاحبه من ملازمة القافلة، وكثيراً ما يكون السير على الأقدام

أقلّ إنهاكاً للقوى من ركوب الجمل. وقد يلوح طوال اليوم مجرى من الماء يلمع أمام القافلة عند الأفق، ولكن هذا المجرى الذي هو مجرّد وهم لا يقرب من رائيه ويظلّ يغريه ببرودة مائه وعذوبته. وعندما تميل الشمس إلى الغروب يختفي السراب الذي خدع الأبصار طويلاً. وفي الصباح الباكر، يلوح نوع آخر من السراب، فتتراءى البلاد النائية معكوسة في السماء على مقربة من خطّ الأفق. وهذا النوع من السراب ليس وهماً كسابقه، ولكنّه صورة منعكسة للبلاد الواقعة على مسافة عشرات الأميال أمام رائي السراب. وتمّحي هذه الصورة بغتةً إذا توسّطت الشمس السماء. ويؤثّر انعكاس الأضواء تأثيراً عجيباً في نواحي الصحراء، فيبدو الحجر الصغير على بعد ميل صخرة كبيرة قائمة وكأنّها علم من أعلام الطريق. ويظهر هيكل الجمل أو الإنسان أو جزء من ذلك الهيكل بأشكال غريبة، ولا تخدع البدوي هذه المظاهر لأنّه خبِرها طويلاً. أماّ القول بأنّ السراب يغرّ البدوي ويجعله يضلّ طريقه فهو قول مبالغ فيه لأنّ من اعتاد قطع الصحراء يميّز السراب الحقيقيّ من السراب المزيّف، وقد يرى البلاد من رؤية صورها المنعكسة في صفحة السماء، فيساعده ذلك على السير. وتشتدّ الحرارة بعد الظهر فيتباطأ سير الإبل ويسود القافلة هدوء وسكون. وعندما يقترب المساء وتنخفض حرارة الجوّ، تجدّ الجمال في السير وتندفع قبل أن تحين ساعة نصب الخيام. ويبدأ الرجال بالغناء لحثّها على السير، فتجدها تسرع على أثر هذا التشجيع. وأغاني البدو بسيطة شعرية تنمّ عن حياة الصحراء، فتمثّل إحداها بدويّاً ينتظر القافلة المنشودة في إحدى الواحات، ويغنّي للإبل الآتية قائلاً:

تذهب في اللّيل، والمرازم[1] تتلألأ حتّى طلوع الصباح

وأنتِ وصلتِ والخواطر هدأت

ثمّ يتغنّى بجماله فيقول:

برفقتها، أسير صوب تلال الرمل،

وهي دليلي الى دياري

(1) ثلاثة نجوم

ويخاطب جماله قائلاً:

وتلال الرمال التي تخفي الكثير من الآبار حيث المياه غزيرة

وأنتِ تأتين الى حوافيها التي تبدو مثل السوار المصنوعة من

الذهب والأحجار الكريمة النادرة في الأصقاع البعيدة

ويحدّث رجل آخر جماله فيقول:

والآبار التي تختبئ وراء التلال الملثّمة بالرمال.

تقتربين منها مرّة ومرّتين

أنتِ التي تكتشفين الأماكن المخبّأة

أما الأغنية التي سأنقلها في ما يلي فتمثّل مكانة الجمل الذي يحتلّها في نفس البدوي، فهو أعزّ ما يملك وأكثر ما يجود به، وهو لا ينزل عنه حتّى يموت في سبيل المحافظة عليه. وقد يستغنم البدويّ الفرص للثأر من قاتل أخيه او ابنه، ولكنّه إذا ضاع جمله هام على وجهه ولا تقرّ له عين حتى يسترجعه، ولو سفك في سبيل ذلك دمه. والمثل البدويّ يقول: «اللّي ما يصونها ما هي له». وهذا ما يغنّي البدويّ، تنويهاً بجمله وافتخاراً به:

من أجلكِ، أنتِ التي تبعثين الفرح في قلوبنا

وتهتمّين بنّا كما تهتمّ الأمّهات بأولادهنّ

من أجلكِ، مات أبناء النبلاء على الرمال

من دون أن يوضعوا في قبور أو في محارق[1]

وينشد البدويّ من الأغاني ما يوافق الظروف التي يتغنّى بها، فينشد الأغنية الأولى إذا طالت عليه المسافة الى الواحة التي يقصدها، ويغنّي الثانية إذا اقترب من النواحي التي تتناثر فيها تلال الرمل، وينشد الثالثة والرابعة إذا أشرف على بئر، ويتغنّى بالأخيرة إذا دخل أرضاً يسكنها أعداؤه. وكنتُ أسعى، عندما يحين وقت الغروب، إلى أن أسير على مقربة من

(1) كلمات هذه الأغاني تركتها كما وضعها المؤلف. (المترجم)

الدليل، حتّى أساعده على السير في الطريق الصحيح بواسطة البوصلة، لأنّه قد يخطئه قبل أن تطلع النجوم ليهتدي بها. ثمّ ينتشر الظلام، فيُعطى الدليل سراجاً لنسيرعلى نوره الضئيل في حلكة الظلام. وكان كلّما ابتعد عنّا نوره كلّما ازددنا إسراعاً في محاولة للّحاق به. وتحبّ الجمال خصوصاً أن ترى نور السراج في أبصارها، فتندفع في أثره.

وهكذا تمضي اثنتا عشرة ساعة أو ثلاث عشرة ونحن سائرون، وقد تعاكسنا الظروف فلا نسير هذا الزمن الطويل، ثمّ تنتهي مرحلة اليوم وتحين ساعة حطّ الرحال، فينادي الدليل: «الدار يا عيّان– الدار للّذي سئم وتعب». ويكرّر هذا النداء بعده جميع رجال القافلة، ثمّ يضمون جمالهم ويقسمونها جماعات بين حاملي الماء وناقلي الخيام وحاملي الحوائج المعدّة للمتاريس. ونشعر أن الجمال راضية عن اقتراب الساعة التي ترتفع فيها الأثقال عن ظهورها. فيأخذ الرجال في رفع أحمالها، وأُشرف على ذلك بنفسي خوفاً من الإهمال، فقد يتهاون الرجال بعد جهد السير في إنزال الصناديق التي تحوي أجهزتي العلميّة وآلات التصوير، فيحطّمون ما فيها. وتُصَفّ الحوائج على شكل سدّ يدفع الريح، إن كانت شديدة الهبوب، وتنصب الخيام على شكل مثلث إلا إذا كان الجوّ صاحياً والريح هادئة. ولست أدري أيّ من الوقتين أحبّ الى نفسي وأمتعها، أهو وقت نصب الخيام بعد سفر يوم طويل أم وقت حلّها في الصباح استعداداً للسير؟ثمّ تتوقد النار وتتصاعد ألسنتها، فتضطرم وتلقي ضوء لهيبها على الرمال. ونحتسيّ أولاً الشاي الذي أقدّر فائدته وأتمتّع بلذته رغم اسوداد لونه ومرارة طعمه. فالبدويّ يأخذ حفنة من أوراق الشاي وأخرى من السكر، ويلقي بها في وعاء الماء حتّى إذا غلى ما فيه رفعه عن النار ووزع الأكواب على إخوانه، الأمر الذي يجدّد نشاطهم وينعش نفوسهم. وينتهي الرجال من شرب الشاي ثمّ يعدّون لتناول العشاء، كما يطعمون جمالهم ويستعدّون للنوم. أمّا أنا، فأكون في تلك الأثناء منهمكاً في مقارنة الساعات الستّ التي أحملها، والاطّلاع على الصور التي التقطها طوال اليوم وتغيير (أفلام) السينما في الظلام، ووضع أسماء العيّنات الجيولوجيّة التي جمعتها وترتيب مواضعها وكتابة يوميّاتي وملاحظاتي العلميّة وغيرها. ولم أكن لأقوى على القيام بعمل كلّ ذلك لولا النشاط الذي شعرتً به بعد تناول الشاي. وقد أرغب أيضاً في التجوّل في الصحراء، فإذا لم تكن الريح باردة مشيتُ نصف ميل، وأنا ألتفت من وقت إلى آخر، فأرى أشباح الرجال فوق أديم السماء عند الأفق. وأفرح عند رؤيتي منظر الخيام

المتقاربة والحوائج المكّدسة، في حين ينعكس على كل ذلك بصيص النور المنبعث من النار الخامدة في وسط ذلك المنبسط من الرمال. ويغمرني السكون من جميع النواحي، فلا أسمع همس النسيم بين الأغصان ولا خرير الماء في الغدران كما يسمعها المنفرد في الأحراج الملتفّة بالأشجار، ولا أسمع صوت الأمواج وهي تتكسّر على جوانب السفينة كما يصغي اليها المسافر في البحار:

غَمَرتني سَكينةُ الكونِ حتّى

كِدتُ أُصغي الى حَديثِ السكونِ، والرمال والنّجوم

الفصل الحادي عشر
الطريق الى بئر زيغن

سأدوّن من الآن فصاعداً ما كتبته في يوميّاتي يوماً بيوم.

الأحد 18 مارس:

استيقظنا الساعة التاسعة صباحاً وتوّقفنا عن السير عند الساعة الثامنة والنصف مساءً، بعد أن قطعنا 46 كيلومتراً. كانت درجة الحرارة أقصاها 21 وأدناها 3. وكان اليوم غائماً والسماء صحواً، وبعد الظهر أمطرت السماء رذاذاً، وهبّت رياح عاصفة من الشمال الشرقي تحوّلت الى زوبعة رمال في منتصف الساعة الثالثة، وسكنت الرياح عند الغروب. ثمّ ثارت ثانيةً عند الساعة الثامنة مساءً. والشمس الآن غائبة والدليل حائر بعض الشيء في تحديد الجهات، كما تبيّن لي من خلال البوصلة. وظهرت الشمس من جديد عند منتصف الساعة السادسة، فصوّب الدليل وجهة سيره، وعند الساعة السابعة والنصف ظهرت نجمة القطب فاهتدى بها. ويسمّي العرب هذا النجم «الجدي»[1].

الأرض منبسطة كما عهدناها بالأمس، ولكنّها متموّجة الأديم بعض الشيء وتتنائر عليها أكوام الصوّان الكبير الداكن اللّون. وطلع الصباح، ففرح رجال القافلة عندما رأوا عند الأفق عشرات من الأشباح ينبئ باقتراب قافلة ما. وتحقّقت عن ذلك بواسطة منظاري ومرّرته على الرجال. فنزعنا البنادق من أماكنها على ظهور الجمال، وأسرع رجال «التبو» الى رماحهم، واصطفّ الجميع على ناحية القافلة القريبة من القادمين، وصوّبوا الأنظار حتّى يتأكّدوا من سلام القادم أو عدائه. ولم يمضِ القليل من الوقت حتّى أدركنا أن القادمين هم من الأصدقاء، فتلاقى رجال القافلتين وجلسوا القرفصاء يتبادلون الأخبار، تاركين جمالهم تسير ببطء. وكان الحديث دائراً عمّن تزوّج أو مات أو أصبح ثريّاً، متناولاً ما نشأ من طلب

(1) الجدي عند العرب هو النجم الواقع على طرف ذنب الدب الأصغر، وليس هو القطب.

ثأرٍ جديد وما تجدّد من عداءٍ قديم. ثمّ قام الرجال مودّعين، ومتمنين التوفيق لبعضهم البعض ولحق كلّ فريق بقافلته. وتجدر الاشارة الى أنّ هذه المقابلة في صميم الصحراء هي بالنسبة للعرب بمثابة البرقيّات اللاسلكية.

الإثنين 19 مارس:

استيقظنا الساعة الثامنة والربع صباحاً وتوقّفنا عن السير عند الثامنة والنصف مساءً، وقطعنا 49 كيلومتراً. وكانت درجة الحرارة أقصاها 22 وأدناها 5. وكان الجوّ صحواً وجميلاً، وهبّت رياح قويّة من الشمال الشرقي وهدأت عند الظهر. وعصراً، انتشر سحاب أبيض في السماء، وكانت الشمس شديدة الحرارة تعوقنا عن الإسراع في السير. وعندما حلّ المساء أصبح الجوّ رطباً، فحثثنا السير. وكانت الأرض منبسطة صلبة يكسوها بساط من الحصى الرقيق. وعند الساعة السادسة مساءً، مررنا بمنخفض من الأرض، قامت على جانبه الأيمن صخرة رمادية اللّون، وعلى بعد كيلومتر منها الى اليسار، توجد صخرة بيضاء. كنّا في هذه المرحلة نجد في السير، وكان البدو والعبيد يتسابقون ويتقافزون. ويتّصف عبيد «التبو» بالسذاجة والنيّة السليمة، وهم فقراء حريصون على ما يملكون، فيلبسون قميصاً من القطن وسروالاً يحافظون عليهما كلّ المحافظة. فإذا امتطى أحدهم جملاً خلع سرواله خشية أن يتهرّأأو يتقطّع ويعلّقه على ظهر الجمل. وإذا أراد النوم خلع ملابسه خوفاً من أن تحتكّ بالرمال فتبلى، ويكتفي بالالتحاف بمعطفه الفرو. وحدث ذات مرّة أنّ البدو أخذوا سراويل أحد العبيد وهو على ظهر جمله، ثمّ أخفوها، فلمّا ترجّل ولم يجدها خاف أن تكون زلّت عن الجمل وسقطت على الأرض في بعض نواحي الطريق. فأسرع بالعودة جارياً يبحث عن غرضه النفيس، وراح يتوغّل في الصحراء حتّى لم يظهر منه إلا شبح ضئيل في ذلك المنبسط الممتدّ من الرمال. فأشفقنا عليه وأطلقنا النار كي يعود، فعاد بعد تردّد وانضمّ الى القافلة كاسف البال، غير أنّ ضحكات الممازحين تكشف له سرّ الأمر، فيستعيد سراويله ويكون سروره باسترجاعها كبيراً من دون أن تغيظه تلك الدعابة الثقيلة.

وحدث في الليلة الماضية أن دنت الجمال من خيمتي وهدّدتني بهدمها على رأسي. والإبل دابّة شديدة الذكاء تحبّ أن تحكّ رقابها بحبال الخيم، فإذا ما نام رجال القافلة

عرّجت على الخيم تطلب ذلك، فيدخل أحدها رأسه من ثنايا الخيمة ليتأكّد من نومي، فإذا لم يسمعني أنهره يعلم أنّني غارق في نوم عميق، فيخرج رأسه ثمّ يبدأ في حكّ رقبته بالحبال. وبعد قليل ينضمّ إليه الكثير من الجمال ثمّ تقوم جميعها بهذا العمل، حتّى أستيقظ من نومي مذعوراً ظانّاً أنّ العاصفة الشديدة تزعزع أركان خيمتي.ومرّت بنا الأيّام فزادت ثقتي بأبي حليقة وتقديري له، فقد كان رجلاً قليل الكلام ذا قلبٍ كبيرٍ ونفسٍ طيبة. وكان موضع احترامنا جميعاً لكبر سنّه ومشيبه، لأنّ رجال الصحراء يجلّون الرجلَ الذي يملك التجارب، والذّي علمته السنون دروس الحكمة. ولذلك كنتُ أنا والسيّد الزوالي نستنير برأي أبي حليقة من وقت الى آخر، وكانت آراوءه على قدر كبير من العقلانيّة بحيث أقدّرها حقّ التقدير. وكان أبو حليقة دائم العناية بجماله، ولا ينسى خلال اليوم أن يخاطب بين الفينة والفينة رجاله أو جماله بصوته الرنّان. فيقول مثلاً لعبده إبراهيم: «إنّ الجمل الأبيض متعب، فلتخفّف بعض أثقاله غداً وتضعها على ظهر الجمل الأسمر». ثمّ يلتفت الى بقيّة الرجال فيقول: «ناجوا الجمال أيّها الرجال، وغنّي لها يا إبراهيم». ولقد أمر أبو حليقة بذلك لأنّه يعلم أنّ التشجيع يدفع الإبل الى الإسراع في السير. ثمّ ينادي جماله فيقول: «اتبعي الدليل أيّتها الإبل العزيزة». وينظر الى حمد فيقول: «أستحلفك بالله يا حمد أن تُعدِل سرج هذا الجمل، فإنّه يؤذيه». ويبقى أبو حليقة يشرف على القافلة حتّى اذا ظهر الشفق، قال: «أشعلوا السراج فإنّ الجمال تحبّ النور». والجدير بالذكر أنّ قيمة الجمل تظهر بعد اختبار طويل، فهو ذكيّ كالحصان، إن لم يكن أذكى منه، وهو أطيب منه نفساً في بعض الأحيان، فإنّ العرب يقولون: «هذا الرجل صبور كالجمل». وإن ألحق رجل الأذى بجمل، حمل هذا الأخير في نفسه ولا ينتقم على الأثر، ويصبر حتّى يتكرّر الأذى منه، فيفكر في الانتقام ولا يوقعه عن ظهره والقوم حوله، بل ينتهز فرصة انفراده به ليعاقبه، فيغيرعليه ويلقيه على الأرض ثم يرفسه بخفيّه. وقد حدث أنّ جملاً داس أحد الرجال، وأبى أن يتحرّك عنه رغم ما لاقى من ضرب رفقاء ذلك الرجل الذين أسرعوا لإنقاذه، وظلّ الجمل واضعاً خفّه على الرجل حتّى مات.

وقد يظنّ بعضهم أنّ جمال القافلة يُربط بعضها الى بعض ويقودها الدليل، ولكن الواقع أن الجمل يصعب إبعاده عن بقيّة القافلة، لأنّه يعرف بفضل غريزته أنّ تركه وحيداً يؤدّي الى موته، ولذلك يظلّ ملتصقاً بالقافلة قدر المستطاع، وإن لم يربط الى سائر الجمال.

ومن المناظر الأكثر ألماً رؤية جمل جهدَ في الطريق وهو يحاول اللّحاق بالقافلة، فإنّه يشبه عندها المحارب الذي يعتريه الجهد والإعياء، فلا يستطيع اللّحاق بإخوانه الجنود، وهو في الوقت نفسه يعرف أنّه ليس في ميسور أحدهم أن يحمله ويسير به، كما يعرف أنّ في التخلّف عنهم موته المحتّم. ويظهر الجمل ذكاءً شديداً بعد إخراجه من الواحة وإطلاقه في الصحراء، فإنّه يحاول في المساء أن يعود الى الواحة، ولو مرّ على تركها ثلاثة أيّام أو أربعة. وقد ألّمت أكثر من مأساة بالقوافل التي تركها جمالها ليلاً متوغّلةً في أحشاء الصحراء، وذلك على بعد بضعة أيام من وصول القافلة الى مكانها المقصود. وقد يطرأ أمر ما على القافلة يمنع رجالها من إتمام رحلتهم، فتُكملها الجمال التي مرّت في هذه الطريق سنين عديدة وخبرت دروبها.وقد حدث، بينما كنّا نقترب من جالو، بعد تركنا خيام البدو الذين استأجرتُ منهم ثلاثة من جمالهم، أنّ جملاً فتك به المرض وقطعنا الأمل بشفائه. فقام أصحابه بتحميل الجملين الآخرين أثقاله، وَتُرِك هو في الصحراء رغم إلحاحي عليهم بقتله ليرحموه من آلام الموت البطيء. وقد عرضتُ عليهم ثمن الجمل إن سمحوا لي أن أقضي عليه، ولكنّهم رفضوا قائلين: «إنّ هذا الجمل كريم الأصل وهو منهك القوى، وسيستعيد عافيته بعد أن يستريح. وقد علمت بعد ذلك أنّ صحّة الجمل تحسنّت وأنّه تعافى تماماً. ويحسّ الجمل أنّ له دليلاً، فإذا وقفنا في وسط الصحراء نتناقش في أمر السبيل التي نسلكها، اجتمعت الجمال حول الدليل حتّى يسير، فتتبعه غير مكترثة بسائر رجال القافلة. ولا يتقدّم الجمل عادةً الدليل، وإذا سار أمامه غير حافل به، فاعلم أنّه من المستحسن اتّباع ذلك الجمل، فهو أدرى بالمكان الذي تقصده القافلة. ويقول البدو إنّ الجمل الذي رعى مرّة في واحة لا يخطئ السبيل إليها، ولو بعد مرور أيّام طويلة. وللبدو حادثة مشهورة يزعمون أنّها وقعت بين قطاة[1] الصحراء والجمل. تقول القطاة: «سأضع بيضي في الصحراء وأطير أياماً ثمّ أعود لفقسه». ويجيب الجمل: «إنّ أمي إذا شربت من بئر ولم أزل في بطنها، سافرت أيّاماً ثمّ عادت وشربت من البئر نفسها». وقد رأيتُ بعيني جملاً تقدّم القافلة، ونحن على مسافة أربعة أيّام من بئر ذاق ماؤها قبل ذلك بأربع سنوات.

---

(1) القطاة طائر بري محبوب لدى أبناء الصحراء، قريب إلى النفس عندما يهبط في مكان ما، يستقر ويستوطن المكان ويتكاثر، وهو من الطرائد المحببة في الصيد ويشار اليه بالذكاء والفطنة والدلالة أي معرفة الأماكن مهما بعدت. (المترجم)

ويعرف الناس قصّة عن جمل أنقذ قافلة في سفرها من الواحات الداخلة الى واحات العوينات. كان دليل تلك القافلة متوغلاً في الصحراء، متّبعاً في سيره وصف أحد أصدقائه، فأخطأ السبيل لأنّه لم يسلكه من قبل، وهامت القافلة على وجهها اثني عشر يوماً ونفد الماء وفقدت الرجاء. فاندفع الجمل بغتة وتقدّم القافلة، فسارت على خطاه ونجت لأنّ ذلك الجمل سافر الى العوينات قبل ذلك ببضع سنين، فـ «نشق المكان»، كما يقول البدو، وعلى مسيرة يومين وأوصل القافلة الى إحدى الآبار.

واللافت أنّ الجمل المتدرّب يستطيع أن يسافر أسبوعين في الشتاء من غير أن يتذوق الماء، وقد ينقطع عنه في الصيف لمدّة اثني عشر يوماً. ويُطعم البدو جمالهم حشيشاً إذا أمكنتهم الفرصة، وعندما يسيرون بها في الصحراء يطعمونها بلحاً جافاً أو شعيراً. وأغلب جمال برقة هي من إبل «حملة» وأسرع الإبل عدواً جمال قبيلتي «التبو» و«الطوارق» التي تمتاز ببياضها ونحافة أوصالها ورشاقتها. ويقطع جمل «الحملة» 25 ميلاً في اليوم، ويسير الهجين من «الطوارق» أربعين ميلاً، وقد يقطع ستّين دفعة واحدة.

وقد يكون الجمل مخلصاً لصاحبه محبّاً له، فإنّ الناقة الوفيّة لا ترضى أن يمتطيها أحد غير صاحبها. والعادة أن يحمل الماء على ظهور الجمال المسنّة الرزينة التي لا يُخشى من نَزَقِها على ما تحمل من القِرب، وهي تعلم أنّها تحمل أعزّ حوائج القافلة. فإذا انتهى سير اليوم وحانت ساعة رفع الأحمال، ابتعدت هذه الجمال عن بقيّة الجمال خوفاً على القرب التي تحملها من الاصطدام وتفجّر ما تحمله من الماء. وقد رأيتُ جمالاً تحوم حول الخيم ثمّ تقترب من قرب الماء الموضوعة على الأرض بالقرب من بعضها البعض وهي مغطّاة بحَيطة، فتدور حولها كي لا تطأها بأقدامها، وكأنّها تشعر بقيمة تلك القرب وأهميّة ما تحويه من الماء. وقد اخترت جملاً، فاتّخذته مدّة طويلة كي يحمل خيمتي وكتبي وأجهزتي العلمية، ولقد وقع اختياري عليهنظراً لقوّته وكبر سنّه. وكان من عادته، إذا طلع الصباح وبدأت عملية التحميل، أن يقصد خيمتي من تلقاء نفسه، ثمّ ينتظر بالقرب من حاويات الماء لوضع الأحمال على ظهره.

والجمل زوج غيور والناقة زوجة مخلصة، والناقة لا تترك سيّدها ووليّها من الجمال فتتبعه أينما ذهب، والويل للجمل الّذي تحدّثه نفسه بالإعتداء على ناقة جمل آخر.وقد

اعتدتُ كلّ صباح ومساء أن أتحدّث مع أبي حليقة عن الجمال والصحراء وتاريخ البدو، فكنتُ لا أجابهه بالأسئلة تفادياً من إساءة الظنّ بي، لأنّ البدو سريعو الريبة يشكّون في الدافع الى سؤالهم. وكنتُ، رغم حبّي للعرب وبلادهم، أجد نفسي مضطّراً الى تجنّب ما يثير الشكوك، والتحايل في الحديث لفهم الكثير من الآراء والمعلومات. وقد قال لي ذلك الشيخ الوقور: «مرّت فترة من الزمن كان قومنا يجهلون فيها الكُفرة. ولاحظ بدويّ من قبيلة «الغوازي» في الأبيض، وهي واحة صغيرة بالقرب من بئر أبي الطفل، أنّ غراباً دأب على الطيران صوب الجنوب كلّما أشرقت الشمس والعودة ثانية بعد ذلك، فراقبه البدويّ زمناً طويلاً ثمّ قام يتبعه من حيث يطير الى الجنوب وتوغّل في الصحراء حتّى وصل واحة «تيزربو». فقضى يوماً على مشارف الواحة، ووجد الماء الكافي للعودة الى وطنه، فرجع وأخبر إخوانه بوجود نخيل وماء في صميم الصحراء. فاجتمعوا وشنّوا هجوماً على «تيزربو» وافتتحوها، ثمّ تقدّموا الى «بوزيمة» و«ربيانة» و«الكُفرة». وبهذه الطريقة وصل البدو الى الكُفرة».

وأعجبني حصان أبي حليقة منذ أن رأيته أوّل مرّة في جالو، فسأل عبد الله إن كان بإمكاني شراؤه. فطلب فيه صاحبه ثمناً باهظاً ولذلك أظهرت عدم الاهتمام وتركت الأمر للظروف. وكان أبو حليقة لا يسمح لأحد من أفراد أسرته بركوب هذا الحصان لأنّ كرامته لا ترضى ذلك، لكنّه تفضّل فسمح لي أن أمتطيه كلّما أردت، فأكثرت من ركوبه حتّى خيّل أنّني صاحبه وليس أبي حليقة. وتعب ثلاثة من الجمال فتوقّفت مكانها من غير أن يأذن لهم أحد بذلك، وليس من عادة الجمال أن تفعل هذا ما لم يكن هناك سبب قوي، فرفعنا أثقالها لكي نريحها، الأمر الذي أخذ منّا بعض الوقت. ولكن استعدنا ما فقدناه في نسيم المساء. وقد وضعتُ نصب عينيّ أن أحادث كلّ يوم رجل من رجال القافلة، فسهّل ذلك مجرى الأمور ومكّنني من إستقاء بعض الملعومات من وقت لآخر. فعلمتُ أنّ البدويّ يميّز أثر جماله ويمكنه أن يتبيّن إن كانت الجمال التي سبقته في الطريق ملكاً لرجال قبيلة مجاورة له أم لا، ويعرف أيضاً جمال «التبو» من شكل حوافرها الغريب وطول خطواتها. وجمال «التبو» هي أكثر جمال البدو صبراً على السير، ويمكن استخدامها في الشمال في صحراء برقة، وفي الجنوب في أراضي السودان. والكُفرة محطّة لاستبدال جمال القوافل التي تسير شمالاً وتنحدر جنوباً.وقد أخبرني الدليل أبو حسن بحيلة يعلّمها البدو حين يطلقون

جمالهم أو ماشيتهم لترعى. فإنّهم يحلبون الإبل والماعز في الصباح ويدفنون قِرَب اللّبن حتّى يظلّ رطباً. ولكن لصوص الصحراء عندهم من المهارة الكافية ليعرفوا مخابئ هذه القرب. وبالتالي، يدفن العربيّ الذكيّ قربتين، إحداهما تحت الأخرى ويملأ السفلى منهما لبناً عذباً والعليا لبناً حامضاً. ويقع اللّص على القربة العليا فلا يبحث عن غيرها، وهكذا يجد صاحب القرب لبنه العذب سالماً عند عودته مساءً.

ورأينا أسراباً من صغار الطير ترفّ بجناحيها نحو الشمال، وكان بعضها من التعب بحيث أقبل على ما قدّمنا له من الماء، وقد حطّ أحدها على يدي ليشرب. ويرى الإنسان على مقربة من الآبار نثاراً من الأجنحة والريش والعظام، يدلّ على ما حدث لأصحابها من مأساة. فقد تكون هذه البقايا آثاراً لبعض الطيور الراحلة التي وقعت على البئر، وقضت أياماً على حافّتها تسترد قواها لتطير من جديد، وتعيش على الماء التي لم تجد صعوبة في الوصول اليه، نظراً لأنّ بعض القوافل قد حفرت هذه البئر حديثاً. وتأنس الطيور الى تلك البئر ثمّ تنهال الرمال عليها شيئاً فشيئاً حتّى تملأها فيجفّ الماء ولا يبقى من البئر إلاّ أكوام من الرمل، فتموت الطيور عطشاً. وقد تكون هذه الطيور وصلت الى هذه البئر الجافة وقد أنهكها التعب، فعجزت عن الطيران مئة أو مئتي ميل للبحث عن الماء، فتظلّ مكانها حتّى تموت عطشاً. ومررنا عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً بتلال من الرمل تسمّى «الخويمات» على بعد ثمانية أو عشرة كيلومترات إلى يسارنا، وكانت هذه التلال كإسمها تشبه خيماً صغيرة بيضاء قد نُصبت على رمال الصحراء. وفي منتصف الساعة الخامسة رأينا عن يسارنا على بعد ثلاثين كيلومتراً علماً يسمى «الفُريِّق» أي فريق صغير من التلال المتجاورة، وهو عباره عن أربعة تلال رملية على صفّ واحد. وفي الساعة السادسة والربع لاحطنا قمّة علم آخر في الجهة الجنوبية الشرقية يسمّى «المعزول»، وقد سمّي كذلك لأنه بمعزل عن بقية التلال، وكان هذا العلم غير واضح لبُعد المسافة.

وأنعشت نفوسنا رؤية هذه الأعلام واستدللنا منها للتقدّم في السير، وزاد فينا اليقين أن دليلنا رجل قادر بالرغم من أن البدو يقولون عن أمثالهم: «لا يُعرف الدليل الماهر إلاّ بعد الوصول الى البئر». وهم محقّون في ذلك، لأنّه في الطريق الخالية من الأعلام لا يتحقّقون من صحّة الطريق الا في نهاية المرحلة.

وأظهر السنوسيّ أبو حسن حدّة بصره العجيبة، حين أخبرنا، في الصباح الباكر قبل حلّ خيامنا، إنّه رأى علم «الخويمات» رغم ضباب الصباح، ولم يتمكّن رجال القافلة من التأكّد حتّى رأوا ذلك بأعينهم بعد بضع ساعات. ومررنا أثناء العصر بهياكل بيضاء لبعض الجمال، فكان لذلك في نفوسنا فرح شديد. ولا عجب في ذلك، فالبدويّ يحبّ رؤية عظام الجمال لسببين: أوَلهما أنَ أيَ إشارة تدلَ على مرور أحد قبله تشَجعه على السير في تلك النواحي المتشابهة، وثانيهما أنّ عظام الجمال أكثر ما تكون على مقربة من الآبار، لأنّ الجمال أكثر ما تكون تعرّضاً للموت في نهاية الرحلة حين يرهقها أصحابها وقد ندر الماء. ولا يحبّ البدو أن يستخدموا كلمة «هيكل» للدلالة على بقايا تذكّرهم بالموتى، فيطلقون عليها كلمة «غزال».

الخميس 22 مارس:

استيقظتُ في منتصف الساعة السادسة صباحاً، فشاهدت شروق الشمس عند الساعة السادسة و27 دقيقة وقد دوّنت ذلك. وبدأنا السير عند الساعة الثامنة، فقطعنا 48 كيلومتراً في أراض منبسطة من الرمل المتماسك والحصى، وقد ظلّت تلال «المعزول» طوال الصباح عن يسارنا على بعد 25 كيلومتراً، ولكنّنا تجاوزناها بعد الظهر. وقد سمعتُ في الصباح مناقشة بين الزروالي وعبد الله دارت حول تلك الأصقاع الممتدة التي كنّا نقطعها، قال الزروالي: «إنّ أرضنا مقدّسة».

فردّ عليه رجل ساخراً: «نعم إنّ لها مستقبلاً عجيباً، وإنّني أعتقد أنّه سيكون فيها يوم الحساب،لأنها المنطقة الوحيدة التي أوجدها الله، سبحانه وتعالى، حفراء قفراء وواسعة بحيث تسع العالم أجمع».

وكان عبيد «التبو» يجرون يميناً ويساراً ويتقدّمون القافلة للبحث عن روث الجمال ليتّخذوا منها وقوداً، فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزل عن بقيّة أفراد القافلة، ومالت نفوسهم الى الاستئثار بنار خاصّة يشعلونها ليلاً على مسافة قصيرة من مكان نصب الخيم. فكانوا يستفيدون من سرعة عدوِهم، ويحيدون عن طريق القافلة مسافات بلغت أربعة أميال في بعض الأحيان للبحث عن هذه المادّة الثمينة!

وكان البدو لا يرضيهم عادّة هؤلاء العبيد، ولكن هؤلاء لم يخرجوا بذلك عن قوانين

الصحراء التي تقول: «إنّ أوّل من يضع يده على شيء في الطريق يملكه له من دون منازع». غير أن البدو كان لهم حجّة يدافعون بها عن هذا الحقّ، فكانوا يقولون للعبيد: «ليس لديكم دليل يتقدّمكم، ولا أنتم راضون أن تكونوا في طليعة القافلة خوفاً من دفع جمالكم على السير بضرب العصي، وفي الوقت نفسه تنتهزون الفرصة فتتركون جمالكم لأنها تتبع جمالنا في حين تعدون لجمع الروث». ويقول العبيد: «تريدون أن نقود جمالكم فتسبقوننا الى جمع الروث الذي هو ملك لنا، لأنّنا أوّل من يعثر عليه وأنتم سائرون الى جانب جملكم».

واشتدّ النزاع بينهم، فطالبوا أن أحكم بينهم. فأعطيتُ الحقّ للبدو واعتبرتُ أنّ العبيد ليس لهم الحقّ في الاستئثار بالروث. ولكنّني كنتُ لا أمانع إعطاء العبيد طعاماً ساخناً من المؤن العامّة كلّ مساء، نظراً لفقرهم المُدقع وقلّة ما لديهم من المؤن التي جمعوها لأنفسهم. ويختلف عبيد «التبو» عن البدو في الكثير من الخصال والعادات، فالعبيد قلّما يستعملون النار في تحضير طعامهم، وإنّ أنسوا إليها وفرحوا بها، وهم يجفّفون داخل لحاء النخلة عند قمّتها ويطحنونه ويصنعون من ذلك نوعاً من الكعك المُحلّى يضيفون إليه بلحاً وجراداً[1] مطحونين. وهم لا يدعون أحداً لمشاركتهم طعامهم كما يفعل البدو، ولا يتأخّرون عن تلبية دعوة أحد لهم لتناول الطعام.

والبدو يأخذون عليهم هذا التصرّف غير اللائق. وعبيد «التبو» يتعمّدون أن لا يتركوا في طريقهم شيئاً من أغراضهم، لأنّهم يخافون من أن تصدق الخرافة التي تقول أنّ من يلتقط شيئاً سقط من العبيد لا بدّ أن يستولي عليهم يوماً من الأيّام. ويتمتّع هذا القوم بأجسام قوية البنية، وهم أهل جدّ وعمل، غير أنّهم شديدو السذاجة في نظام معيشتهم وتفكيرهم. ولكن بدأوا الآن الاختلاط بالبدو والتشبّه بالكثير من طبائعهم. وفي ذلك اليوم، مرض أحد الجمال فلازمه أبو حليقة ثمّ حجمه عند ذيله، وأملنا أن يستعيد الجمل عافيته عند طلوع الصباح. وكان لدينا القدر الكافي من الماء وارتأينا أن نتناول كوباً من الشاي، فتقدّمت

(1) كان الليبيون القدماء اذا هجم عليهم الجراد قاموا بقتله من أجل أكله، وذلك بفصل الرأس والأجنحة والأرجل، ثم يشمس حتى يجف، ولقد ذكر هيريدوت هذة القصة في كتابة التاريخ في الجزء الخامس المخصص بليبيا وقبائلها وعاداتها وتقاليدها. ولقد ظل هذا الأمر حتى ثلاثينات القرن الماضي، فلقد كان يقلى بدون زيت ولكن ليس كل نوع من الجراد بل الذي يصل طوله الى 10 سنتيمترات وما فوق.

القافلة مع أبي حليقة والزروالي وعبد الله، وأخذنا الدليل حتّى يحدّد لنا الطريق الصحيح، وعندما صرنا على مسافة كافية أسرعنا في إشعال النار وغلينا الشاي. أما القافلة فقد لحقت بنا وناولنا كلّ رجل يمرّ بنا كوباً من الشاي. ولم تتوقف القافلة عن السير أثناء ذلك، حتّى إذا مرّ بنا آخر الجمال، جمعنا حوائجنا ولحقنا بالقافلة التي تسير سيراً بطيئاً. وكان ابو حليقة يمتطي جمله والزروالي وعبد الله يركبان جملاً واحداً، وكنتُ على ظهر الحصان.

ولا يسعني هنا إلا الإقرار بأن الحصان «بركة» أفادني كثيراً في العديد من المواقف، فكنتُ أمتطيه لأذهب وأجمع الجمال من مراعيها، التي لا تتركها إلا بعد تردّد وامتناع شديدين.

وكنتُ أركبه لزيارة الأماكن المثيرة للاهتمام، عندما تقف القافلة في واحة من الواحات لتستريح الجمال أو ترعى. وكنتُ أتقدّم به القافلة وأتخلّف عنها لتدوين بعض الملاحظات أو الحصول على بعض العيّنات الجيولوجية، وكنتُ أظهر وأنا أمتطيه بمظهر لائق بشيخ في طليعة قافلته، حين تدخل واحة أو تتركها.

الجمعة 23 مارس:

قطعنا 36 كيلومتراً، وهبّت ليلة الأمس رياح قويّة من الشمال الشرقي، بدأت عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وظلّت الريح تهبّ طيلة النهار واشتدّت بين الساعة الواحدة والثالثة ولم تهدأ إلا عند المساء. وكان الجوّ معتدلاً وصافياً مع اقتراب المساء. ورأينا عند الساعة الخامسة مساء تلال الرمل المسمّاة «المعازيل»، على مسافة 25 كيلومتراً في الجهة الجنوبية الشرقية. وأبدى الرجال رغبةً في السير طيلة اليوم، وأبدوا مجهوداً كبيراً للبدء بالسير عند الساعة الثامنة، قاصدين أن يمشوا 12 ساعة، ولكن الجمل المريض أعاقنا عن تنفيذ هذه الفكرة، فقد ضعف حتّى اضطررناه الى النهوض عندما حان وقت الرحيل. وهزّ أبو حليقة رأسه ثمّ قال:

«سيكون لحم هذا الجمل طعاماً لنا قبل انتهاء اليوم». وبعد ذلك بساعتين بَرَكَ الجمل وأبى أن يقوم، فذبحه رجال أبي حليقة بعد ذلك بقليل، وتركنا ثلاثة رجال وجملين لحمل لحمه واللّحاق بنا. ولم نكد نسير قليلاً حتّى جاءني أبو حليقة راكباً على ظهر جمله وقال: «إنّه جمل سمين فلنقف قليلاً».

وتوقفّت القافلة، وكنتُ أعلم كم يميل البدو الى أكل اللّحوم، في حين أُشعلت النار ومُررت شرائح اللّحم المشوية على الرجال فأكلوا إلا أنا وخادماي المصريّان. وسألني أبو حليقة عن امتناعي، فأخبرته أنّني لا أحبّ كثيراً أكل لحم جمل مريض. فأجاب: «إنه خير من السمك الصغير (بالإشارة الى علب السردين التي كانت معنا) فقد رأينا الجمل يذبح، ولكن من يدري

ماذا أصاب هذا السمك الصغير بعد إخراجه من البحر».

وجفّف البدو ما بقي من لحم الجمل، ثمّ نسلوه خيوطاً دقيقة يضعونها في الأرز والعصيدة بعد ذلك. وعند استئنافنا السفر بعد الظهر، قال لي أبو حسن: «سنسير حتّى يغيب القمر فنتمكّن من تناول الغذاء باكراً عند البئر». ولكن «الجدي» حجبته الغيوم قبل أن يغيب القمر، فاضطررنا الى التوقّف ونصب الخيام عند الساعة العاشرة والنصف مساءً، خشيةً أن نضلّ الطريق. ولم يكن في هذا الجزء من الصحراء شيء يستكشفه الإنسان في ما يرى حوله، غير أنّه يشعر بالسكون، ما يجيّش عواطفه الداخليّة. ويزيد هذا الشعور فيه بأنّه بعيد عن المدن ولا يفكّر في العودة إليها، فيعيش اللّحظة التي هو فيها ويستمدّ منها كل سرور وطرب. ورأيتُ السيّد الزروالي عند الغروب يخطّ في الرمل لمعرفة البخت كما يقول البدو، وكان يرفع عينيه من وقت لآخر فيتركهما سارحتين بين ثنايا ألوان الغروب الزاهية، لأنّ البدويّ لا يستطيع إلاّ أن يحبّ الطبيعة ويقدّر جمالها.

ومضت الأيام متشابهة، وكانت الصحراء خالية من الأعلام ولم نعثر إلا على بعض هياكل الجمال أو الحصى الصغيرة، حتّى إنّه يخيّل لمن يرى الصور التي التقطتها في تلك النواحي في غضون سبعة أيّام أنّه تمثّل مكان نصب الخيام ذاته تمّ تصويره من جهات مختلفة. وبالتالي لم يكن هناك شيء يشغل البال ويقطع حبل التفكير.

يا لها من صحراء خلاّبة ساحرة، تستهوي العقول بما فيها من وحشة وعزلة. في تلك الفيافي المترامية وفي ذلك القفر الموحش، يتجرّد العقل والجسد من ماديّات الحياة. وفي ذلك الفضاء الشاسع تقضي اليوم تلو اليوم وتمضي الليلة بعد الليلة، ويُخيّل إليك أنّك ستستنفد سنوات حياتك السنة بعد السنة من دون أن تجد منه مخرجاً أو له نهايةً. وفي اللانهاية هذه، ترى نفسك وقافلتك ذرّة من الرمال التي تطوؤها قدماك، وتتجلّى لك عظمة

الله وقدرته، وتتضاءل نفسك في عينيك وتشعر أنّ وسائلك في المدن لا تجدي نفعاً في الصحراء وأنّ لا سبيل لك إلا أن تهديك يد القدر.

السبت 24 مارس:

استيقظنا متعبين عند الخامسة والنصف صباحاً، لأنّنا لم ننم ليلة أمس إلا الساعة الثانية صباحاً. وكان اليوم صحواً، وهبّ نسيم من الشمال الشرقي في الصباح، وهدأ عند الظهر، ممّا زاد الجوّ دفئاً. ولكن،عند العاشرة مساءً هبّت رياح شديدة من الشمال الشرقي، وأخذت نواحي الصحراء تتغيّر قليلاً منذ التاسعة والنصف صباحاً، فزادت نعومة الرمل وتجعّد أديم الصحراء بعض الشيء. ومررنا عند الساعة العاشرة بأكوام من الحجارة السوداء في تلك الأرض الجرداء التي ظلّلنا نراها طيلة اليوم. ورأينا عند الظهر عن يميننا أكداس الحطب في وادي زيغن، وحططنا الرحال عند الساعة الثانية إلا ربعاً لتناول طعام ساخن على مقربة من الحطب الذي وجدناه في تلك الساعة، لأنّ وقودنا كان قد نفد في اليوم السابق ولم نتناول شيئاً ساخناً منذ صباح الأمس. وشاهدنا عند الساعة الخامسة والربع تلالاً من الرمل على بعد 40 كيلومتراً في الجهة الجنوبية الشرقية. وكانت هذه التلال على هيئة خطّ منحدر الى الجنوب نحو وادي زيغن. وعند منتصف الساعة التاسعة، لاحظنا ازدياد أكداس الحطب في تلك المنطقة.

وعندما بدأنا السير في الصباح، رجونا أن نصل زيغن في ذلك اليوم، ولكن أملنا خاب واختلفت الآراء في معرفة السبب وراء هذا التأخير، فقال أبو حليقة: «إنّ الدليل قد حاد غرباً عن السبيل، وإلا لكنّا وصلنا البئر قبل هذا الوقت». ولكن السيّد الزروالي، الّذي اختار الدليل، دافع عنه قائلاً: «إنّنا أضعنا وقتاً في ذبح الجمل وشوي لحمه وأكله». أما حامد فقد فسّر سبب هذا التأخير قائلاً: «إنّ الرجال لا تستحثّ الجمال للسير، فإنّ بعضهم يغفو طويلاً في الطريق، ثمّ يصحو على مهل فيرى القافلة لم تغب بعد عن بصره». ولقد أشار حامد الى ذلك لأنّ بعض البدو كان يخرج عن خطّ القافلة، ثمّ يغفو نصف ساعة أو أكثر، حتّى إذا استيقظ لحق بالقافلة من غير أن يبذل جهداً كبيراً نظراً لبطء السير ووجود أثر القافلة على الرمال.

وتذكّرت، عندما وقفنا نوقد النار لطهي أوّل طعام ساخن نتناوله بعد مرور ثلاثين ساعة، أنّ تلك الجهة هي التي ضللنا فيها الطريق في رحلتنا السابقة الى الكُفرة العام 1921. وبعد

الانتهاء من تناول الطعام تركنا داود، عمّ الزروالي، الى تيزربو التي تبعد عن زيغن مسافة يوم الى الغرب. وكان قصده أن يعود بزوجته وابنته الى برقة حيث يمكنه أن يجد عملاً أنسب له، وزاد أمله أنّ السيّد الزروالي رضي أن يمدّ له يد المساعدة في مركزه الجديد. ولم يكن من السهل على ذلك الرجل المسنّ أن يعود مع عائلته ويخترق الصحراء شمالاً الى برقة، وليس معه إلا جمل واحد. وقد سألته كيف يدبّر أمره، فأخبرني أنّ ثلاثتهم يمشون اليوم الأوّل، حتّى إذا خفّ الماء على الجمل، امتطته ابنته في اليوم الثاني، ثمّ ركبته زوجته في اليوم الثالث. فقلت له: «افترض أنّ الجمل أصابه شيء في الطريق». فاجاب: «الحماية من الله». وأعطيته أرزّاً ومعكرونة وشاياً وسكراً، فتركنا وهو سعيد، بعد أن قرأ لنا الفاتحة. وتناول البدو طعاماً شهيّاً من الأرز ولحم الجمل، وتوجّهوا الى فراشهم راضين. وكانت الليلة بديعة، فتركتُ خيمتي وقضيتُ وقتاً هادئاً تحت ضوء القمر والنجوم الباهتة في غمرة نوره الأكثر إشراقاً، فسُرّت نفسي بذلك المنظر الممتع، وازددتُ شجاعة برفقتها الصامتة، فعدت الى فراشي يغمرني الأمل والثقة.

الأحد 25 مارس:

استيقظنا عند الساعة الثامنة إلا ربعاً وتوقّفنا عند الثانية إلا ربعاً وقطعنا 24 كيلومتراً، وبلغت درجة الحرارة الأقصى 32 والأدنى 14. وهبّت رياح قوية من الشمال الشرقي طوال الليل ولم تهدأ إلا عند منتصف الساعة الخامسة. وكانت الغيوم تحجب الشمس في الصباح، وعند الظهر أمطرت السماء رذاذاً، وتبدّدت الغيوم بعد الظهر. وكنّا نمرّ طول الطريق بأكداس الحطب التي ازداد ارتفاعها كلّما اقتربنا من البئر. وكان يتخلّل تلال الحطب تلك بقاع رملية تتناثر عليها قطع صغيرة من الحجر الأسود. وأخذ الرمل يزداد نعومة حتّى صار نديّاً على عمق بضع بوصات من سطح الأرض. وعند الساعة التاسعة والربع رأينا في الجنوب الغربي على بعد 3 كيلومترات تلال «الوشكة»، وهي بئر صغيرة من مجموعة آبار زيغن. وعند التاسعة والنصف اجتزنا إلى اليسار معطن بو حوّاء، وهي بئر زيغن القديمة. ثمّ نصبنا الخيم على مقربة من بعض أشجار النخيل القائمة على بئر الحرش، وهي أعذب آبار زيغن. وفي الصحراء، عندما نتكلّم عن بئر، فنحن لا نعني بذلك العين الجيّدة الحفر والمتينة الجوانب التي يربط إليها دلو أو أقيمت عليها مضخّة، ولكنّ نقصد بذلك الحفرة التي قد قرُب الماء من سطحها فسهل الوصول إليه بعد الحفر. فإذا تركت

القافلة بئراً في الصحراء، تراكمت الرمال عليها وسدّت منفذها، فيتعب القادم الجديد في تنظيفها، ولكن سروره يكون شديداً بنصيبه الوافر من الماء العذب، بعد أن أمضى أياماً لا يجد منه ما يزيد عن حاجته.

ولا يتخيّل القارئ أنّ بئر الصحراء ذات حوائط يقوم عليها علم من الأعلام، فما هي في غالب الأحيان إلا بقعة ندية من الرمل يحفرها البدوي فيخرج منها الماء على بعد 3 أو 4 أقدام. وبعد مثل هذه الرحلة الطويلة، يكون أوّل هم رجال القافلة أن يسقوا الجمال ويطعموها، ثمّ يكون أكبر همّهم غسل أجسامهم وملابسهم. وإذا كان الماء قليلاً يرجئون غسل الملابس حتّى يصلوا الى بئر ثانية. وعندما يستريحون الرجال يملأون القرب ويتركوها طوال الليل، ثمّ يتفحّصونها في الصباح لمعرفة الناضح منها وفحص الشوائب فيها، فيفصلون القرب الرديئة عن الجيّدة ويبدأون بشرب ما في الأولى يقيناً منهم بجودة الباقي.

وتكون أولى الليالي التي تقضيها القافلة عند بئر، مهما كان أفرادها متعبين، ليلة أُنسٍ وسرورٍ ورقص وغناء. ويشعر الإنسان قبل الوصول الى البئر أنّه سيقيم عندها أربعة أيّام أو خمسة متنعماً بوفرة الماء بعد حرمانه منه طويلاً. ولكن العجيب في الأمر أنّ الإنسان، إذا قضى يوماً مستريحاً، تملّكه القلق ومنعه جهل الطريق وقلّة ما فيها من نعم الحياة ونعمة الراحة، واكتفى بأكل البلح الجاف حيث إنّ ذلك لا يختلف بين البئر ذات الماء الغزيرة في الواحة الخصبة وبين العين ذات الماء الشحيح. وفي غالب الأحيان لا تزيد مساحة البئر بعد حفرها عن متر مربّع، ويمسك الرمل النديّ جدرانها، فيتركها الانسان حتى يهدأ الرمل ويصفو الماء. غير أنّ البدويّ قلّما يصبر فيشرب الماء عكراً. وكم شربتُ من أكواب الماء العكر وكرعتُ منه في كوبي المصنوع من الزنك الذي لا أنظر أبداً الى قاعه عندما أشرب. ولم أستخدم «الفلتر» (المصفاة) الذي اقترح عليّ حمله بعض الأصدقاء حتّى وصلتُ الى السودان حيث كانت المياه رديئة للغاية، في منطقة مكتّظة بالسكّان، لا يُعرف ما هي الأمراض المنتشرة فيها. وقد استعملته قليلاً ومن ثمّ أهملته لأنّني وجدتُ بعض أجزائه مفقوداً. والجدير بالذكر أن قذارة الصحراء ليست كقذارة الجهات الأخرى، فإنّها لا تؤذي الصحّة لأنّ الرمل شيء نظيف، وثياب البدو يتخلّلها الهواء، والحشرات كثيرة ولا يمكن التخلّص منها، ولكنّ البدويّ اعتادها فأصبح لا يأبه لها.

الفصل الثاني عشر
اختلاف مناظر الصحراء وإصلاح الخريطة

الإثنين 26 مارس:

عند بئر الحرش، إحدى آبار زيغن، كانت درجة الحرارة أقصاها 27 وأدناها 6، وكان الجوّ صحواً والرياح شمالية شرقية تحوّلت الى عاصفة شديدة قرابة الساعة الحادية عشرة، وظلّت ثائرة حتّى منتصف الساعة السابعة، ولم تهدأ حتى منتصف الساعة التاسعة. وقد قرّرنا أن نمضي ليلة واحدة في زيغن، ولكن العاصفة اضطّرتنا الى البقاء يوماً إضافياً. ويوجد في منطقة زيغن أربع آبار، وهي: الاثنتان اللتان مررنا بهما يوم الأحد، والحرش التي نزلنا عندها وأبو زرِّيق على بعد 20 كيلومتراً من جهة الشرق.

وقد حدّث أبو حليقة أثناء النهار تابعي عبد الله عن أمر مجيئي الى الصحراء، فقال: «إنّكم جريئون أيّها المصريّون، فإنّ من الشجاعة أن يحضر البك مرّتين الى بلادنا التي لم أرَ أجنبيّاً زارها. ولماذا يأتي الى الصحراء ويترك خيرات الأرض في مصر إن لم يكن له غرض خفيّ في ذلك السفر وأخطاره. ولا أخفي عليك إنّ أمر مجيئه واهتمامه بقياس الجهات ورسمها يشغلني». وحتّى صديقي أبي حليقة تملكه الريبة منّي، ويراوده الشكّ في أهدافي، حين اخترقتُ بلاده. وقد وضّح لي في آخر الأمر الدافع الحقيقي الذي سبّب كراهية البدو لمجيء الأغراب الى بلادهم، ولا ينبع ذلك من تعصّب دينيّ وإنّما من غريزة المحافظة على النفس. فإذا توغّل الغريب في الصحراء الى الكُفرة، وهي مركز حياتهم المحبوب، كما يقول البدو: «كالجمل الذي يُدخل أنفه من ثنايا الخيمة»، ويتبعه بعد ذلك الكثيرون، فتكون النتيجة تملّك الأجنبيّ بلادهم وضياع إستقلالهم وإجبارهم على دفع الضرائب. وليس لأحد أن يلومهم على هذا الخوف من إحدى هذه النتائج.

والرأي الشائع هو أنّه لا يتبدّل شيء في الصحراء، ولكن توالي الأيام يُحدث فيها تغييراً مدهشاُ. فإنّ الرحّالة رولفس، عند مروره في زيغن في طريقه الى الكُفرة العام 1871،

ذكر وجود مساحة كبيرة من النباتات في تلك الجهة، غير أنّني لم أرَ فيها أي اخضرار في الأصل، وإنّما وقع نظري على أكوام من الحطب الجافّ. ويؤيّد قول رولفس ما ذكره لي أبو حليقة أنّ أباه كان يأخذه الى الكُفرة عند سفره لجلب البلح، لأنّ البدو يعتقدون أنّ ماء شخيرة، وهي مركز الزوية بالقرب من جالو، يلحق الضرر بالأطفال في فصل الصيف. وكان أبوه يحمله على ظهره معظم الطريق، ويقطعها في ثلاثة أيام وخمس ليال من دون التوقّف أثناء الرحلة. وإنّما كانوا يقدرون على القيام بذلك بإطعام الجمال مرّة واحدة بين جالو وزيغن، وعندما يصلون الى زيغن يتركونها لترعى في الأرض الخضراء المحيطة بها. وبالتالي، يتّضح أنّ رولفس كان صادقاً في وصفه تلك النواحي بكثرة مراعيها. ولكن، بعد مرور خمس وأربعين سنة، تغيّرت معالم تلك الأصقاع. وقد يكون السبب في ذلك تغيّر مجرى المياه في طبقات الأرض وانقطاعه عن تلك الجهات اليانعة، فأصبح ما فيها حطباً للوقود.وكانت مرحلتنا من بئر بو الطفل الى زيغن مثلاً حيّاً لمخاطر الصحراء، فإننا احتطنا في تلك الرحلة ما أوتينا من احتياط، بيد أن وقودنا نفد. مات أحد جمالنا، وخارت قوى جملين آخرين، حتّى خشينا عليهما. ونفد طعام الجمال، فاقتاتت بين زيغن والكُفرة من أوراق النخيل التي جمعناها في زيغن، ولكن ذلك لا يمنع الجمل من الشعور بالجوع. وقد حفظتُ عن أحد البدو مثلاً لا يخلو من بعض التهكّم، وهو: «صديقك كناقتُك تعطيك اليوم لبناً، وتخذلك في الغد». ورصدتُ نجم القطب الشمالي بواسطة التيودوليت في الليلتين اللتين قضيتهما في زيغن، واتّضح لي بعد تطبيق الملاحظات والقيام بالحسابات أنّ زيغن واقعة على بعد 100 كيلومتر في الجهة الشرقية الشمالية من الموقع حيث وضعها سابقاً رولفس. ومن المعروف أنّه لم يزر زيغن ولم يرصدها، واعتمد على ما قاله البدو عن هذه المنطقة. والى جانب ذلك، لاحظتُ أنّ زيغن تعلو 310 أمتار عن سطح البحر.

الثلاثاء 27 مارس:

استيقظنا عند الساعة السادسة والربع صباحاً، وتوقّفنا عن المشي الثامنة مساءً، وقطعنا 47 كيلومتراً، وكانت درجة الحرارة أقصاها 26 وأدناها 8، والجوّ صحواً والرياح قويّة من الشمال الشرقي هبّت في اللّيل والنهار، وتنتشر في السماء بعض الغيوم البيضاء. وبعد أن تركنا الحرش، أشار الدليل الى موقع الكُفرة على بعد 5 درجات من الجنوب الشرقي. وظللنا مدّة ساعتين نمرّ بالحطب الممتدّ على مسافة عشرة كيلومترات من شرق البئر، ثمّ

دخلنا جهة كثيرة الرمال الناعمة وقليلة التموّج. وازداد تموّج الأرض حتّى دخلنا أصقاع التلال الرملية قُبيل الغروب. وعند منتصف الساعة الثالثة، رأينا جهة الشرق صفّاً من التلال الرملية تتخلّلها تلال صغيرة تسمّى أجراساً من الحجر الأسود. وكان امتداد هذه التلال يراوح بين 20 كيلومتراً و30، وقد انحدرت على مدى أبصارنا صوب الجنوب الشرقي، ثمّ انتشرت بعد ذلك تلال الرمال، ويسمّونها جردس، صوب الجنوب الغربي. وعند الساعة الخامسة والنصف، تقاربت هذه التلال واعترضت سبيلنا فمررنا بينها، ولكنّها لم تكن مرتفعة جداً بحيث يصعب علينا اجتيازها. بالاضافة الى ذلك، اتّضح لي الفرق الشاسع بين البدو والعبيد في مسألة الصبر على السير، ويقول السود إنّهم لا يحبّون الزوية، وإن خافوهم. وكانت جمال التبو أكثر انضباطاً وانصياعاً من جمال البدو. وكان كلّ جمل منها مربوطاً الى رسن لقيادته، ولا يسير متخبّطاً كجمل البدو. وعند الظهر، اجتزنا علم جبيل الفضيل، وهذا العلم شأنه شأن معظم أعلام الصحراء، يحمل اسم من فقد حياته بالقرب منه، تذكاراً له. كان الفضيل من خير أدلاّء الصحراء، وكان في طريقه من جالو الى الكُفرة، فغمرت قافلته عواصف رمل شديدة أهلكت جميع أفرادها. ولم يكن هنالك شاهد على ما حدث، ولكن ما وُجد بعد ذلك من أثر القافلة أظهر حقيقة الأمر.

هبّت عاصفة شديدة، فراحت الرمال تتطاير في وجه القافلة وآذت عيني الفضيل الى حدّ كبير، فعصَبهما، ولم يستطع رؤية الطريق بل اعتمد على وصف من كان معه للأعلام التي مرّوا بها. ولكنّهم كانوا قليلي الخبرة، فأخطأوا في طريق زيغن، وحاولوا الانحدار الى الكُفرة ولكنّهم ضّلوا في الصحراء، وفُنيت القافلة إلا جملاً واحداً جهِد في العودة الى القافلة، تقوده غريزته التي لا تُخطئ فوصلها. وعرف أهل المدينة أنّه من جمال الفضيل بما على عنقه من وَسم. وقامت قافلة لنجدته، فتبعت أثر الجمل في الصحراء ولكن الوقت كان قد فات. فلم تعثر سوى على جثث الرجال متيبسة في الصحراء، بالقرب من العلم الذي أطلق عليه اسم «أم الفضيل التعس» الذي وُجد معصوب العينين، الأمر الذي كشف عن سرّ المأساة وأظهر حقيقة الفاجعة.

الأربعاء 28 مارس:

كانت الغيوم كثيفة طوال النهار، تتخلّلها أشعّة الشمس من وقت لآخر، ولم تنقشع

كذلك في المساء. وهبّت رياح باردة من الشمال الشرقي، ثمّ تحوّلت في الثامنة صباحاً الى عاصفة دامت ثلاث ساعات ونصف الساعة. واستمرّ هبوب الرياح الباردة في المساء، وسقط رذاذ في منتصف الحادية عشرة مساءً. سرنا بين تلال الرمل مدّة ساعتين، ثمّ دخلنا أرضاً متعرّجة مُغطاة بالحجارة السوداء المهشّمة التي تأذت الجمال منها كثيراً. وقضينا في تلك الأرجاء ساعة، ثمّ سرنا من جديد بين تلال الرمل. وعند الحادية عشرة ونصف صباحاً، كانت سلسلة تلال الهوايش إلى يسارنا، وتلال الرمل والحجارة السوداء إلى يميننا. وعند الساعة الثانية عشرة والربع، اجتزنا إلى اليسار، على بعد 4 كيلومترات، عَلَم جور المخزن، وهو عبارة عن تلال من الحجارة السوداء يراوح ارتفاعها بين خمسين متراً الى مئة وخمسين. وفي الثانية إلا ربعاً، مررنا بعَلَم الجارة وابنتها، وهو عبارة عن تلّتين مختلفتي الحجم، بحيث يناسبهما الاسم الذي أطلق عليهما. وأخبرتُ بعض البدو كيف ضللتُ الطريق العام 1921، فلم يَعجَبوا لذلك، لأنّ أهل الصحراء ألفوا بومياً مسألة ضلال الطريق وفقدان الجمال والماء والوقود.

الخميس 29 مارس:

لم أتمكّن ذلك اليوم من ضبط أقلّ درجة للحرارة لأنّ ترمومتر النهاية الصغرى تحطم أثناء هبوب العاصفة. وظلّت تلال الحوايش عن يسارنا حتّى العصر. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف، دخلنا أرضاً ناعمة، كثيرة التلال الرملية المتموّجة التي يصعب السير عليها. وفي منتصف الثانية، مررنا يميناً بأكبر الأعلام التي اجتزناها، وهو عَلَم جارة الشريف، وهذا العَلَم عبارة عن تلّ يبلغ عرضه 150 متراً ويبلغ ارتفاعه 100 متر وتجاوره ثلاث تلال، اثنان منها في الجنوب والثالثة في الشمال. وعند الساعة الثالثة، سرنا بين تلال متعدّدة، وخرجنا منها بعد ساعتين الى أرض منبسطة صلبة الرمال، تكثر فيها ركام الحجارة السوداء.وفي منتصف الرابعة صباحاً، اشتدّت عاصفة رملية، فاجتاحت الخيم وقوّضت أركان خيمتي، وهشّمت بعض أدواتي. وتهدّمت الخيمة عليّ وزاد ثقلها بما انهال عليها من الرمال التي لم يتوقّف تراكمها، فخِفتُ الإختناق تحتها. ولكن، لحسن الحظّ، أمسكت وتداً من أوتاد الخيمة ورفعتها عن وجهي، وهرع الرجال لمساعدتي، ولكنّي صرختُ قائلاً لهم أن يضعوا أكياس الدقيق وقطع الأمتعة فوق خيمهم وخيمتي حتّى لا تجتاحها العاصفة. وبقيتُ في ذلك الوضع المزعج قرابة الساعتين، وكان الرمل ينفذ إليّ كأنّه يُقذف

من بندقيّة. وقاسى الرجال والجمال كثيراً. وأوشكت العاصفة أن تقضي على الكرونومتر الكبير، لأنّ وتد الخيمة، لو مال قيد أنملة واحدة، لهشّم تلك الآلة النافعة وحرمني الكثير من نتائج الرحلة العلميّة. والبعيد عن الصحراء لا يعلم شيئاً عن الرحّالة إلاّ خيبته أو نجاحه اللّذين يفصلهما خطّ واضح، ولكن المستكشف لا يميّز هذا الخطّ. فقد يكون سائراً في الطريق الصحيح، جامعاً كلّ المعلومات التي أرادها وقريباً من نهاية الرحلة، وفجأة تخور قوى جماله فيضطّر الى ترك أثمن ما يملك. وحتفظ بالماء والزاد ويترك الأجهزة الفنيّة وما دون من ملاحظات. وقد تكون مصيبته أعظم، فيضحّي بكلّ شيء حتّى بحياته، ولا يعرف الناس من أمره إلاّ أنّه خاب، وقد ينصفه بعض النقاد فيقول إنّه خاب خيبة مشرّفة، فهو في الحالتين خائب، وما أقرب هذه الخيبة من النجاح. فقد يكون ذلك الخائب أكثر عملاً وأشدّ تحمّلاً لمشاقّ الطريق الطويل ممن حقّق النجاح في رحلته. وإنّما يميل الرحّالة الى أخيه الذي جاهد وخاب لا الى خصمه الناجح، فهو يعرف أنّ الأول لم يفشل إلا بعد أن حارب كالأبطال في سبيل الاحتفاظ بثمرة جهوده.ويقدّر البدو ذلك، فقد كانوا يتمتّعون بنزعة أدهشتني في بعض الأحيان، ومن ثمّ تمكّنتُ من فهمها أخيراً: لم يكونوا يطربون أو يفرحون إذا ما انتهى اليوم بالنجاح المنشود، وكأنّهم يقولون لقد نجحنا اليوم، ولكن ماذا عسى يكون نصيبنا في الغد؟ ولذلك لم يكن من عادتهم أن يطمئنوا بالكامل لنجاحهم، لأنّهم لم يصلوا إليه بمهارتهم وإنّما العناية الالهية هي من ساعدتهم لتحقيق هدفهم، فقد تكون رحلة الغد أسهل من سابقتها كما يمكن أن تكون أكثر فشلاً. وفي رحلتي الأولى، عثرنا على آثار قافلة انقرضت في صحراء ليبيا بين واحة لوزيمة، وهي من واحات الكُفرة، وبين الكُفرة. ورأينا يداً نافذة من بين الرمال مصفّرة الجلد. فتقدّم إليها أحد الرجال، وهو خاشع، فغطّاها بالتراب. وتجدر الاشارة الى أن رجال تلك القافلة ضلّوا الطريق وماتوا عطشاً، وهم على مسيرة ثلاثة أيّام من الواحة.وكم وجِد من بقايا قافلة فَنيت وهي على مقربة من البئر، وكم عرِف من أخبارها المروّعة، ولم يمنع ذلك القوافل من سلوك تلك الطريق من جديد، لأنّ البدويّ يؤمن بالقدر ويعتقد أنّ الله هو الذي قضى على أفراد تلك القافلة بالموت في هذه الطريق. وقد قال لي أحد البدو ذات مرّة: «أحشاء الطيور ولا ظلام القبور»، ويعني بذلك أنّه يفضّل أن تأكل جثته الطيور على أن يدفن في القبر.وكان يومنا هذا مُتعباً نظراً لما أصابنا من قلق وخوف في الليلة الماضية عند هبوب العاصفة، وما بذلنا من

جهد أثناء السير بين التلال الرملية. ولكن الرجال كانوا مسرورين بالاقتراب من الكُفرة، وما زاد فرحهم أنّ أبا حليقة الذي يقيم في الهواري، وهي أوّل محطّة في الكُفرة، عزم أن يذبح شاة ويقيم وليمة لأفراد القافلة. وكانت الجمال ضعيفة ونحيلة، ولكن ثلاثة منها كان موطنها الكُفرة، فاندفعت في السير إليها من غير أن يقودها أحد، على الرغم من صعوبة السير بين التلال، وتبعتها سائر جمال القافلة. وعند السابعة إلا ربعاً، رأينا جارة الهوارية، وهو العَلَم العظيم الذي يدلّ على الاقتراب من الكُفرة.

الجمعة 30 مارس:

استيقظنا عند الثامنة إلاّ ربعاً صباحاً وتوقّفنا عن السير عند الساعة السادسة إلا ربعاً، وقطعنا 35 كيلومتراً فوصلنا الهواري. وهطل رذاذ المطر في المساء، وكانت الأرض منبسطة ناعمة الرمل وقليلة التعرّج تكثر فيها أكوام الحجارة السوداء والحمراء. وعند منتصف الساعة العاشرة، دخلنا منطقة الرمل الأحمر التي تحيط بالكُفرة، وصادفنا في طريقنا طوال اليوم قطعاً من الخشب المتحجّر. وفي الساعة الأولى والدقيقة 25 مررنا بجارة الهوارية، وفي منتصف الساعة الرابعة، أبصرنا نخيل الهواري. وبعد ذلك بساعة ونصف، دخلنا الى قرية العوازل حيث نصبنا الخيم.وهكذا نكون قد وصلنا الى أوّل مراكز الكُفرة. وقد أطلق اسم «الكُفرة» في عهد المستكشف الألماني رولفس على الواحات الأربع المتفرّقة المسمّاة تيزربو وبوزيمة وربيانة وكبابو التي تكوّن الكُفرة الحالية. ولكن اسم الكُفرة يطلق الآن على واحة كبابو فقط.والهواري تعتبر ابعد أقسام الكُفرة من الناحية الشمالية، وهي واحة صغيرة مكوّنة من ثلاث قرى، وهي الهوّاري والهواويري والعوازل. وتقع التاج على بعد 17 كيلومتراً من الهوّاري، وهي مركز الحكومة المحليّة كما أنّها تُعدّ الموقع الأهمّ. وهي تقع على ربوة صخرية تطلّ على منخفض الواحة الأصليّة التي تقع في الجنوب، وتضمّ قرى الجوف وبويمة وبومة والزرق والطلاليب والطلاب.

وكان هدفي أن أتقدّم في السير في اليوم التالي الى التاج، وهي أهمّ مدن الكُفرة. ولكنّ أبا حليقة طلب أن يستضيفنا وأصرّ على استبقائي يوماً في بلدته. وأمضينا ليلة هادئة لا يعكّر صفوها هبوب العواصف أو تقوّض الخيم. واستيقظتُ في الصباح وحلقتُ ذقني وتناولت الفطور الذي تفضّل بإرساله بدو قافلة، كانت قد وصلت حديثاً من واداي. وفي الوقت

نفسه، جمعتُ بعض المعلومات القيّمة التي جعلتني أفكّر في تغيير بعض خططي. وبعثتُ رسولاً الى التاج لتسليم رسائل الى السيّد العابد، ابن عم السيّد إدريس وشيخ السنوسيّين في الكُفرة، والى السيّد الجدّاوي، وكيل السيّد إدريس الخاص. وبعد ظهر ذلك اليوم، رافقني الزروالي الى الهوّاري، حيث استقبلني في زاويتها الإخوان وأشراف المدينة. وبعد أن تبادلنا عبارات الترحيب والتحيّة، تناولت العشاء في منزل عمّ السيّد الزروالي. واحتجّ شيخ البدو لأنّني فاجأتهم بزيارتي، ولم أنصب خيامي خارج المدينة وأخبرهم بحضوري حتّى يتهيأوا للقائي كما يجب. ويُحتمل أنهم قد سمعوا بالإكرام الذي حظيتُ به في جالو، فعزّ عليهم أن لا يقوموا نحوي بمثله وأكثر. وسمعتُ شائعات عن وجود دسائس بين بعض شيوخ الزوي الّذين خشيوا من أهداف مجيئي مرة ثانية الى الكُفرة، واحتجّوا على هذا المجيء بتغيّبهم عن العشاء الذي هيّئ لي. وكان هؤلاء الشيوخ ذوي نفوذ كبير، فصمّمتُ، بعد سماع هذه الشائعات، على الإسراع بالسفر الى التاج، خشيةُ أن يرسلوا إليها من يشوّش الأفكار قبل وصولي.

وبعد تناول العشاء، عدتُ الى خيمتي. وكانت الليلة مقمرة، فوجدتُ أمراً هامّاً في انتظاري: فعقيلة، وهو أكبر أبناء أبي حليقة، تعرض للدغة عقرب، وطلب منّي أبوه أن أسعى لشفائه، ثقةُ منه بما حملته من الأدوية. فأخذت المصل المضاد للدغ العقرب وقصدتُ داره، فرأيتُ ابنه في أشدّ حالات المرض الناجمة عن الحمّى الشديدة. وكنتُ قد فكّرت في اصطحاب هذا المصل من مصر في آخر لحظة قبل مغادرتي القاهرة. وكان من بين المودّعين طبيب صديق لي، فأرشدني الى طريقة استعمال هذا المصل. وكانت هذه المرة الأولى التي أحاول فيها إعطاء هذه الحقنة. فرحتُ أستجمع أفكاري لأتذكّر الإرشادات التي أعطانيها صديقي الطبيب. غير أنّني لم أتذكّر سوى الفرق الكبير بين غرفة المريض المظلمة التي تعجّ بأهله وإخوانه الذين يتعقّبون كلّ حركاتي وبين موقف الوداع الحارّ عندما أضفت أنابيب المصل الى حوائجي. وعلى الرغم من شكّي في ما إذا كان الإسعاف قد فات أوانه، فقد أعطيتُ الشاب تلك الحقنة وعدتُ أدراجي الى خيمتي، مشغول البال بما عسى أن تكون النتيجة. ولم يمضِ وقت طويل حتّى سمعت خطوات أفراد يتقدّمون الى خيمتي، ويصرخون عالياً، فظننتُ أنّ الصبي قد توفيّ وأنّ سبب موته سيقع على عاتقي بدلاً من أن ينسب الى لدغة العقرب، ففكّرت في جمع رجالي للدفاع عن صندوق الآلات

الذي قدّرتُ أنه سيكون أول ضحية لغضب هؤلاء القوم، واستعددتُ للدفاع عن نفسي. وكانت لحظة عصيبة لم تدم طويلاً، هدأ خاطري بعدها عندما ميزت في صراخ القادمين رنّة سرور. ولم تمض دقائق حتى دخل عليّ أبو حليقة وشكرني من أعماق قلبه لأنّني شفيتُ ابنه من دائه قائلاً بحرارة وحماسة: «الله أكبر، لقد كان ما فعلته سحراً، شفي ابني بفضل الدواء الذي أعطيته له».

وكانت حمّى الصبيّ قد هبطت وأصبح هناك أمل في شفائه، فشكرتُ الله على نجاح مسعاي، لأنّ موت الصبيّ كان سيحرج مركزي ويضعني في أصعب المواقف.

الفصل الثالث عشر
الكُفرة
الأصدقاء القدماء وتغيير خطّة الرحلة

الأحد الأوّل من أبريل:

استيقظنا عند العاشرة إلا ربعاً صباحاً. وتوقفنا عن السير عند الساعة الثانية بعد الظهر، وقطعنا 17 كيلومتراً فوصلنا الى التاج. وفي الساعة الحادية عشرة والربع، دخلنا أرضاً مهشّمة الصخور وكثيرة التعاريج، تغطّيها أكوام من الخرسانات السود والحمر على طول الطريق الى التاج.وجاء عقيلة يساعدنا في تحميل الجمال، بعد أن شُفي من مرضه وعزم على السفر معنا الى التاج. وأرسل أبو حليقة الفطور إليّ والى رجالي، وعندما قلتُ له إنّه لا داعي أن يزعج نفسه، سألني ألاّ أحرمه من حقّ ضيافته لنا لمدّة هذه الأيّام الثلاثة. وبعد قليل، جاءت جارية من بيته تحمل صحناً كبيراً من الأرز والدجاج والبيض، وقد ظهر لي أنّ سيّدها ألبسها لباساً خاصاً لهذه المناسبة، فقد راقني ثوبها الرشيق الصنوع من القماش الأزرق والأحمر الملتفّ حول خصرها النحيل.

وأخبرتها أنّنا مسافرون في التوّ، وأننا لسنا بحاجة الى الطعام، فقالت في حياء: «ربّما احتجتم إليه في الطريق، لقد طهوته بنفسي». فقلتُ لها: «إذا كان الأمر كذلك، فأنا أتقبّله بكلّ سرور». وبان عليها الفرح ورجعت مرة ثانية، حاملةً لنا صحناً آخر لا يقلّ عن الأول حجماً وطعماً، فشكرتُ لها لطفها وزوّدتها بشكري لسيّدها الكريم.وودّعنا أهل العوازل وداعاً حارّاً، وتقدّمتُ القافلة على جواد أبي حليقة، ولم نكن بحاجة لدليل نظراً لمعرفتي الواسعة بهذه الطريق. ولم تفُت السنوسيّ أبا حسن ملاحظة ذلك، فقال: «إنّ البيك يعرف الطريق حقّ المعرفة، ولا أحسبه إلا وقد أصبح دليلاً ماهراً في بلادنا».ويتمّتع الطريق الى الكُفرة، من جهة الشمال، بشيء من المفاجآت، تجعله ممتعاً. فقد سرنا في أرض قليلة التعرّج، يكتنفها مرتفع من الأرض قليل العلوّ، كان لنا بمثابة الأفق. ثمّ تحوّل هذا التلّ

فجأةً الى مجموعة من الأبنية، لا تكاد العين تميّز عن بعد فرقاً بين جدرانها وبين الصخور والرمال التي تماثلها الأبنية لوناً وشكلاً. وكان هذا المكان هو ذاته مدينة التاج، مركز الأسرة السنوسيّة في الكُفرة.

ودخلنا المدينة فرأينا الأرض التي تقع خلفنا قد هبطت فجأةً في وادي الكُفرة، وهو وادٍ بعيد يكاد يكون بيضاويّ الشكل، يبلغ أقصى قطريه 40 كيلومتراً وأدناهما 20 كيلومتراً، وتتناثر فيه أشجار النخيل. وتمتدّ فيه، على شكل خطّ متعرّج من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي، القرى الستّ المعروفة بأسماء بويمه وبومه والجوف والزرّق والطلاليب والطلاب. وتقع بالقرب من الجوف بحيرة متوسّطة الحجم، زرقاء اللّون، وتشكّل في وسط تلك الرمال الموحشة هبة من الله، فإنّ مياهها المنبسطة تبعث السرور في العين المتعبة من رؤية الرمال الدائمة، ولكن مياه هذه البحيرة المالحة لا تسر الظمآن. وقابلني عند دخول مدينة التاج أصحابي القدماء، وكان السيّد العابد، ابن عمّ السيّد إدريس وشيخ السنوسيّين في الكُفرة، مريضاً بداء المفاصل، فتفضّل بإرسال تحيّاته إليّ مع سيّدي صالح البسكري، القائمقام، والسيّد محمود الجدّاوي، وكيل السيّد إدريس، وجمع من الإخوان.

واصطحبني هؤلاء الى منزل السيّد إدريس الذي أعدّ لإقامتي. وفي رحلتي الأولى الى الكُفرة منذ سنتين، كانت إقامتي في هذه الدار نفسها، فأحسست كأنّني في داري. وأراد السيّد البسكري أن يمازحني فقال: «علّم يا بيك رجالك دروب الكُفرة، فإنّي أعتقد أنّك أخبر بها منهم جميعاً، بمن فيهم السيّد الزروالي الذي لم يطأها منذ 13 سنة». وبدأت مظاهر الضيافة في الحال، فقدّم لنا الشاي، ولم أكد أستريح قليلاً حتّى جاءني أحد العبيد يدعوني الى تناول الغداء في دار السيّد العابد، وكان الرسول نفسه الذي قادني منذ سنتين. ومشيتُ معه في الدروب نفسها، ودخلتُ الدار ذاتها التي يقيم فيها قائد السنوسيّين، وأنا أشعر كأنّني أعيش في عهد الماضي، أو كأن السنين لم تمض. وتتميّز دار السيّد العابد بطرقات متعدّدة متداخلة، مليئة بأبواب الغرف التي يقيم فيها أفراد أسرته وحاشيته. ودخلنا الغرف المعهودة التي زاد زينتها السجّاد الثمين والوسادات ذات الألوان المزركشة، وقد عُلّق على جدرانها مجموعة من الساعات والبارومترات والترمومترات التي يحبّ جمعها صاحب الدار. وكانت الساعات سائرة بدقّة، وهي لا تقلّ عن اثنتي عشرة ساعة مختلفة الشكل والحجم.وجاء السيّد صالح يسامرني ويعتذر عن غياب السيّد العابد القسريّ، ووضعتُ

أمامي مائدة تصلح للملوك. وتنوّعت فيها أصناف الطعام والحلوى، وختمت بثلاثة أكواب من الشاي معطّرة بالعنبر وماء الورد والنعنع. وعدتُ الى دياري بعد انتهاء الوليمة، فلم أكّد أحضّر حوائجي وأتكلّم في أمر الجمال اللاّزمة للمرحلة الثانية، حتّى جاءني أحد العبيد يصحبني ثانيةً الى منزل السيّد العابد لتناول العشاء. فاستقبلني السيّد البسكري، ذلك الشيخ الوقور، مرتدياً جبّة ذهبية اللّون، وكان قد خلع عن رأسه طربوش البدو ولبس كوفيّة بيضاء من الحرير وعقالاً أخضر وذهبياً. وبعد أن انتهينا من تناول الطعام، دارت أكواب الشاي المعطّر وأُحرق البخّور. وهنا بدأت ساعات الغرف تدقّ أنغاماً مختلفة، فأغمضتُ عينيّ برهةُ وأحسّست أنّني في أوكسفورد، أسمع الدقّات المتنوعة تنبعث من أجراس الكليّات والكنائس. وخرجتُ في ضوء القمر، يحيط بي عبق ماء الورد ونثر البخور، فصعدتُ الى التلّ المشرف على مياه البحيرة، وتذكّرتء زيارتي الأولى عندما كانت الكُفرة هي هدف رحلتي السابقة، وفكّرتُ فيها وقد أصبحت اليوم بداية القسم الشيّق من رحلتي الثانية. ووقفتُ أسمع أصوات الإخوان ترتّل «حزباً» من القرآن الكريم في سكون اللّيل، فظهر عبد الله من بين الظلال ووقف الى جانبي، ثمّ قال بصوت خافت: «هذه اللّيلة تصادف النصف من شعبان، يحقّق الله فيها أمل من يدعوه». وظللنا واقفين صامتين لبضع دقائق، وكان وجهي صوب الجنوب الشرقي حيث تقع طرق غير مسلوكة وواحات مجهولة. ودار عبد الله بوجهه صوب الشمال الشرقي، حيث توجد مصر، وفيها أسرته وأولاده، ثمّ تمتم دعاءً خافتاً، ولم أكن بحاجة لأسأله لِم الدّعاء.

الإثنين 2 أبريل:

أخبرني بدو القافلة المسافرة من واداي، أثناء إقامتي في الهواري، أنّ فرقة فرنسيّة سارت شمالاً حتّى وصلت بئر سارة، سالكةُ في سيرها الطريق التجاريّة الأصليّة من واداي الى الكُفرة. وكانت هذه الطريق هي التي صمّمت على اتّخاذها منذ البداية، ولكنّه اتّضح لي أنّ الذي لم يُستكشف منها بعد هو الجزء الصغير الواقع بين سارة والكُفرة. وكنتُ قد سمعتُ قبل ذلك بعض حكايات غامضة عن واحات مجهولة في الطريق الجنوبي الذي خطر ببالي أن أستكشفه يوماً من الأيّام،على الرغم من علمي بأنّ الطريق المستقيم الى دارفور لم تطأه قدم بدويّ أو سوداني، لكثرة ما تخوّف الناس من وجود الصعاب والمخاطر فيه. وغيّرت قصّة الفرقة الفرنسية وجهة تفكيري صوب هذه الواحات، وفضّلت أن أسعى

لاكتشافها عن أن أتبع خطّتي الأصليّة.وكان عزمي من البداية أن أبذل قصارى جهدي في استكشاف الواحات المجهولة، حتّى إذا فشلتُ في ذلك، قطعتُ صحراء ليبيا سائراً في الطريق المعروفة، فاخترقت واجنجا ووادي ثمّ انحدرت جنوباً الى دارفور. وجاءني السيّد الزروالي وسليمان أبو مطاري يناقشانني في أمر السفر الى الجنوب، فكانت نصائح أبي مطاري غير مشجّعة، إذ قال لي: «إن آخر قافلة سلكت هذه الطريق منذ ثماني سنوات، وكان قائدها أخي محمود وذُبح أفرادها وقُطّعوا إرباً على حدود دارفور، على الرغم من أنّهم لم يسيروا في الطريق التي تريد اتّخاذها أنت الآن، بل سلكوا الطريق الأسهل من العوينات الى واحة مرجة (وهي واحة صغيرة على بعد 290 كيلومتراً من الجنوب الشرقي إلى العوينات). أمّا الرحلة التي تنوي القيام بها، فترمي بك في أصقاع لم تطأها قدم بدويّ من قبل. والرحلة بين العوينات وإردي بعيدة، شاقّة ومحفوفة بالمخاطر، وأعتقد أن جمالك ستسقط كالطيور في الطريق أمام ريح السموم الجنوبية. ولو افترضنا أنّك اجتزت تلك النواحي سالماً، فمن يدري كيف يعاملك سكّان تلالها الموحشة. ونصيحتي لك ألا تدع حماستك للسفر السريع تتغلّب على حكمتك، ما يمنعك اختيار الطريق الآمنة التي يتّخذها التجّار الى واجنجا (وابشة)».ولقد نصحني أبو مطاري بذلك رغبةً منه في عدم تعريض حياتي للخطر، فشكرته على نصائحه، ولكنّني كنتُ عازماً بشدّة على تنفيذ خطّتي.

وبعد تناول الغداء الذي قدّمه لنا السيّد العابد، ذهبتُ لزيارة ابنه السيّد شروفة، وهو شاب ذكيّجداً ويتوق لتحصيل العلوم. وقد سافر الى بنغازي، فاعتبر أنها من مدن العالم الفضلى على الرغم من صغر حجمها وقلّة انتشار المدنيّة فيها. واعتذر لي عن مرض أبيه، فعرضتُ عليه إرسال بعض الدواء الذي أرجو فيه الشفاء له.

الثلاثاء 3 أبريل:

كانت حرارة الجوّ شديدة والسماء ملبّدة بالغيوم، والريح تهبّ بقوّة من الجنوب الغربي. وذهبت بعد تناول الغداء كالعادة لزيارة السيّد شمس الدّين، ابن عمّ السيّد شروفة وزيارة أخيه الأصغر. وكان السيّد شمس الدّين رجلاً ذكيّاً، ذا عينين برّاقتين يتجلّى فيهما حبّ الإستطلاع. كما تبدو على أخيه الأصغر علامات النجابة والذكاء. فقدّم لي ثلاثة أكواب من اللّبن ولوزاً مقشوراً ومربّى، فأشبعتُ نفسي إكراماً لخاطر متضيفي، ولم

يمنعني ذلك من تناول العشاء في منزل السيّد العابد. وناقشنا مرّة أخرى خطّة السفر بطريق أركِنو والعوينات، فثبتُ أكثر على قراري، وانتظرتُ أبا حليقة بعد عودته من الهواري لاستشارته.

الأربعاء 4 أبريل:

أيقظني السيّد الجدّاوي في الصباح وأحضر لي إبريقاً من الشاي المعطّر، وأحضر لي أحمد أدوات الحلاقة، فشعرت بشيء من حياة المدن بعد أن كنتُ أمضيتُ فترة في الصحراء. ولستُ أخفي على القارئ أنّ هناك لحظات يشعر فيها الإنسان انه بحاجة بعض الشيء الى اللّجوء للمدن نظراً لأسباب الراحة التي تقدّمها. غير أنّ نفسه تطيب بالسفر الطويل في الصحراء أثناء السير، أكثر ممّا تطيب خلال فترة الإقامة في واحة من الواحات. ومضى الجزء الأوّل من النهار في تصغير أكثر الصناديق الخشبية، وفي ترتيب الحوائج من جديد، استعداداً للمرحلة الطويلة الى الجنوب. وكان لا بدّ من تحضير كلّ شيء بعناية شديدة، لأنّه لم يكن هناك أيّ مجال لاستبدال الجمال حتّى نصل الفاشر، وهي على بعد 1500 كيلومتر تقريباً. واهتممتُ بإحضار أخفاف جديدة لرجال القافلة لأنّ الأخفاف التي اشتريتها لهم في جالو قد بليت.وقبل الغداء، زارني بعض شيوخ زوي ليرحّبوا بي، وهم في الحقيقة مدفوعون بدافع الحشريّة والتشوق الى معرفة عدد القافلة وحوائجها، ولإستكشاف، ما أمكن، الخطط التي دبّرتها للسفر الى السودان.

وتناولتُ الغداء عند السيّد العابد كالعادة، وسرّني عندما أخبرني أنّ الدواء الذي قدّمته له قد أفاده. وأمضيتُ بعد ظهر اليوم في تهيئة الأسلحة والذخيرة، وخرجتُ أتمشى في المساء لتدوين بعض الملاحظات، بواسطة بوصلتي، عن النواحي المجاورة لبلدة التاج.

الخميس 5 أبريل:

كان الزروالي قد أطال في محادثة أبي حليقة الذي وصل أثناء الليل من الهواري. ورفض هذا الأخير تنفيذ فكرة السفر الى الفاشر عن طريق العوينات. وجاء لزيارتي محاولاً أن يدفعني الى السفر عن طريق واداي، ولكنّني بقيتُ مصرّاً على موقفي. ولم يعد لديه الأمل بإقناعي، لأنّني صرحّتُ له أنّ لا شيء يزعزعني عن تنفيذ رغبتي في السفر الى الفاشر عن طريق العوينات.ودار بيننا حديث قال أبو حليقة في أثنائه: «والله إنّها لطريق مخيفة، وكم

من قافلة اعتدى عليها سكان التلال الواقعة على طول تلك الطريق. إنّهم قوم لا يخشون الله ولا يخضعون لسلطة إنسان، وهم كالطيور يعيشون على قمم الجبال، ولا مفرّ لك من المواجهة معهم».فأجبته: «إنّنا رجال مؤمنون ندرك أنّ مصيرنا في يد الله، عزّ وجلّ، فإن شاء أن نموت، داهمنا الموت في طريقنا الى أقرب بئر».

فقال أبو حليقة: «كم من شيخ زويّ اختفى في تلك الأصقاع المجهولة. إنّ سكّانها خائنون لا يخافون الله ولا يخشون النّاس».

فقلتُ: «رحم الله من قضى في تلك البلاد من شيوخ الزويّ. إنّ حياتنا ليست أعزّ وأغلى من حياتهم، ولا يليق بنا أن نكون أقلّ منهم شجاعةً».

فأردف: «إنّ الماء في تلك الطريق نادر ورديء»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، فأجبته: «إنّ الله يُطفئ ظمأى المسلمين المؤمنين ويحمي بعنايته الصادقين من عباده».

وشعر أبو حليقة إنّني سأستفيض في مناقشته، فغيّر مجرى الحديث وقال: «ليس بين رجالي من يرضى مرافقتك في تلك الطريق، وليس بمقدوري أن أرمي بجمالي في تلك النواحي التي يداهمها الموت المحتوم، فإنّ وجدتَ من يؤجّرك جماله فإنّني مستعدّ لدفع الأجرة المطلوبة، ولكن رجالي وأنا لا نرضى بمرافقتك في تلك الطريق».

فأجبته منفعلاً: «افعل ما يحلو لك، لأنّني سائر الى الفاشر وسأسلك تلك الطريق، وسيكون الأمر بينك وبين السيّد إدريس حين يعلم أنّ أبي حليقة لم يحافظ على كلمته». وانتهت بيننا المناقشة وعلمت أنّ أبا حليقة قد دفع أصحاب الجمال في الكُفرة الى عدم القبول بمساعدتي في تنفيذ خطّتي، آملاً في ذلك أن أتراجع عن قراري وأسلك الطريق المألوفة. وانتهت أيّام الضيافة الثلاثة في دار السيّد العابد، فأرسل إليّ الغداء من دار السيّد الجدّاوي، وكيل السيّد إدريس في الكُفرة. وكان أبو حليقة على وشك الرحيل، ولكنّي دعوته الى مشاركتنا في تناول الغداء، فرفض آملاً منّي أن أغيّر خطّتي. أما أنا فكنتُ آمل أن أقنعه بأنّ الطريق لم تكن خطيرة الى الحدّ الذي تصوّره. وانتهينا من تناول أكواب الشاي

(1) سورة البقرة: 195

وافترقنا من دون أن ينجح أحد بإقناع الآخر، غير أنّني شعرت أنّ كلماتي الأخيرة كان لها تأثير شديد في نفسه. وجاءني بعد الظهر عبد السيّد العابد، يحمل إليّ رغبة سيّده في رؤيتي، وكنتُ ألّمح أنّ ليس هناك ضرورة ليكون على عجلة من أمره ليقابلني لأنني علمت أنه يشكو نقرساً[1] قاسياً، وإنّه من الصعب عليه أن ينزل لمقابلتي في غرفة الزائرين. ولكنّه لم يكن يريد أن يساورني الشكّ في عدم اتَباعه قواعد الضيافة بتأخير مقابلتي، فسمح لي بالرغم من تألّمه. وكانت المرّة الأولى التي رأيتُ فيها السيّد العابد في هذه السفرة، فعندما دخلتُ عليه شعرت أنّني أرى صورة حيّة لرسم راقٍ من رسوم ألف ليلة وليلة.

وكان يلبس قفطاناً من الحرير الأصفر، مطرّزاً بجدائل حمراء، وبرنس من الحرير الأبيض ملقى على كتفيه. وكان يلفّ رأسه بعمامة ناصعة بيضاء، التي تشير الى شيوخ الأسرة السنوسيّة. وأمسك في يده عصا غليظة، قبضتها من الفضّة. وكان يبدو على هيئته الوقار واللّطف، لا يشعر من رآه أنّه ذلك الفارس الباسل الذي تعرفه المواقع. وعندما اقتربتُ منه، كان يجلس على كرسيّ كبير، فحاول أن يقف لكنّني أسرعتُ إليه وأمسكت يده ورجوته ألا يكلّف نفسه القيام لي.

وكان يشكو كثيراً من داء النقرس، فبدأنا الحديث في أمر مرضه الذي لازمه سنوات طويلة، فقال: «إنّني أتضرّع الى الله، عندما تشتدّ عليّ وطأة المرض في بعض الليالي، أن يقصّر أيّامي في هذه الدنيا، لأننّي لا أستطيع أن أؤدّي الصلاة كما يجب عليّ. ومن ثمّ تحدّثنا في مسألة رحلتي الى السودان، فلاحظتُ من حديثه أنه يفضّل أن أسلك الطريق الصحيح التي تمرّ بواداي. فقلتُ له: «إنّ السيّد إدريس في مصر الآن، وأودّ أن أسرع للإنتهاء من رحلتي، والعودة الى وطني حتّى أردّ له بعضاً من معروفه، فيما لاقيتُ من كرم الأسرة السنوسيّة، ولا أستطيع تحقيق هذه الأمنية إلاّ عبر السفر الى السودان عن طريق العوينات لأنّها الطريق الأقصر».

فقال: «إنّك صديقٌ حميمٌ لنا، وأظنّ أنّ السيّد إدريس يفضّل أن تصل سالماً الى مصر، وإن تأخرّت عودتك».

فأجبته: «إنّ مصيرنا في يد الله، وإنّني أحمل معي مباركة شيوخ السنوسيّين». وكان في

(1) النِقرِس: ورم يحدث في مفاصل القدم، وخاصةً في ابهامها.

كلامي لهجة الأمر، ففكّر قليلاً ورفع رأسه وبسط كفّيه الى السماء، ثمّ قال: «وفّقك الله في مساعيك وأرجعك سالماً الى أهلك. لقد زرتُ قبر جدّنا في جغبوب ودخلتُ قبّة السيّد المهدي في الكُفرة، فنلتُ بركتهما، والله يكون في عون من آمن». وقرأ الفاتحة وباركني وتضرّع الى الله أن يسدّد خطاي، وأن يهبني ورجالي القوّة والعزيمة.

وتركته وسرتُ في أرجاء الدار وأنا أشعر في داخلي بسعادة عظيمة، وأراحني دعم السيّد العابد، وأنه لن يكون عقبة في طريق تنفيذ خطّتي الجديدة في السفر الى السودان. ودخلتُ داري فرأيتُ رجالي، وعلى وجوههم نظرة شوق شديد الى معرفة ما استقر عليه رأي السيّد العابد في أمر السفر. ودخلتُ الى غرفتي، ثمّ ناديتهم لأخبرهم عن شوقي الى النجاح الذي انتظرته. ومرّت برهة طويلة لازمتُ فيها السكوت، قبل أن أتمكّن من ضبط لهجتي وأظهر عدم الإهتمام بهذه المسألة الكبيرة. ثمّ فاجأتهم بقولي: «لقد بارك السيّد العابد رحلتنا الى العوينات، وقرأ الفاتحة راجياً من الله أن يوفّقنا». وأردفتُ قائلاً: «ولقد حلّت علينا بركة السنوسيّين وزادها السيّد العابد توثيقاً، وأرجو من الله أن يهدينا السبيل».

الفصل الرابع عشر
الكُفرة وموقعها على الخريطة

الجمعة 6 أبريل:

طلع الصباح، فنفحني أريج باقة من الورد تفضّل بإهدائها لي السيّد العابد، فعلمت عند شمّها كيف تعطي الصحراء أزهارها بما ينبع في الرياض النضرة من أوراق الأغصان. وكان يوم الجمعة، فأدّينا الصلاة في المسجد، وكان حضور أمراء السنوسيّين متوقّعاً. ودخل بعض البدو في أبهى ثيابهم، وغصّ المسجد بالمصلّين الذين امتزجت في صفوفهم قفاطين الحرير بالجرود المهلهلة. ووقفتُ أراقب الداخلين الى المسجد، فرأيتُ كبار تجّار الزويّ والمجابرة قد لبسوا الثياب الفاخرة ولمحتُ أعينهم المكحّلة وشممت رائحة الداخلين تعبق منهم رائحة ماء الورد المقطّر في الكُفرة أو المِسك وسائر الروائح العطرية من السودان.

ولفتني منظر الغنيّ الجليل عندما دخل مكانه بين المصلّين، وتبعه أعرابيّ مهلهل الجرد، أسمر الوجه ولكنّه لا يقلّ عن سابقه جلالاً. إنّ الملابس لا تميّز الرجال في تلك المحافل، فإنّ قيمة الرجل تقاس بشرف النفس وكبر القلب، وهذه الصفات تنطق في الجرود البالية بلسان أفصح ممّا تنطق به في ثياب الخزّ ونفحات الطيب التي قد تضيّع شيئاً من شخصيّة أصحابها. ويدخل أحد العبيد، وقد يكون العبد المفضّل لدى أحد السنوسيين وموضع ثقته، وتكون ثيابه الحريرية من بهاء اللون وجمال النسيج بحيث لا يظهر أنّه ينتمي الى الرقّ، أو من الوجهاء أو أحد الشحّاذين. فالغنيّ والفقير سواسية في المسجد، وربّما ثأر الفقراء لأنفسهم من الأغنياء في بيت الله الذي لا يهيمن فيه غيره، وشعروا بما يشعر به الأغنياء من العظمة أو حتّى يفوقوهم في هذا الشعور علماً منهم بأنّهم لا ينغمسون في ترف الحياة كي لا يلهيهم عن الله تعالى. وإنّ البدويّ يدخل المسجد في جرده المهلهل لأداء الصلاة، كما يدخل الغنيّ في أبهى ثيابه على شيوخ السنوسيّين.

وبعد إنتهاء المؤذّن من الصلاة، يستعدّ المصلّون ويسود الصمت، ويدخل أمراء السنوسيّين، فيأخذون أماكنهم الخاصة. وتلتفت اليهم الأنظار فيظهر عليهم حياء الشباب، ولا يقوم لهم أحد في المسجد إذ لا سيّد في بيت الله إلا الله وحده عزّ وجلّ. ثم يصعد الإمام المنبر ويلقي الخطبة التي تتفق في مغزاها مع سائر الخطب التي سمعتها قبل ذلك في صلاة الجمعة في مساجد الواحات التي كنتُ قد دخلتها. وتتضمن الخطبة النصائح بترك حياة الغرور والترف، والتهيؤ لأداء العمل الصالح للحياة السعيدة في الآخرة. فيقول الخطيب: «اتركوا زينة الحياة

الدنيا وترفها فإنّهما سبيل الى الخطيئة، وهما إن تملكّا نفوسكم ضللتم السبيل المستقيم وابتعدتم عن الله. تقرّبوا الى الله بالعمل الصالح وأطيعوا أوامره، فإنّ الحياة الدنيا فانية والآخرة أبقى، فاعملوا لآخرتكم لتسعدوا في دار الخلود».والمسجد من الداخل جميل البناء، وإن كان بسيطاً في بنائه، نظيف الجدران البيضاء، مفروش بالسجّاد والحصر الرقيقة. ويجلس المصلّون بخشوع في صفوف لا يقلّ عدد أفرادها عن مائتي مصلٍّ، يسبّح بعضهم بسبحات من حبّات الكهرمان، ويسبّح الفقراء الّذين لا يملكون سبحات عبر قبض الأصابع وبسطها. ومنهم من يظهر الغنى والثراء في جميع حركاته، ومنهم بدو الصحراء ذوو النظرات البعيدة التي يلوح فيها الهدوء والقناعة. ومنهم من تقلّص وجهه وشحب لونه، وفي هيئته الرضا بحكم الأقدار.

وجاءني سليمان أبو مطاري بعد إنتهائي من الغداء في منزل السيّد العابد، فتحادث معي في أمر الرحلة، وأخبرني أنّ أبا حليقة ومحمّد الذي اخترناه دليلاً قد تقابلا وتكلّما من جديد في هذه المسألة، ولم يزل أبو حليقة غير راضٍ عن الرحيل. وأمضى عبد الله ذلك اليوم في الجوف، يجمع ما يمكن جمعه من المعلومات عن طريق العوينات، ويجتهد في البحث عمّن يرضى بتأجير جماله من قبيلة التبو للسفر الى تلك الأصقاع الخطيرة. وتناولتُ العشاء في منزل السيّد العابد، ثم أمضيتُ بعض الوقت في مكتبة السيّد إدريس الذي أمر السيّد الجداوي بفتح أبوابها لي. وكانت هذه المكتبة عبارة عن غرفة متوسّطة الحجم، مليئة بالصناديق التي تحتوي على الكتب المختلفة، وسقفها مزيّن بالألوان الزاهية التي خطّتها يد رجل أحبّ الشعب السنوسيّ، وأتى من تونس ليقوم بهذا العمل، كما كان

يمضي المصوّرون والنحّاتون حياتهم في القرون الوسطى في تزيين الكنائس. وكان كلّ ما في الغرفة من الأخشاب قد تمّ استيراده من مصر أو بنغازي. وكان في الغرفة نافذة مفتوحة، ليس فيها إلا مصراعان من الخشب يبعدان عنها حرارة الشمس. والتنقّل في هذه الغرفة لم يكن أمراً سهلاً لما صُفّ على جدرانها وفي وسطها من الكتب والصناديق. وكانت في الغرفة صناديق قديمة تستخدم كخزائن، ويسهل حملها على ظهور الجمال عند الحاجة لما وضع في جوانبها من مقابض وحلقات. والمكتبة غير منظّمة بشكل كاف، فلقد تكدّست فيها الكتب بغير عناية، لأنّ السيّد إدريس هجرها لمدّة طويلة. وتحتوي على عدد كبير من المخطوطات المحفوظة في غلافات من الجلد جميلة الصنع، بالاضافة الى عدد هائل من الكتب الحديثة المطبوعة في مصر والهند. وتجدر الاشارة الى أنّ أكثر مخطوطات المكتبة استقدمت من مراكش والجزائر وتونس، وكلّ ما فيها مكتوب باللغة العربية باستثناء القليل منها المكتوب بالفارسية. كما تجد من بين المخطوطات بعض نسخ من القرآن الكريم المزّين بالذهب.وفي الواقع، كنتُ محظوظاً أكثر من سائر الناس في زيارتي لهذه المكتبة، لأنّ الدخول إليها غير مباح. ووجدتُ فيها مخطوطات كثيرة تناولت موضوع الرقّ وعلوم الفلسفة واللّغة العربية والفقه والتصوّف والشعر وعلم النجوم والكواكب. وأمضيتُ ساعات طويلة أمتّع نفسي بتصفّح هذه المجموعة القيّمة، وأنعم بذلك الجوّ الهادئ البعيد عن العالم، والتقرّب من الله عزّ وجلّ، لما يحيط بي من السكينة والانقطاع عن ضجيج المدن حيث يكفي أن تسمع صوت التلفون يرنّ وأنتَ تقرأ هذه الكتب، ليشعرك بقدم عهدها وعدم تماشيها مع الحاضر.

السبت 7 أبريل:

تلقيّتُ من السيّد شروفة هديّة عبارة عن حذاء جميل. وزارني بعض شيوخ الزويّ، فتحادثنا عند شرب الشاي في تاريخ قبيلتهم، وعرفتُ من الحديث أنّهم لم يكونوا أوّل الفاتحين للكفرة، وإنّما سبقهم الى أخذها من قبائل التبو قبيلتا الجوازي والجهمة. والجدير بالذكر أن اسمي «الطلاب» و»الزرّق»، وهما قريتان من قرى الكُفرة، هما اسمان لبعض أسر قبيلة الجهمة. وأعطيتء كلاً منهما صورة للجماعة التي صوّرتها قبل ذلك بأيّام، ففرحوا بها كثيراً.وفي ذلك اليوم، تحقّقت من أخطار الكُفرة، فقد أضاع رولفس حياته فيها، وكدتُ أضيّع حياتي أنا أيضاً، ضحيّة الضيافة باللّطف واللّين. فقد تناولت الغداء

كعادتي عند السيّد العابد في ذلك اليوم، وشربتُ بعدها الشاي المعطّر واللبن المخلوط باللوز. وخرجت فأصرّ السيّد شروفة على أن أزوره في داره، وقدّم لي ثلاثة أكواب من الشاي المعطّر وثلاثة أكواب من اللّبن المخلوط باللّوز. ولم أتمكّن من الرفض لأنّ في ذلك إهانة لربّ الدار، فابتلعتُ ما في هذه الأكواب رغم ما كنتُ أحسّ به من تقزّز عند شربها.ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، فقد اصطحبني السيّد شمس الدين الى داره، ووضع أمامي الكثير من البسكويت والبندق وكوباً كبيراً من الشراب المحلّى، ودعاني للأكل. ومرّة أخرى، لم يكن بوسعي أن أرفض، فأكلتُ ما قدّمه إليّ السيّد شمس الدين وشربتُ ثلاثة أكواب من الشاي. ثمّ قمتُ أترنّح في مشيتي، كما يتقدّم الشهيد الى المشنقة فخوراً، وأتلوّى من ألم التخمة. ودخلتُ الى غرفتي لأستريح وأستعرض ما مرّ بي، وفكّرتُ في أمر ذلك البدوي الذي اختار رقم ثلاثة لإظهار الكرم البدوي، ووددتُ لو أنّه مات قبل أن يبتدع هذا العُرف، ثمّ عدتُ وشكرتُ الله لأنّه لم يقع اختياره على الرقم سبعة مثلاً. وقد أتيتُ الى الصحراء معرّضاً نفسي لفتك الطبيعة أو البدو، ولم تخطر ببالي لحظةً فكرة الموت الذي يسبّبه سوء الهضم والأكل فوق طاقة المعدّة. وعلى الرغم من كلّ ذلك، فقد ذهبتُ في الموعد المحدّد الى دار السيّد العابد لتناول العشاء كالعادة. وكان بين المدعوين بعض شيوخ البدو، فتناقشنا مرّة أخرى في مسألة الرحلة الى الجنوب. وكان أبو حليقة مصرّاً على رفضه الذهاب عبر طريق العوينات. وقد قال: «إنّ الشروط التي وضعها السيّد إدريس تتناول رحلة الى واداي لا الى دارفور». وبالتالي أبى أن يرمي برجاله وجماله في تلك الطريق غير الآمنة.

أمّا أنا، فقد أدليتُ بحجّتي كما يفعل المحامي، فقلتُ له: «في حين أنّك اتّفقت معي على قطع 35 مرحلة من الكُفرة الى الجنوب، فلا يجدر أن يكون هناك أيّ فرق في ما إذا شملت هذه المراحل الذهاب الى واداي أو الى الفاشر أو أطلب منك العودة الى مصر». غير أنّ حججي لم تقنع أبا حليقة، ولكنّه رأى إصراري وعدم معارضة السيّد العابد لخطّتي، وعلم برغبتي في تقليص عدد الجمال المتّفق عليه، فأبدى موافقته، غير أنّه ظلّ متردّداً. بيد أنّه رفض أن يرافقني بنفسه أو يرسل معي أحد رجاله.

الأحد 8 أبريل:

تكلّمتُ مع أبي حليقة في أمر جواده واشتريته بمبلغ 33 جنيهاً ذهباً. وكان الجواد قويّاً، صبوراً على السفر، يكفيه الشرب مرّة كلّ يومين. وبعد الغداء، التقطتُ صورة للسيّد العابد وحادثته طويلاً في أمر مرضه الذي يتحمّله بصبر البدو وجلدهم، كما تكلّمنا في شؤون برقة ومصر، وذكرنا مسألة رحلتي الى السودان. ولم أكن موفّقاً في أعمالي الفنية في الكُفرة، فلقد وجدتُ صعوبة كبيرة في إبعاد الأنظار عنّي، والتنقّل وحيداً في نواحي واداي لإستعمال أجهزتي بدون إثارة الشكوك. وكان من سوء حظّي أنّ السماء ظلّت كثيرة الغيوم خلال أيّام إقامتي، فلم أتمكّن من رصد الشمس والنجوم بواسطة التيودوليت. وبعد العشاء، شعرتُ بتعب شديد، وكنتُ قد استنفدتُ الأقراص التي حملتها معي لمكافحة سوء الهضم، وانتظرتُ بفارغ الصبر خروجي الى الصحراء وتمتّعي ببساطة العيش.

الإثنين 9 أبريل:

كانت السماء ملبّدة بالغيوم، ولكن النسيم كان يهب عليلاً طوال النهار. فأمضيتُ يوماً هادئاً، أقرأ في مكتبة السيّد إدريس، وأحمّض أفلاماً جديدة، واشتريتُ قرباً وشعيراً للرحلة. وأهداني السيّد العابد نسخاً بخطّ يده لبعض رسائل السيّد المهدي الى كثير من الإخوان، وأهداني سكّيناً مغربية في غمدٍ من الفضة، وبندقية مطعّمة ذات صمام أمان من الصوّان.

الثلاثاء 10 أبريل:

انقشعت الغيوم بعد الظهر فالتقطت صورة للوادي، واتّفقت مع صانع الأحذية على صنع أحذية لي ولرجالي، وأحزمة من الجلد لوضع الرصاص، لأنّ الرجال أصرّوا على حملها لكثرة ما سمعوا من الشائعات المخيفة. وقابلتُ محمّد سكر الذي اخترته ليكون دليلنا في طريق العوينات لأوّل مرّة.

الأربعاء 11 أبريل:

سمع السيّد العابد أنّني اشتريتُ الجواد، فأهداني سيفاً يعود الى «الطوارق» وبندقية إيطالية. وتمكّنت أخيراً من القيام ببعض الأرصاد والأبحاث بواسطة التيودوليت. وكنتُ في شوق شديد الى مقارنة نتائج بحثي بنتائج الرحّالة الألماني رولفس Rohlfs الذي زار الكُفرة منذ 45 سنة.

الخميس 12 أبريل:

أرسلت الى دار السيّد العابد لأهديه بندقيّتي، وركبتُ مع السيّد محمّد أبي ثمانية والسيّد الزروالي متوجّهين الى الجوف، فقابلنا وجهاء المدينة. وزرتُ السوق الذي يُقام مرّة كلّ أسبوع. الى جانب ذلك، زرتُ الجامع والزاوية، وهي أقدم مدارس السنوسيّين في الكُفرة. أمّا الجوف فهو مركز تجارة الكُفرة، وتحمسّتُ لرؤية ما يعرض السوق من البضائع من «خراطيش» تدلّ علامتها على صنعها منذ 30 سنة، وعلب من التوابل الإيطالية المستوردة من بنغازي، وأقمشة منسوجة في مانشستر ومستوردة من مصر، وجلوداً وعاجاً وريش نعام من واداي ودارفور. وتجدر الاشارة الى أن منتجات الجنوب قليلة في الكُفرة الآن، إلا إذا أحضرها أحد التجار من واداي، ومنعه سبب ما من السفر بها الى الشمال لبيعها في برقة أو مصر.

ولم تكن التجارة تزدهر الى حدّ كبير في الكُفرة إلا قبل فتح السودان، فإنّ طريق الكُفرة في تلك الأيّام كانت أسهل لحمل محاصيل واداي ودارفور من الطريق التي تصل الى الشرق. ولا يزال، الى يومنا هذا، يمرّ بطريق التهريب عاج أنثى الفيل والعاج الذي يقلّ وزنه عن 14 رطلاً، وقد منعت حكومة السودان تصدير هاتين السلعتين.ولا تشكّل الكُفرة طريقاً للتجارة فحسب، بل يقصدها من يملك العبيد من شيوخ الزوي لفلاحة الأرض، فيزرعون الشعير والذرة. ويزرع السنوسيّون البطيخ والعنب والموز والقرع وأنواعاً مختلفة من الخضر التي يسرّ السائح رؤيتها ويتلذّذ بطعمها بعد أن يكون قد أمضى أيّاماً في الصحراء. بالاضافة الى ذلك، يقوم السنوسيّون بزرع النعناع والورد، فيستخرجون منهما ماء الورد وخلاصة النعناع الضروريّين في إظهار كرم الضيافة. ويستخرج الزيت من أشجار الزيتون بواسطة معاصر قديمة.أمّا حيوانات الكُفرة فهي الجمال والخراف والحمير والبعض من الأحصنة. وعلى الرغم من ذلك، يظلّ سعر اللّحم مرتفعاً، لعدم وجود المراعي في الوادي. وتأكل الحيوانات البلح المطحون، وهو غذاء صالح إلاّ أنّه لا بدّ من إطعامها حشيشاً من وقت لآخر. ويربّي السنوسيّون، وهم أكثر تقدّماً من جيرانهم في كلّ المجالات، الدجاج والحمام. وفي الكُفرة، سمعتُ أنّ أثمان العبيد ارتفعت بشكل هائل في السنوات الأخيرة لقلّة من يأتي منهم من جهات واداي، نظراً للمراقبة الشديدة للسلطات الفرنسية في تلك

الجهات. ويحتال بعض البدو لاستجلاب العبيد، فيتزوّجون من بنات واداي، ثمّ يعودون بهنّ الى الكُفرة فيطلقونهن ويبيعونهن.

وقد عُرضت عليّ جارية أثناء الجولة السياحية التي قمتُ بها في العام 1916، مقابل مبلغ 120 فرنكاً، في حين أنّ ثمن الجارية يتراوح الآن بين 30 و40 جنيهاً، وثمن العبد أقلّ من ذلك.

وقد يتزوّج البدو من هؤلاء الجواري، فإذا أنجبت إحداهنّ ولداً أصبحت حرّة طليقة. والبدو لا يهتّمون بفارق لون البشرة، فإذا ولدت جارية لشيخ قبيلة ولده البكر، فإنّ هذا الولد يصبح بحكم الواقع رئيساً لهذه القبيلة بعد أبيه، مهما كان أسود اللّون.

وبالتالي، أبناء العبيد هم عبيد كذلك. أمّا ابن الجارية من رجل حرّ فهو حرّ كذلك، مهما كان فقيراً، ولا يكون عبداً حتّى لو كان يتيم الأب. ويفضّل البدوي اقتناء العبد المخلص، فإنّ العبيد أقوى من الأحرار وأكثر صوناً وكتماناً لسرّ سيّدهم، وهم يعاملون معاملة حسنة ويصبحون أفراداً من الأسرة بعد طول العِشرة. ويرتدي العبيد ثياباً فاخرة لأنّهم يعكسون صورة أسيادهم. وليس علي كجا، عبد السيّد إدريس الصفي، موضع ثقته فحسب، ولكنّ يتمتّع أيضاً بقوّة وسيطرة لا يملكهما الكثيرون من أحرار البدو.

والعبد صادق الكلمة. فعندما حمل السيّد العابد رسالة إليّ مع عبده، أدركت أنّها صادقة وصحيحة حيث إنّ واجب العبد يقضي عليه بتبليغ ما حمّله إيّاه سيّده. وكذلك، إذا أردت أن أقول للسيّد العابد أمراً ما ولا أريد إطلاع رجل آخر عليه، أخبرته الى عبده من دون تردّد، موقناً أن الرسالة لا بدّ أن تصل الى سيّده دون غيره.وللعبد الحقّ في شراء جارية، وقد سألت علي كجا ذات مرّة عن أثمان العبيد، فقال: «إنّ أثمانهم ارتفعت هذه الأيّام كثيراً، فقد اشتريتُ جارية ودفعتُ بالمقابل 40 جنيهاً ذهباً». وقد قال لي ذلك بلهجة لا يستشفّ منها أنّه كان عبداً في يوم من الأيّام. وثياب العبيد المحررين في الواحة هي الأرثّ من بين ثياب العبيد الآخرين، وهم موضع ازدراء بقيّة العبيد. وقد يشعر العبد الطليق بالخجل لعدم وجوده في مرتبة إنسان.وتكثر أشجار النخيل في وادي الكُفرة، ومعظمها ملك للسنوسيّين. ويعود السبب في ذلك الى أن الزويّ، حين دعوا سيدي محمد بن علي السنوسيّ الى الكُفرة، تنازلوا للسنوسيّين عن ثلث ما يمتلكون من أرض ونخيل. ولم تبقَ النسبة قائمة بين ما يملكه الزويّ من النخيل وبين ما يمكله السنوسيون، لأن الزويّ سارعوا إلى زيادة زراعة النخيل.

ولا يزال الى يومنا هذا يظهر ذلك السور الذي يفصل أراضي السنوسيّين عن أراضي الزويّ. ورأيتُ، في طريق عودتنا من الجوف، حفلة زفاف، وكان العريس قائد جيوش الكُفرة. ودعاني أبو العروس الى تفريغ البارود تشريفاً للحفلة، فسرّني أن أقوم بتأدية هذا الواجب للضابط لأنّه صديق قديم لي. ولمّا أطلق رجال الحفلة النار تحيّةً، انطلقتُ سريعاً بجوادي كما يفعل البدوي الأصيل، واتّجهت صوب الجماعة ثمّ أوقفته دفعة واحدة أمام العروس، وصوّبتُ بندقيّتي الى الأرض أمامها، ثمّ أطلقت النار. وقد أدهشني جوادي بركة حين سمع طلقات بنادقهم وأسرع بالعدو، ووقف بي مرّة واحدة على المسافة المحدّدة من العروس لإطلاق النار. ولكن لا عجب في ذلك، فهذا شيء تدرّيت عليه خيول البدو.

الجمعة 13 أبريل:

جاءني عبد من عبيد السيّد إدريس يطلب دواءً لمرض عانى منه شهرين، وفحصته فلاحظتُ أنّه يشكو من سوء هضم ومن التقيّؤ. فأعطيته بعض «الإتير» على قطعة من السكّر، وأمرته أن لا يتناول إلاّ اللّبن والأرز، الأمر الذي ساهم بتحسن حالته.

ووصل أبو حليقة من الهواري ومعه 17 جملاً، في حين أنّني طلبتُ منه أن يجلب خمسةًوعشرين جملاً، كما اتّفقنا من قبل. وزارني الضابط العريس وصهره ليشكراني على التحية التي أدّيتها في حفل الزفاف.

السبت 14 أبريل:

أحضر أبو حليقة بقيّة الجمال وكان حائراً في أمر إرسال رجل ليصطحبنا في الرحلة، وأبى أن يرسل ابنه أو عبده، اعتقاداً منه أنّنا مقبلون على سفر قد لا نخرج منه أحياء. وفي الوقت عينه، كان يتوقّع أنّ القدر قد يساعدنا وننجو من مخاطر الطريق، ففكّر حائراً أنه إذا لم يمثّله أحد في تلك الأصقاع النائية، فكيف يعود بجماله أو يشرف على بيعها كما هي العادة بعد انتهاء مثل هذا السفر الطويل. وأمضينا عصر اليوم في التحميل، وقمنا مساءً بعمل الأرصاد والمعاينات.

وكانت الليلة الثالثة التي أمكنني فيها أن أرى نجم القطب الشمالي، وذلك منذ مجيئي الى الكُفرة. وقد صمّمتُ ألا أترك الكُفرة قبل أن أضاعف ما أخذت من الملاحظات المتنوّعة في الليالي السابقة.

الأحد 15 أبريل:

أمضينا الصباح في تحميل الجمال وما زال أبو حليقة مرتبكاً في أمر إرساله رجلاً من رجاله، ولكنّني لم أهتمّ لأمره كثيراً بعد أن عرفتُ أنّني سأصطحب الجمال. وكانت قد تحسّنت صحّة العبد الذي عالجته تحسناً عجيباً، فجاء يشكرني. وكنتُ أشدّ الناس عجباً مما توصلّتُ إليه في أمر معالجته.وبدأت القافلة السير عند الساعة الثانية من بعد الظهر، متوجّهةً الى بئر العزيلة، وهي آخر آبار وادي الكُفرة في جغبوب، حيث قرّرنا الإقامة أيّاماً لإجراء الترتيبات اللاّزمة، قبل الإقدام على تلك الرحلة الطويلة. واشتريتُ نعجتين لنحرهما، وفقاً لعادة «أبي الظفر» لأنّه لم يكن بين رجال القافلة من قام بهذه الرحلة من قبل. وكان جميع رجالي يرتدون ثياباً جديدة، وكانت بنادقهم، التي أتقنوا تنظيفها، تلمع فوق ظهورهم، ويبدو النشاط والقوّة على معظم جمالنا الجديدة.

الإثنين 16 أبريل:

أرسلتُ جوادي مع عبد الله الى الجوف لوضع «حدوات» جديدة له، لأنّ الأرض كانت صخرية صلبة ويُخشى أن تؤذيه. وأرسلت صينيّة نحاسيّة الى القائد، هديّةً منَي بمناسبة زواجه، وتركت الزجاجات الأخيرة من دواء «بوفريل» لعبد السيّد إدريس. وأجّلنا سفرنا لأنّ الدليل كان منشغلاً بجملٍ كان يملكه.

الثلاثاء 17 أبريل:

تناولتُ الفطور في دار سليمان بو مطاري، وهو من كبار تجّار الزويّ بالكُفرة مشهورٌ بالكرم، وكان معنا السيّد الزروالي وعبد الله والقومندان وصالح ومحمّد أبو ثمانية. وقد تبادلنا النّكات حول العريس الجديد لإمتناعه عن أكل طبق من اللّحم المطبوخ بالبصل. وقال أبو ثمانية، وهو يغمز بعينيه: «إنَ زوجته لا تسامحه إذا شمّت فيه رائحة البصل». واشتريتُ جملاً هجيناً لي ودفعتُ فيه تسعة جنيهات. وهكذا انتهى كلّ شيء وأصبحنا على أتمّ الاستعداد للسير.

وكنتُ أرجو، وأنا أرصد نجم القطب للمرّة الأخيرة، أن أوفّق في تعيين الموقع الحقيقيّ للكفرة على الخريطة. وكان شوقي شديداً للتحقّق من الموقع الذي عيّنه رولفس حسب ملاحظات رفيقه « ستيكر » في بويمة. ولم تكن التاج قد بُنيت بعد في عهد رولف، فاتّضح

لي، بعد أن دوّنتُ ملاحظتي الأولى فيها، أن النتائج التي توصّلتُ اليها لا تتطابق مع نتائج ملاحظات «ستيكر» في بويمة الواقعة على بعد كيلومترين من التاج، في اتَجاه 54 درجة شرق الجنوب. ولذلك صمّمتُ ألا أترك الكُفرة قبل أن أتمكّن من تدوين ملاحظات عديدة ودقيقة. وبالتالي رصدتُ النجم القطبي ستّ مرّات بواسطة التيودوليت، في ظلّ ظروف معيّنة، قام الدكتور بول في فقرته المرفقة بهذا الكتاب بتوضيحها كي لا تترك مجالاً للخطأ أكثر من دقيقة واحدة في خطّ الطول والعرض. وكانت نتيجة هذه الأبحاث، عند الإنتهاء من التأكّد منها بعد عودتي الى مصر، أنّ الكُفرة تبعد 45 كيلومتراً من جهة الجنوب الشرقي عن الموقع الذي قد حدّده رولف، بعد ملاحظات «ستيكر». ووجدتُ ارتفاع الكُفرة متطابقاً إلى حدّ بعيد مع الارتفاع الذي حدّده رولفس، وكان علوّ وادي بويمة يبلغ 400 متر وارتفاع التاج 475 متراً عند التلّة المشرفة على الوادي.

الفصل الخامس عشر
الواحتان المفقودتان
أركِنو والعوينات

الأربعاء 18 أبريل:

وجد أبو حليقة في آخر الأمر رجلين يصحبان جماله وهما بوكارة وحامد، وكانا فقيرين أغواهما المال فأنساهما الخطر. وأرسل السيّد العابد ثلاثة مثّلوه في وداعنا، وقد أحضروا لي خطاب الوداع، كان له تأثير عميق في نفسي. وجاء أبو حليقة يودّعنا كذلك، وكانت عيناه دامعتين، ولا أظن أنّ ذلك كان إشفاقاً منه على جماله أو رجُليه، فإنّه على الرغم مما حصل بيننا من خلاف في الرأي ظللنا صديقين مخلصين، يحب كلّ منّا الآخر ويحترمه.

وجاء أصدقاء رجالي لوداعهم، فكان الموقف حرجاً للغاية وكأنّ ذلك الوداع كان الأخير. وكان ذلك الوداع الأكثر حرارة وتأثّراً الذي رأيته في رحلتنا. وكانت كلمات الوداع الأخيرة: «رافقتكم السلامة، المقدّر لا بدّ من وقوعه، هداكم الله سواء السبيل وحماكم من كلّ مكروه». ولم يكن ذلك الوداع ممّا يشعر قلوب المقيمين والمسافرين بأمل اللّقاء أو الأمل بالعودة الآمنة بعد قضاء عطلة طويلة. وكان في جُمل الوداع الأخيرة المتبادلة بين الفريقين بعضٌ من الارتعاش، الأمر الذي جعلني أتكهّن بما يجول في خواطر الرجال، لعلمي بما حدث في الأيّام السابقة للسفر، ويقيني من الخوف الّذي تملّكهم أجمعين.

وكانت أفكاري وأفكارهم في ذلك الموقف متباينة، فكنتُ أميل إلى التفكير في الواحات المجهولة، والسير في الطريق الصحيح، والاندفاع صوب المجهول. أمّا هم فكانوا يظنّون أنّ هذه آخر مرّة يشدّون فيها على أيدي أصدقائهم، وقد ارتسمت ملامح

الإشفاق على وجوه بعض من جاؤوا يودّعوننا، كأنّما كتب على وجوهنا الموت وارتسم على جباهنا الفناء. ولكنّهم كأهل البادية كانوا يشعرون بأنّ ذلك الرحيل كان مكتوباً في كتاب القدر. وقرأنا الفاتحة، ثمّ أردفها أحد الرجال بالأذان.

وصحبنا المودّعون حتّى حافة الوادي الّتي تنتهي عندها الواحة وتمتدّ الصحراء، ثمّ تركونا غير ملتفتين الى الوراء، فانحدرنا إلى الصحراء المنبسطة. وتلفتت أعيننا إلى أشجار النخيل، وكانت الشمس تجنح للغروب، والغسق ينشر غلالته على الكُفرة الّتي أخذت تختفي شيئاً فشيئاً في ذلك «المدى» الذي بدأ ينطفئ، وكأنّنا ننظر إلى المدينة في مرقاب آلة تصوير.

وكنت أتوق إلى الابتعاد عن الكُفرة حتّى يمّحي شبحها من أعين الرجال، فينسون وداعها الماضي ويفكّرون في المستقبل، ويفرغون للقيام بواجبات السفر. واختفت الكُفرة، فانبسط أمامي المجهول المملوء أسراراً وسحراً، يتصوّرهما الفكر في كلّ بقعة من أرض، لم تطأها قدم غريب عنها. وبدأنا السير عند الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر وتوقفّنا عن السير عند الساعة الثامنة والربع. وقطعنا 15 كيلومتراً. وكان الجو صحواً جميلاً ولا رياح فيه، والأرض رملية صلبة قليلة التموّج، مغطّاة بحصى صغيرة.

وتركنا نخيل العزيلة والكُفرة، فاجتزنا منطقة من الحطب تشابه منطقة زيغن، ودخلنا السريرة[1] عند الساعة السادسة إلا ربعاً. وفي الساعة السادسة والنصف، مررنا بتلال تمتدّ على الجانب الجنوبي لوادي الكُفرة، وعند الثامنة إلا ربعاً وصلنا حطية الحويش كثيرة الحطب، وكنّا قد تركنا وراءنا رجلين لجلب أحمال كان من المقرر ان توضع على ظهور جمال التبو.

وكانت قافلتنا مؤلّفة من 27 جملاً و19 شخصاً: أنا والسيّد الزروالي وعبد الله وأحمد وحمد وإسماعيل والسنوسي أبي حسن والسنوسي أبي جابر وحمد الزويّ وسعد الأوجلي وفرج العبد وبوكارة وأخيه الأصغر وحامد الجمّال وحسن ومحمّد الدليل وثلاثة من عبيد التبو.

الخميس 19 أبريل:

سرنا في الساعة الثانية إلا ربعاً بعد الظهر وتوقفنا في الساعة السابعة والربع مساءً، وقطعنا 24 كيلومتراً. وكانت أعلى درجة للحرارة 32 وأقلّها 11. الجوّ صحو جميل قليل السحاب، والنسيم هابٌّ من الجنوب الشرقي، قارّ عند الظهيرة. ودخلنا السريرة[1] مرّة اخرى بعد اجتياز حطب الحويش، وكانت منبسطة صلبة الرمال مغطاة بحصى دقيق، وكان شرق الحطيّة سلسلة من التلال الرملية المغطّاة بحجارة قائمة، يقابلها مثلها من جهة الغرب على بعد أربعة كيلومترات.

وعند الساعة الثانية والربع وصلنا إلى نهاية حطيّة الحويش، وكان عرضها كيلومترين. وعند الساعة الرابعة إلا ربعاً رأينا جارّة[2] على بعد كيلومترين من اليسار. وفي الساعة الخامسة رأينا جارة أخرى، على بعد أربعة كيلومترات من اليمين. وفي الساعة السادسة أصبح الرمل أكثر نعومة، تتناثر عليه أكوام من الحجارة السوداء، وكانت أرض الصحراء متجعّدة. وقد تأخّر رحيلنا لانتظار الجملين اللّذين خلّفناهما، فأمضينا وقتاً في جمع الحطب. وكان الجوّ شديد الحرّ، ما تسبّب بتعب الجمال سريعاً. والجدير بالذكر أن هذه الأرض مشابهة للمسافة الواقعة بين بوالطفل وزيغن. وقد أمكنني، بفضل جملي الهجين، أن أتأخّر عن القافلة فأقوم بتدوين بعض الملاحظات، من دون أن أثير سوء ظن رفقائي في ما أفعل. واضطررنا أن نحطّ الرحال في ساعة مبكّرة، نظراً لحال الجمال.

الجمعة 20 أبريل:

إستيقظنا عند الساعة الثانية صباحاً وتوقفّنا عن السير عند منتصف الساعة العاشرة صباحاً، ثمّ عاودنا سيرنا عند الساعة الثالثة والنصف وانتهينا من السير الساعة الثامنة، فكان ما قطعناه 48 كيلومتراً. بلغت درجة الحرارة أقصاها 32 وأدناها 10، وذلك بعد منتصف الليل بنصف ساعة. وكان الجوّ صحواً جميلاً، وهبّت رياح باردة من الجنوب الشرقي في الصباح، غير أنّها ما لبثت أن هدأت عند الظهر وهبّت ثانية عند الساعة الرابعة، وفي المساء تغيّر اتّجاهها إلى الشمال الشرقي.

(1) السريرة: اسم ذلك المكان، وهي مأخوذة من السراء: البطحاء. (المترجم)

(2) الجارّة (بتشديد الراء): مسيل الماء أو الطريق المؤدي إليه: والجارة (بالتخفيف): نوع من النبات، وهذا هو المقصود (المترجم)

وفي الساعة الرابعة اخترقنا جهة متعرجة مليئة بالحجارة. وعند الساعة السادسة دخلنا السريرة مرّة أخرى فانبسطت الأرض، وظهرت الشمس عند الساعة السادسة فرأينا من اليمين واليسار تلالاً رمليّة تبعد عنّا من 10 إلى 12 كيلومتراً. ورأيت خُطّافاً في الصباح وصقراً عند العصر. وعند الساعة الرابعة والثلث قطعنا أكواماً منخفضة من الرمل، ورأينا جارة سوداء ممتدّة قليلة الارتفاع على بعد 10 درجات من الجنوب الشرقي. وكانت هذه المرحلة أسوأ مراحل السفر لاشتداد الحرّ والبرد، فقد زاد الحرّ ظهراً حتّى أعاقنا عن السير. واشتدّ البرد في الليل فصعب علينا السير كذلك. ولذلك قسّمنا المرحلة الى جزءين، فكنّا نبدأ السير بعد منتصف الليل ونستريح في حمّارة القيظ، وضايقنا ذلك لعدم تمكنّنا من إتقان حزم الحوائج في الظلام. وتحسّنت حال الجمال اليوم، وكان رابع أيّام الشهر العربي، والبدو يقيسون الجوّ وفقَ ذلك اليوم معتقدين أنّ جوّ بقيّة أيّام الشهر يطابق جوّه، وقد صدق القياس هذه المرّة.

السبت 21 أبريل:

إستيقظنا عند الساعة الثانية والنصف صباحاً، وعند الساعة السادسة دخلنا جهة صخرية امتدّت بنا إلى مسافة 12 كيلومتراً، واجتزنا إلى اليسار جارة كودى ودخلنا السريرة عند الساعة التاسعة، تلفّنا عن بعد تلال الرمل، من اليمين ومن اليسار.

ومرض أحد الجمال عقب بدئنا في السير ورفض أن يستمرّ في سيره، على الرغم من رفع أثقاله. وتركنا بدويّين ليداوياه، ولكنّ مساعينا ذهبت سدًى، فاضطررنا إلى ذبحه. وحظّرت على البدو أن يأكلوا لحمه. إلا أن اثنين من التبو انتهزا فرصة توقفّنا عن السير ظهراً ورفع الأحمال عن جمليهما، ثمّ رجعا لتجفيف لحم الجمل وتركه حتّى يعودا من العوينات، فأدّى ذبح الجمل وانتظار العبدين الى تأخرنا ساعة كاملة.

ولم ينم رجالي الليلة السالفة إلا قليلاً، وظهر عليهم التعب بعد شروق الشمس. ولكنّ الّذي أنهك قوى الرجال والجمال لم يكن في الحقيقة إلا اشتداد الحرارة بين الظهر والساعة الرابعة. وبدأنا السير من جديد عند الساعة الرابعة ونصف من بعد الظهر، وكلّ أفراد القافلة متعبون بطيئو الخطوات. ورأيت صقرين ومراقد حديثة للطير فوق الرمال.

الأحد 22 أبريل:

سرنا في أرض منبسطة رمالها صلبة، كنا نعثر فيها من وقت إلى آخر على بعض التلال الرملية المغطاة بالصخور السوداء الّتي يراوح ارتفاعها بين ثلاثة أمتار وعشرة. وفي الساعة الخامسة والنصف فجراً، رأينا سلسلة من التلال على يسارنا تقطع سبيلنا في امتدادها من الشمال إلى الجنوب الغربي، وعند الساعة الثامنة دخلنا أرضاً جميلة، سرنا فيها طوال اليوم، وعثرنا فيها على بيض نعام مهشّم. وكان يطلق على هذه المنطقة اسم «وادي المراحيج».

وقد أتقنّا تحميل جمالنا ذلك اليوم ولكنّ الرجال ما زالوا مجهدين، وقد تأخّر كثيرون عن القافلة للاستفادة من نصف ساعة نوم، ثمّ ما لبثوا أن لحقوا بنا عند استيقاظهم. وأحضر لي بوكارة نسرين صغيرين، استطاع التقاطهما من عشّهما في قمّة جارة، فأمرته أن يرجعهما وتأكّدتُ من ذلك بنفسي.

ومرض جملي الهجين فاضطرني إلى رفع حمله وسرجه طوال بعد ظهر اليوم. وحططنا الرحال عند الظهر فنام رجالي ملء جفونهم. ولم يرقني هذا النوع من السفر الممل، ولكن كنّا في مطلق الأحوال مثابرين على السير.

الإثنين 23 أبريل:

إستيقظنا عند الساعة الثانية والنصف صباحاً وتوقّفنا عن السير عند الساعة التاسعة والربع صباحاً. وعاودنا السير من جديد عند الساعة الرابعة إلا ربعاً وتوقّفنا عند الساعة التاسعة مساءً، فقطعنا 46 كيلومتراً. وكانت هذه المرحلة أشدّ المراحل إنهاكاً لقوانا، فلم ننم في اليوم أكثر من أربع ساعات لمدّة ثمانية أيّام. ولم نكد نبدأ السير حتّى تأخّر الرجال دفعة واحدة لاغتنام نصف ساعة من النوم، تاركين جمالهم تتبع النور الضئيل الّذي ينبعث من مصباح الدليل. ولم أتمكّن من الاستمتاع بهذه الغفوة خشية منّي أن يصيب أجهزتي مكروه. وكنّا قد حمّلنا الجمال في الظلام فلم أكن واثقاً من دقّة التحميل، وخفت أن تنحلّ بعض الأربطة، فيتكسّر من حوائجي جهاز علميّ أو آلة تصوير.

وفي فترات متتابعة كانت الجمال تتوقّف عن السير واحداً بعد الآخر، فتبرك وترفض النهوض، فيأتي أحدٌ من عبيد التبو، ويضغط بإبهامه على عرق خاص في جبهة الجمل، فيعيد إليه قواه ويدفعه على السير. وفي حين كنّا نجهد في قطع تلال الرمل العالية شديدة

الانحدار، رأينا أمامنا بغتةً جبالاً قائمة كقصور القرون الوسطى، وقد أحاط بها ضباب الصباح حتّى كاد يخفيها عن الأبصار. وسطعت الشمس بعد قليل على هذه الجبال، فصبغت لونها الرمادي بلون الورد. وتأخّرت عن القافلة فجلست لمدّة نصف ساعة على تل رملي، ثمّ تركتُ عقلي وقلبي يسرحان في جمال هذه الجبال الرائعة.

لقد وجدت ما كنتُ أنشده، فقد رأيت جبال أركِنو، وكانت تلك الساعة مفصليّة في تاريخ رحلتي، ففيها نسيت ما لقيت من المصاعب وما أتوقّعه من المخاطر. في تلك الساعة، بل في تلك اللحظة نسيت ساعات طويلة من الألم، بل أيّاماً عديدة أضناني فيها الجهد والتعب. في لحظة واحدة نسيت المخاطر التي واجهتها والعقبات الّتي ذلّلتها، لأصل إلى تلك الواحة المفقودة، إلى تلك البقعة الصغيرة الضائعة في هذه الصحراء الفسيحة القاسية والقاحلة.

رأيتُ جبال أركِنو، فظهرت طلائع النجاح والتوفيق، فقد كانت واحتها إحدى الغايات التي سعيتُ إليها. وظللنا نصعد بين تلال الرمل في ساعات الليل الباردة السابقة لطلوع الفجر. وعندما أصبحنا عند آخر تل من تلال الرمل، اختفت جبال أركِنو بغتة كأنّ ستاراً أسدل عليها دفعة واحدة، فزال باختفائها عن عيني ذلك المنظر الرائع الّذي لم أشاهد مثيلاً له في صحراء ليبيا، منذ أن تركت السلّوم. فقد كانت جبال أركِنو فريدة في جمال مناظرها الى درجة أنّه خُيّل إليّ أنني لا أسير في الصحراء.

الثلاثاء 24 أبريل:

كان اليوم الحادي عشر بعد المائة من رحيلنا عن السلّوم، والأربعين بعد المائة من تركنا القاهرة. وكنّا نسير في أرض حرّة متموّجة. وعند الساعة الخامسة صباحاً اجتزنا تلالاً رمليّة، ثمّ سرنا في أرض حجرية صلبة مغطّاة بالحصى. وكان تلّ عظيم من الخرسان يقع، على بعد مئة متر من شمال أركِنو، ويبلغ طوله كيلومترين وارتفاعه قرابة المئة متر. وبزغت الشمس فاتّسم الشروق بجمال وروعة الخالق، وامتزجت فيه الظلال الذهبية بقطع من السحاب رمادية اللّون، وهدأت رياح الصباح الباردة فارتفعت حرارة الجوّ.

وجبل أركِنو عبارة عن كتل من الجرانيت الذي يمتزج لون سطحها بين الرماديّ والأحمر الداكن. وهذا الجبل قائم على ارتفاع يبلغ 500 متر عن سطح الصحراء، وهو

مكوّن من سلسلة كتل مخروطية الشكل متلاصقة القواعد. واقتربنا منه من أقصى جهاته الغربية، وكنّا في تقدّمنا إليه لا نستطيع معرفة مدى امتداده، وكانت أبعد نقطة نراها منه في ذلك الاتجاه قمة مرتفعة. وسرنا حوله من جهة الركن الشمالي الغربي، فوصلنا الى مدخل الوادي الممتدّ إلى جهة الشرق. وفي هذه الناحية من الصحراء، لفتت انتباهي شجرة منفردة من النوع الّذي يسميّه الجرعان «أركِنو» ويسمّيه البدو «صرخة»، ومن هذه الشجرة اتّخذت الواحة اسمها.

ونصبنا خيامنا على مقربة من الشجرة، ولم يكن ذلك بالموقع الجيّد، نظراً لكثرة «قُرد» الجمال الّتي تعيش في ظلّ الشجرة، والّتي وفدت علينا أسراباً عند اقتراب الجمال. واضطررنا إلى نصب خيامنا على مسافة من الشجرة تفادياً لها التي آثرت البقاء في ظلّ الشجرة والفتك بالجمال. وقد التقطت ذات مرّة قُردة من هذه القرد[1] فكانت كقطعة من الخشب المتحجّر، وضربتها بعصا فالتوَت كأنّها قطعة من الحجر، وأشحتُ بوجهي عنها مدّعياً الانشغال بشيء آخر، فمضى عليها حوالى الثلاث أو الأربع دقائق من دون أن تظهر أنها لا تزال على قيد الحياة، لأنّ القردة تعلم بغريزتها أنّ سلامتها في ادّعائها التحجّر. ثمّ انتهزت فرصة غفلتي عنها فمرّت في سرعة البرق. وتعيش القردة على الجمال ويصعب الوصول إليها، لأنها تمتصّ دم الجمل حتّى تنتفخ، ثمّ تعيش على ذلك سنيناً كما يقول البدو، ولكنّني لا أظنّ ذلك يتجاوز بضعة أشهر.

وما كدنا نستقرّ حتّى أرسلت الجمال إلى الوادي لتشرب وتحمل إلينا الماء، وكنّا في حاجة شديدة لها. ولحقنا بعد ساعتين من أجل نصب الخيام العبدان اللّذان قد تأخّرا عنّا، وأحضرا كميّةً من لحم الجمل المذبوح، ما شكّل عشاء شهيّاً لرجال القافلة. وهبّت رياح شديدة ساخنة استمرّت طوال النصف الثاني للنهار.

وحدث لي أنّني، بينما كنت أستريح في خيمتي، شعرت بغتةً أن شيئاً يلمس أذني، فحاولت أن أبعده من دون أن أرى ما هو. وبعد ذلك بدقائق هبّت عاصفة رياح من خلال جوانب الخيمة، وكنت قد رفعت جانباً منها بقصد التهوية، فأحسست شيئاً يمرّ ويحتكّ بجسمي، فقبضت عليه ولكنّه أفلت من يدي لحسن حظّي، فقد كان ثعباناً طوله أربعة

---

(1) القرد والقراد (بضم القاف): حشرة تحط على الجمال والماشية وتلتصق بها التصاقاً يصعب نزعه.

أقدام، وقد أمسكه رجالي بعد ذلك وقتلوه.

وأقام الرجال بعد ظهر اليوم مسابقة في إصابة الأهداف، فبدأت تسلية وأصبحت محطّ اهتمام الرجال جميعهم حين وضعت ريالاً مجيدياً للفائز. ونال الجائزة السنوسيّ أبو جابر على الرغم من ضعف نظره. وعبّر حامد عن شعور المتسابقين حين قال عن نفسه: «لقد كان للمجيدي تأثير شديد في نفسي، واشتدّت أعصابي فلم أصب الهدف الّذي لم أكن أخطئه من قبل». بالاضافة الى ذلك، قمتُ بأبحاث، والتقطتُ صوراً فوتوغرافية، وداويت أسنان الدليل.

وفاجأنا منظر الجرعان، وهم قبائل السود الّذين يعيشون في تلك النواحي، فقد ظهروا فجأة من الوادي وتقدّموا إلينا فاستبقيناهم للعشاء. ولم يكن أحد منّا يحلم بوجودهم قبل أن يظهروا، فإنّ الجبل يبدو موحشاً خالياً، حتّى أنّ لا أحد قد يظنّ أنّه يحوي وادياً خصباً مأهولاً. وفي الواقع، إن أركِنو تبقى مأهولة طوال السنة، لأنّ واديها يحوي خضراً نضرة ترعاها الإبل بلا راعٍ. وتفسير ذلك أنّ البدو وعبيد التبو والجرعان يحضرون جمالهم إلى ذلك الوادي في موسم الرعي، فيسدّون منافذ الوادي بالصخور، ويتركونها ترعى مدّة ثلاثة أشهر بغير رعاة. وقد قال محمّد الدليل: « عندما يعود أصحاب الجمال لإرجاع داباتّهم، وجدوا أنّ الشحم تكدّس في جسمها فأصبح بسماكة قبضتي اليدين».

الأربعاء 25 أبريل:

أحضرت لنا قبيلة الجرعان الّتي تعيش في الوادي نعجة ولبناً وسمناً بمثابة ضيافة، وجاؤوا بقطيع أغنامهم إلى المكان الذي نصبنا فيه خيامنا حتّى يحلبها الرجال. وانطلقتُ بعد الغداء مع السيّد الزروالي وبوكارة إلى وادي أركِنو وهو «كركور»، أي وادي ضيّق متعرّج يمتدّ في الجبال مسافة 15 كيلومتراً، ويحوي الحشيش والعوسج وبعض الأشجار. وزرنا كوخ الجرعان حيث صورّت بنتاً وولدين من أفراد الأسرة، وكان الولدان في ثياب بيضاء، دلالةً على أنّهما ولدا شيوخ. وعدت إلى خيامنا فأرسلت قماشاً ومناديل وأرزاً هديّة منّي للأطفال الثلاثة.

وعزمت على الإقامة ثلاثة أيّام أخرى في أركِنو، لأنّ المرعى كان خصيباً والجمال لم تزل تعبة من ذلك السفر الشاقّ إلا جملي الهجين، فإنّه كان على ما يرام. والتقطت بعض

الحجارة كعيّنات جيولوجية فأثرت بذلك ريبة بعض رجالي، لأنّهم ظنّوا أنّ هنالك ذهباً بين الحجارة التي جمعتها، وإلا لما كلفت مشقّة حملها إلى وطني.

الخميس 26 أبريل:

في أركِنو، بلغت أقصى درجة للحرارة 36 وأدناها 9. وكان الجوّ صحواً معتدلاً، والرياح ساخنة قويّة تهبّ من الجنوب الشرقي، تسببت بهدم الخيم مرّتين. وأرسلنا الجمال لترعى وتشرب، وكان يوماً شديد الحرّ بلغت درجته داخل الخيمة 100 درجة فهرنهايت. وكان قيامي بالأبحاث والأرصاد صعباً لاشتداد الرياح ولم أمل إلى القيام بها، مختبئاً خلف الخيام لعدم إثارة الفضول والريبة. وهدأت الرياح في المساء، فعوّضت الطبيعة علينا اليوم الحار المحرق بحيث كان الليل رطباً والهلال الجميل ظاهراً. فرقص بوكارة وبقية الرجال، وغنّوا حتّى منتصف الليل.

الجمعة 27 أبريل:

إن أركِنو أولى الواحتين المجهولتين اللّتين كان من حسن حظّي أن أحدّد موقعهما على الخريطة. وكان هنالك قبل ذلك شائعات متواترة بوجود واحتين قريبتين من ركن مصر الجنوبي الغربي، ولكن المكان الّذي وضع لهما، بالحدس والتخمين، كان بعيداً عن موقعهما الحقيقي بمسافة تراوح بين 30 و180 كيلومتراً. ولم يكن حدّد موضعهما أحد بعد أن رآهما رأي العين. وقد أظهرت ملاحظاتي أن أركِنو تقع على 20 درجة و12 دقيقة و32 ثانية من خطّ العرض الشمالي، وعلى 24 درجة و44 دقيقة و15 ثانية من خطّ الطول الشرقي، وأن ارتفاعها عن سطح البحر 598 متراً عند سفح الجبل، وبهذا الشكل تكون واقعة ضمن الحدود المصرية. وتكمن الأهميّة الكبيرة لهذه الواحة – ولواحة العوينات كذلك– في ما تمهّده في سبيل استكشاف الركن الجنوبي الغربي لمصر، الّذي لم تكن وصلته بعد أيّ دورية حربية أو قافلة مسافرة. ولم يكن أحد يعلم أين توجد موارد ماء يُعتمد عليها في قطع ذلك الجزء من الصحراء.

ويظهر أنّ مياه أركِنو دائمة وصالحة للشرب، وإن لم تكن من الجودة بحيث يتمنّى من يطلبها. ولأركِنو ميزة استراتيجيّة يمكن الاستفادة منها في السنوات القادمة، نظراً لوقوعها في ملتقى خطي الحدود الغربية والجنوبية لمصر. وأركِنو والعوينات تختلفان عن

بقيّة واحات الصحراء المصرية الغربية في أنّهما ليستا منخفضتين في الصحراء، يتسرّب إليها الماء من باطن الأرض، لأنّهما بقعتان جبليتان تجتمع مياه الأمطار في أحواضهما الصخريّة.

وسلسلة جبال أركِنو، حسب ما رأيتها، تمتد 15 كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب و20 كيلومتراً من الشرق إلى الغرب. ولكنّ الفرص لم تتح لي لاستكشافها من الجهة الشرقية، ولذلك لا يمكنني أن أجزم بعدم امتدادها في تلك الجهة إلى أبعد ممّا ذكرت، لأنّني عاينتها بقدر ما وصل إليه بصري من موقفي في الصحراء عند سفح الجبل الغربي. وقد تكون جبال أركِنو من جهة الشرق ممتدة على شكل سلسلة من التلال، تبدأ جبال العوينات عند نهايتها من الجنوب. وقد تمكّن الفرص غيري من استكشاف الأجزاء الشرقية لهاتين الجهتين الصخريتيّن، أكثر ممّا مكنتني حين زرتها مزوّداً بما كنت أملك من وسائل.

وأقرب الأصقاع المعروفة إلى أركِنو والعوينات من الجهة الشرقية – أو الجهة الشمالية الشرقية على الأصحّ – هي الواحات الداخلية التي تقع على بعد نحو 500 كيلومتر. ويزعم الناس أنّه كان هناك طريق قديم بين مصر وهاتين الواحتين، ولكنّ السفر من الواحات الداخلية إلى أركِنو والعوينات يتطلّب رحلة طويلة تستغرق 14 يوماً تقريباً.

الفصل السادس عشر
إلى واحة العوينات

السبت 28 أبريل:

إستيقظنا عند الساعة التاسعة والنصف مساءً وقضينا لأوّل مرّة طوال الليل في السير وحططنا الرحال عند الساعة السابعة من صباح يوم 29 أبريل، فقطعنا 40 كيلومتراً، وكان الجوّ صحواً جميلاً. وهبّت رياح ساخنة قويّة طوال النهار من الجنوب الشرقي، واستمرّتفي هبوبها من هذه الناحية طوال الليل، ولكنّها كانت دافئة وكانت الأرض منبسطة وكثيرة الحجارة، فتأذت الجمال في سيرها. وفي الساعة السادسة صباحاً وصلنا الركن الغربي لجبال العوينات، وحططنا الرحال بعد ساعة.

أمضينا اليوم هادئين فاسترحنا استعداداً لمرحلة الليل، وأرسلنا في المساء رجالاً يأتون بالجمال من مراعيها. واستأجر بوكارة جملاً من أحد العبيد التبو وكان قصده من ذلك أن يريح جمله الّذي أراد أن يبيعه بثمن غال في نهاية الرحلة. وقد استخدمت ثلاثة من عبيد التبو. واستأجرت جمالهم لمرافقتنا في هذه الرحلة لأنّني وجدت وسائل النقل غير كافية، فقد لاحظت أنّ حوائجنا كانت ثقيلة بحيث أنهكت قوى الإبل بعد تركنا الكُفرة.

وحضرت الجمال عند الساعة الثامنة مساءً، وبدأنا السير بعد ذلك بساعة ونصف الساعة. وكانت الأحمال خفيفة على الجمال هذه المرّة، لأنّنا لم نحمل ماء من أركِنو بسبب رداءة طعمه وصعوبة ابتلاعه، وقد تسبب بثلاث إصابات بـ«الزحار» بين رجال القافلة. وقد امتطى هؤلاء ظهور الجمال منذ بدء المرحلة، وتناوب بقيّة الرجال الركوب أثناء الليل. وبدأنا السير ونحن في غاية السرور وانبعث الغناء من نفس طروبة، فانضم إلى صاحبها بعض الرجال وغنّى الجميع ورقصوا وصفقّوا بأيديهم، بينما كانت الإبل تجدّ في السير. وكانت الأغنية مؤلّفة من كلمات تغنّى بصوت قويّ النبرات، تختلف أنغامه في الشطرين وهي:

إن كانت عزيزة عليه الأنظار

حتّى لو باعد عن الدار

وظلّ الرجال يكرّرون هذه الأغنية حتّى انتهوا منها بصرخة فجائية. وكنت أنصت إلى إنشاد الرجال وأنا أضرب بسوطي وفق الإيقاع، فلمّا انتهوا صحت بالرجال: «فرّغوا بارود» أي أطلقوا النار فرحاً، ثمّ أخذنا بعد ذلك مواضعنا من القافلة وسرنا مبتهجين. وللسفر في الليل ميزات خاصّة، فإنّ المسافر، إن لم يكن منهك القوى، يشعر بسرعة مرور الوقت أكثر ممّا يشعر به أثناء النهار، والنجوم رفقاء يسلّون من يحبّ الطبيعة. وبدت لنا بعد ذلك عند الأفق جبال العوينات القاتمة. وإنّه لأسهل على المسافر أن يسير نحو هدفه الذي يميل أمامه من أن يسير في ذلك المنبسط من الصحراء الّذي تتشابه فيه جميع الجهات، ويظلّ فيه الأفق على المسافة نفسها. وظللنا نقترب من تلك الجبال حتّى بزغت الشمس فصبغت قممها وذهّبت جوانبها، وألقت خلفها من ناحيتنا ظلاً كثيفاً أخذ يتناقص ويتراجع إلى سفحها شيئاً فشيئاً، بينما كنّا نتقدّم إليها.

وبعد طلوع الشمس بقليل كنّا أمام الجانب الشمالي الغربي لهذه الجبال، وبعد ذلك بساعة حططنا الرحال في ظلّ جوانبها الصخرية. وأمكننا في هذه الجهة من الجبل أن نتحقّق من وجود بئر في نهاية أحد الكهوف، فنصبنا الخيام على مدخل ذلك الكهف. ولم تمض عشر دقائق حتّى كنّا غارقين في نوم عميق، لأننّا كنّا في حاجة شديدة إلى النوم، بعد سفر استغرق منّا طوال الليل. ومع هذا فلم ننل من النوم قسطنا، لأنّنا صحونا عند الظهر لتحضير الغداء. ويقول المثل الفرنسي: « «من ينم يستغنِ عن العشاء»، وينطبق هذا المثل في بعض الأحوال، ولكنّنا نحن أهل الصحراء نظنّ أنّ النوم والتغذية أمتع للنفس، إذا نالهما الإنسان معاً في وقت واحد. ورحنا نشوي قطعة من الشاة التي قدّمها لنا الدليل محمد، احتفالاً بالوصول إلى العوينات.

وأمضيتُ اليوم في إستكشاف البئر الواقعة في الكهف الموجود على جانب الجبل، وفي القيام ببعض الأبحاث والاستطلاعات، والتفرّج على الجهات المجاورة. وفي هذه الجهة يزيد ارتفاع الجبل مع كتلة من الصخور، الكبيرة منها والصغيرة، قد تكدّست عند قاعدتها. وقد توالت على هذه الحجارة ضربات الرياح ومياه الأمطار خلال السنوات

الماضية، وتكدست عليها أكوام الرمال حتّى أصبحت ناعمة الملمس مستديرة الأشكال، صالحة لمقاليع رماة القرون الماضية يرمون بها ضاريات الوحوش، أو يتقاذفونها في ألعابهم الخشنة.

وتقع عين الماء على بعد أمتار من مكان نصب الخيام، في ثغرة اتخذت من الصخور العظيمة التي تحيط بها جدران وسقفاً، وهي منبع عذب الماء ساعد الظل في برودتها. وفي الصحراء نوعان من موارد الماء: العين، وهي المنبع الفياض؛ والبئر، وهي المكان الّذي ينبجس منه الماء بعد الحفر في الرمل. وقد أطلق على منابع العوينات كلمة «عين»، وإن كانت أحواضاً تجتمع فيها مياه الأمطار. ويقال إن جبال العوينات تحوي على سبع عيون، رأيت منها أربعاً قبل بدء السفر. وسمعت كذلك أنّ في هذه الناحية بئرين، ولكنّني لم أرهما. وحلّ المساء، فكانت القافلة منتعشة ومبتهجة، فرقص الرجال وغنّوا وكأن ليس أمامهم أيّام مجهدة، يواجهون فيها الرمال الحارقة والرياح الساخنة التي تعصف أمامهم أو ورائهم.

الإثنين 30 أبريل:

إستيقظتُ باكراً وذهبت مع السيّد الزروالي وعبد الله ومحمّد ملكني التبوي إلى العين الكبيرة في قمّة الجبل، بعد أن صعدنا ساعة ونصفال ساعة فوق أرض صخرية. ولهذه العين امدادات وفيرة من المياه العذبة، تحيط بها بشكل رائع أشجار القصب الطويلة والنحيفة. قطّعتُ منها قليلاً واتخذته مقابض لمباسم التبغ، فيصبح الدخان بارداً لذيذاً. وفي المساء امتطيتُ جملي الهجين، وصحبني ملكني والسنوسي أبو حسن وسعد، لاستكشاف الواحة. وكانت ليلة مقمرة، يهبّ فيها نسيم دافئ من الجنوب الشرقي. وسرنا في السريرة أربع ساعات، ونحن ندور حول الجانب الشمالي الغربي للجبل. ثمّ دخلنا عند منتصف الليل وادياً امتدّت فيه سلسلة من التلال إلى يسارنا، وقام عن يميننا ذلك الجبل وفوقه حجارة كبيرة، كانت تعوق في بعض الأحيان سير الجمال.

ورأيت الرجال قد ثبطت عزائمهم، فتوقفنا بضع دقائق لتناول بعض أكواب من الشاي الّذي حملته في زجاجة «ترموس». ثمّ اندفعنا في السير وقد انتعشت قوانا، وكان في سحر الليل وضوء القمر وجمال الجبال ما حفّز خيالنا وسما بأرواحنا.

وفي الساعة الخامسة صباحاً انبسط الوادي فصار سهلاً من الرمل، قامت على جانبه الشمالي الشرقي تلال يتراوح ارتفاعها بين 10 أمتار و15 متراً. وملنا دفعة واحدة صوب الجنوب حول قاعدة الجبل، فانبلج الفجر وكان علينا تأدية صلاة الصبح، فأنخنا الجمال وتيمّمنا ثمّ وقفنا فوق الرمال مولّين الوجوه شطر البيت الحرام.

وليست الصلاة في الصحراء إطاعة عمياء لتقاليد الدين، وإنّما الغريزة هي الّتي تدفع الإنسان إليها إعراباً عمّا تشعر به النفس نحو الخالق من شكر واسترحام. والصلاة في الليل تبث الهدوء والسكينة، فإذا طلع الفجر ارتفعت الرؤوس إلى الخالق شاكرةً على ما أودع الكون من جمال، وطلباً لرحمته وهديه في اليوم الجديد، ولذلك يؤدّي الإنسان صلاة الصبح لأنّه مندفع إليها وليس مجبراً. وفي الساعة السابعة دخلنا وادياً واسعاً، يمتدّ إلى الجنوب الشرقي تقوم الجبال على جانبيه. وأرض هذا الوادي منبسطة انتشرت عليها الحشائش الّتي ظهرت بينها أشجار «الميموزا» وشجيرات أخرى ينبعث منها، عند قطعها، رائحة زكيّة تشبه رائحة النعناع. وكانت الأرض تكتسي، من وقت إلى آخر، بساطاً من النباتات الزاحفة ومن الحنظل، وهي مساحات ممتدّة من الأوراق الخضراء، ترصّعها كرات صفراء شديدة اللمعان كأنّها نوع كبير من الليمون الحلو. ومن الحنظل يصنع التبو والجرعان ما يسمّونه «عبرة»، وهي أهمّ أنواع الطعام الّذي يعدّونه بغلي حبّات الحنظل حتّى تفقد مرارتها، وسحقها بعد ذلك مع التمر والجراد في هاون من الخشب.

وظللنا نتقدّم في الوادي مدّة ثلاث ساعات، ثمّ حططنا الرحال عند الساعة العاشرة مجهدين ولكن غير خائبي الآمال، فأكلنا أرزاً شهياً وشربنا الشاي وتفيأنا ظلّ مرتفع من الأرض لنختلس غفوة قصيرة. وكان نوماً متقطعاً لما أصابنا من لسع أسراب الذباب وانتقال ظلّ ذلك المرتفع، ممّا اضطرّنا إلى تغيير مواضعنا من وقت لآخر.

وفتحت عيني فأبصرت شبحاً قائماً بالقرب منّي كأنّه طيف حلم لذيذ. وكانت صبيّة فتّانة من بنات الجرعان، هيفاء القدّ وجميلة التكاوين/ التقاسيم، لم ينقص من رشاقة قدّها ما كان عليها من ملابس بالية. وكانت تحمل جرّة لبن فقدّمتها إليّ، والخجل بادٍ في نظراتها. ولم يسعني إلا أن أقبل الهدية فجرعت منها شاكراً، وعندما انتهيت من الشرب، طلبت منّي أن أعطيها دواء لأختها العاقر. فنفيت امتلاكي مثل هذا الدواء، ولكنّها لم تصدّق قولي، ظناً

منها أنّني أحمل في حوائجي أدوية فعّالة. ولمّا ضاقت بي الحيلة في سبيل الخروج من هذا المأزق لم أجد مخرجاً غير تلك الأقراص من اللبن المركّز الّذي يشفي من العلل التي لم يتوصّل إليها علمي، وأعطيتها بعد ذلك مجيدياً ومنديلاً من الحرير هديّة منّي إليها.

وجاءني أحد رجال التبو بقطع من لحم الودّان، وهو نوع من الأغنام البريّة، فأعطيته شيئاً من المعكرونة والأرزّ ومضى راضياً.

وذهبت بعد الغداء أبحث عن بقايا تدلّ على إقامة الإنسان في العصور القديمة في هذه النواحي. وكنت أثناء إقامتي في أركِنو قد حادثت أحد الجرعان، فاستنتجتُ من حديثه معلومات وافية عن سكان العوينات الحاليين. ثمّ سألته بعد ذلك إن كان يعلم شيئاً عن سكانها القدماء، فأجابني إجابة أدهشتني، إذ قال: « لقد عاشت حول هذه الأبار شعوب مختلفة، يرجع عهدها إلى ما (لا) تدركه * الذاكرة، ولا يخيفك قولي فإنّ الجن سكنت هذه النواحي في قديم الزمان».

فسألته: «وكيف عرفت أنّ الجنّ كان يقيم هناك؟»

فقال: «ألا ترى آثار تصويرهم على الصخور؟»

فكتمت دهشتي وسألته: «وأين ذلك؟»

فقال: «لقد وُجدت في وادي العوينات صور على الصخور».

وحاولت أن أستدرجه في الكلام ليعطيني وصفاُ دقيقاً عن ذلك، فقال: «يوجد هناك كتابات ورسوم لجميع الحيوانات الحيّة، ولا يدري أحد أيّ قلمِ استعملوا، لأنّ كتابتهم في الصخور عميقة، لم يقو الزمن على محو آثارها».

وظللت احاول كتمان تأثري، ثمّ سألته ان يصف لي مكان هذه النقوش، فقال: «إنها في أقصى الوادي عند تعرّجه في نهايته».

وأدركتُ ذلك، وبعد أن أمضيتُ زمناً قليلاً في الحصول على الماء اللاّزم للقافلة، وبعد أن صعدتُ قمم التلال، رحتُ أجول بنظري على ما أحاط بها من الجهات، وكنتُ في شوق شديد للتجوّل حول الواحة، آملاً العثور على تلك النقوش حتّى أزيد معارفي القليلة عن تاريخ تلك الواحة. وكنت أعلم ان العوينات شكّلت محطّة لقبائل التبو والجرعان في

طريقهم شرقاً إلى مهاجمة الأكباش والفتك بهم. وكان موقع أركِنو والعوينات صالحاً لهذا الغرض، لما غزر فيهما من الماء الّذي تحتاجه هذه القبائل. وكانت هاتان الواحتان من البعد عن الكبابيش بحيث لا يجرؤون على محاولة الانتقام أو استرداد ما سُلب من أشيائهم.

وتشوّقت كثيراً لرؤية تلك النقوش، فصحبت ملكني الّذي انضم إلى القافلة في أركِنو، وقادني عند الغروب إلى أماكن تلك النقوش، وكان موقعها في جزء الوادي الّذي ينحني قليلاً في نهايته. وكانت النقوش على الصخور قريبة من سطح الأرض، وقيل لي أنّه توجد نقوش أخرى مماثلة على مسيرة نصف يوم، ولكنّني لم أزرها نظراً لضيق الوقت، وخوفاً من إثارة الشكوك. وكانت النقوش رسوماً لحيوانات وخالية من الكتابة. وظهر لي أنّ راسمها كان يحاول أن يصوّر منظراً من المناظر، ولم تكن هذه الرسوم دقيقة غير أنّها تنمّ عن ذوق فنّي، فقد كان مصوّرها يميل إلى الزخرفة لأنّه أظهر مهارة في نحتها، وإن لم يبن فيها أثر كبير لدقّة الصنع.

وتناولت هذه الرسوم صور الأسود والزرافات والنعام والغزلان والبقر، وكانت واضحة رغم مرّ السنين عليها. وعمق هذه النقوش في الصخر يتراوح بين ربع بوصة[1] ونصف بوصة، وقد قلّ عمقها في نهاية بعض الخطوط. وسألت عمّن قد يكون صنع هذه النقوش، فكان الجواب الوحيد الّذي تلقيته من ملكني إبداء اعتقاده أنّها من صنع الجن، وسأل: «أي إنسان يستطيع في هذه الأيام أن يقوم بهذه الأعمال؟»

ولم أتمكّن من استقاء الأخبار عن منشأ هذه النقوش الشيّقة، ولم يتيسّر لي العثور بما يفسّر أصل وسرّ وجودها، ولكن شيئين شغلا بالي وهما أنّ حيوان الزرافة غير موجود البتّة في تلك الناحية في هذه الأيّام، كما أنّها لا تعيش في أيّ منطقة صحراوية كهذه. والأمر الثاني هو أنّني لم أجد صوراً للجمال في هذه النقوش، والجمل هو الدابة الّتي ينتقل عليها الإنسان هذه الأيّام في تلك الأصقاع الّتي تبعد الآبار عن بعضها فيها مسير بضعة أيّام، أيعقل

(1) البوصة (من الفرنسية بُوسْ pouce، ومعنى الكلمة الأصلي هو الإبهام، أي الإصبع الأول لليد (وحدة قياس للطول) وتعرف أيضا بـالإنش أو بـالأنج، من الإنكليزية Inch، وهي وحدة قياس إنكليزية الأصل كانت تستخدم في إنكلترا ولا زالت تستخدم في أمريكا. (المترجم)

أن يكون هؤلاء القوم الذين رسموا هذه الصور قد تعرّفوا على الغزال من دون الجمل الّذي يرجع عهد دخوله افريقيا، من جهات آسيا، إلى نحو 500 سنة قبل الميلاد؟

وسلكنا طريق العودة إلى الخيم عند الساعة الخامسة والنصف، فصعدنا طريقاً متعرّجاً في جبل شديد الانحدار، لا تتسع في بعض المواضع لأكثر من رجل واحد، والخطر شديد لمن يجتازها على ظهور الإبل. ووصلنا قمة هذه الطريق الجبلية، ثمّ انحدرنا إلى الصحراء المنبسطة عند سفح الجبل. وقد رأينا، من القمم الّتي صعدنا إليها، بعض قمم أخرى انتشرت حولها وارتفعت عنها بقدر يراوح بين 200 أو 300 متر. وقد أظهرت الجمال مهارة شديدة في الصعود إلى هذه القمة والنزول عنها رغم الظلام.

ووصلنا سفح الجبل عند الساعة العاشرة والنصف، فرأينا من المناسب أن نريح الجمال، وحططنا الرحال عند الساعة الحادية عشرة فاسترحنا ساعتين وتناولنا الشاي، وزارتنا أسرة من التبو كانت تعيش بالقرب منا. وغفونا قليلاً ثمّ صحونا منتعشين، وكان النسيم رطباً والسير في الصحراء المنبسطة استراحة طيبة، بعد الجهد الشديد في تسلّق تلك الصخور. ووصلنا مربض الخيم عند الساعة العاشرة صباحاً، من يوم 2 مايو فاستقبلنا رفاقنا بطلقات البنادق.

الأربعاء 2 مايو:

وجدنا عند وصولنا إلى الخيم الشيخ هري، وهو شيخ الجرعان الّذي يطلق عليه لقب ملك العوينات التي تضمّ 150 نسمة. وكان قد جاء بالأمس يزورني فانتظر عودتي، وكان شيخاً لطيفاً مهيب الطلعة هادئها. وأحضر لنا شاتين ولبناً و«عبرة»[1] بصفة الضيافة. وكان في ذلك اليوم صائماً رمضان، فألححت على بقائه لتمضية الليل معنا، حتّى أقوم بحقّ الضيافة نحوه. وحادثته طويلاً، وكان لا يزال يحنّ إلى وطنه في شمال واداي، ويتنهّد عند ذكره في حديثنا. وهري من أسرة الرزّي، إحدى قبائل الجرعان الحاكمة في شمال واداي، وقد اختار الكُفرة منفى له عند دخول الفرنسيين واداي، وأقام في العوينات بعد ذلك. ووجدتني متعباً بعد سير 28 ساعة لم أسترح فيها إلا 9 ساعات، ولكنّ قواي انتعشت في ذلك المساء، بعد حمّام وعشاء طيّب وغفوة قصيرة.

---

(1) العبرة: مهروس الحنظل مع التمر والجراد

وكان بوكارة قد رتّب مجلس غناء، فأمضينا فترةً من الليل في سماع الأغاني البدوية والتبوية والسودانية.

الخميس 3 مايو:

جاءني هري بطاسٍ من اللبن عند استيقاظي، وشكرته فهزّ رأسه حزيناً وقال: «هذا كلّ ما يمكنني أن أقدّمه وهو لا يليق بك، ولكنّ الهدية على مقدار الذي يهديها، فاعذرنا إذا لم نفِك حقّك من واجبات الضيافة». فأكّدت له أنّ قيمة الهديّة في معناها، لا في قيمتها الذاتية. وقضينا اليوم في عمل ترتيبات السفر الّذي أملتُ أن نبدأ به في الغد.

الجمعة 4 مايو:

اتفقت مع هري على أن يصحبنا إلى إردي على أن يكون دليلنا الثاني، لأنّ محمد لم يطأ هذه النواحي منذ سنين عديدة وظننت أنّ هري مطّلع أكثر على هذه المنطقة. ومشيتُ طويلاً بعد ظهر اليوم، والتقطتُ صوراً للجبال. وسمع بوصولنا أفراد قبائل التبو والجرعان الّذين يعيشون في تلك الواحة حيث المراعي الصالحة لدوابهم، فجاؤوا لزيارتي ودعوتُ كثيرين للعشاء، فكانت ليلة مرح وطرب اعتبرتها من أبهج ليالي الرحلة.

وقبل أن أتطرّق الى وصف العوينات، لا بدّ أن أقول شيئاً عن بوكارة، وهو من أمتع رجال القافلة رفقةً وأكثرهم شاعرية. كان بوكارة طويل القامة وصلب البنية، دائم المرح والطرب، مثالاً للبدوي الأصيل، لا يسكت عن الغناء في الأوقات العصيبة من اليوم، سواء أكان ذلك في الصباح الباكر بعد سير الليل، أم في آخر الليل حيث يجهد السير رجال القافلة، فيكونون في حاجة إلى ما يرفّه عنهم ويشجعّهم على المضي. ولم أعلم أنّه يدخّن حتّى رأيته ذات يوم، بينما كنت أمتطي جوادي، يجمع أعقاب السجائر من المكان الذي نصبتُ فيه خيمتي، فشاطرته سجائري بعد ذلك. وكان يروق لي أن أراه يغنّي ويرقص طرباً، كلّما قدمت إليه علبة من تلك السجائر الثمينة التي كنّا نلفّها بأنفسنا.

وبوكارة من أكثر البدو الّذين يسافرون، فقد جاب واداي وبركو وبرنو ودارفور، وهو لم يزد عمره عن الثالثة والثلاثين عاماً. وقد ساعده الحظّ في ماضيه. فلقد كان رجلاً غنيّاً، ولكنّه لا يملك اليوم إلا جملاً واحداً. وعندما انضمّ إلى القافلة، سعى وراء تحقيق مكسب معيّن، واتّفق مع أبي حليقة على أخذ شطر من أثمان الجمال عند بيعها في نهاية

الرحلة. وهو يجيد أكثر لهجات القبائل السود، ويعرف الكثير عن هذه القبائل، كما أنّه مقلّد مدهش. أذكر ذات مساء، أنّه التحف بقطعة من القماش الأخضر الذي يكون قسماً من خيمتي واتخذ منها برنساً، وتبعه سعد وحامد وهما يقلّدان صوت الشاة. ثمّ تقدّم إلى مضرب الخيم مدّعياً أنّه شيخ بدويّ قد أحضر شاتين بمثابة ضيافة فضحكنا عالياً، وخلع بوكارة تلك الخرقة الخضراء وانتزع حربة من أحد التبو، ثمّ راح يرقص رقصاً حربياً تبوياً وساعده أحد التبو على الرقص بالإيقاع على أحد الفناطيس الخالية. وتبع هذا المنظر الغريب مجلس غناء، تردّدت فيه أغاني البدو المعروفة في برقة وفزان وطرابلس.

ورأيتُ بوكارة ذات يوم يرفض امتطاء جمله، في ساعة لم يتمالك فيها إخوانه أن يصبروا على السير، فسألته: « لماذا لا تركب الجمال في حين أن العديد منها غير محمّلة؟»

فأجابني، وفي صوته نبرة سخرية وانفعال: «وماذا عسى تقول زوجتي، إذا سمعت أنّني ركبت الجمل بين أركِنو والعوينات؟» وأخبرني أنّه وكِّل إليه، ذات مرّة، أن يصحب خمسين جملاً إلى العوينات لترعى. وكان وحيداً ونفد منه الزاد، فقضى اثني عشر يوماً لا يذوق طعاماً إلا حب الحنظل الّذي أضرّ بجهاز هضمه، ثم قال لي: «وصلتُ الكُفرة، وكان الرجال الّذين أرسلوني بجمالهم قد نسوا أنّ يتركوا لي طعاماً، لأنّهم توقّعوا وصولي إليها».

فسألته: «وما الّذي منعك من ذبح جمل لتأكل؟»

فقال لي باعتزاز: «وكيف أسمح لرجال الكُفرة أن يقولوا أنّ بوكارة لم يصبر على الجوع، فذبح جملاً من جمالهم؟»

وبوكارة شديد الولع بزوجته، وقد قال لي عند وصولنا: «إنّني أشعر أنّني أحسن حالاً، ولكنّني بكيت بكاء الأطفال عند وداعي امرأتي في الكُفرة. وهذه حالي دائماً عند البدء في سفراتي، غير أنّني إذا أنِست إلى رفقائي واستلطفتُ صحبتهم، يسهِل عليّ ألم الفرقة».

الفصل السابع عشر
السير ليلاً إلى إردي

الأحد 6 مايو:

استيقظنا عند الساعة السابعة إلا ربعاً مساءً وسرنا 12 ساعة، قطعنا فيها 54 كيلومتراً، وكان سفراً متعباً. وكان هذا أمراً متوقعاً في أوّل ليلة نقطعها في السير، ولم يكن الرجال قد تمكّنوا من النوم أثناء النهار، بل كانوا أكثر انشغالاً من العادة بتجهيز أسباب الرحيل. وكان علينا، بالرغم من هذا التعب، أن نرتّب الأحمال ونصلح وضعها من وقت إلى آخر. وطلع الفجر، فدبّ النعاس في أجفان القوم فغفوا قليلاً. وهرب منّا أحد الجمال فعدا إلى العوينات، واضطرّ ملكني أن يترك القافلة عند منتصف الليل وينطلق للبحث عنه. وكانت ليلة مقمرة في نصفها الأخير، وهبّ نسيم عليل في الثالثة صباحاً. ورعت الجمال أثناء سيرها ما كان متواجداً في تلك الجهة من الحشائش التي يسقيها الماء المنحدر من الجبال، وحططنا الرحال فوجدنا أن قِربة من أجود قربنا قد تمزّقت، وضاع منها نصف الماء الّذي تحويه. وكان ذلك من سوء حظّنا، لأنّه لم يكن معنا ما يفيض عن حاجتنا من الماء لإجتياز هذه المرحلة الّتي كان علينا أن نسير فيها عشرة أيّام، قبل أن نصل إلى أوّل بئر في الطريق. ولم يظهر ملكني مع الجمل الهارب أثناء النهار.

الإثنين 7 مايو:

كانت السماء ملبّدة بالغيوم طوال النهار، وهبّت رياح قويّة من الشمال الشرقي، وهدأت عند الظهر. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 38، ولم أتمكّن من معرفة أدنى درجة نظراً لسفرنا في الليل، ويكون الطقس بين الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً الأكثر برودة. وبدأنا السير عند الساعة السادسة والنصف مساءً وتوقفّنا قبل منتصف الليل بنصف ساعة، وكنّا قد قطعنا 20 كيلومتراً. وكانت الأرض ناعمة الرمل متموّجة كثيرة السبط[1] الجاف الصالح لرعي الإبل.

---

(1) السبط: نبت كثير الفروع (المترجم)

ولحقنا بعد الظهر أحد العبيد يحمل الحوائج الّتي كانت على ظهر الجمل الهارب، وأخبرنا أنّ جمل ملكني رمى بحمله على الأرض وجرى إلى مراعي العوينات، وأنّ ملكني يسعى إلى العثور عليه. وحططنا الرحال ننتظر المتأخّرين، في جهة ناعمة الرمل متناثرة الصخور والمراعي، بالقرب من جارة شِزُّو. ولحق بنا ملكني بعد وقوفنا بقليل، ولكنّني صمّمت على عدم السير تلك الليلة، لأنّنا كنّا بحاجة إلى الراحة.

الثلاثاء 8 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الخامسة إلا ربعاً مساءً، في جوّ ملبد بالغيوم بكثافة. وأمطرت السماء قليلاً بعد ذلك بساعتين، فهلّل البدو سروراً وأنشدوا الأغاني لجمالهم لأنّ الأمطار أساس حياتهم. وكانت الأرض متموّجة صلبة مغطّاة بالحجارة والحصى الكبيرة. واجتزنا غروداً صغيرة بعد أن استيقظنا بقليل، ثمّ انبسطت الأرض بعد ذلك ونعم رملها. وعند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، دخلنا جهة تكثر فيها كثبان الرمل العالية، فقطعناها في غضون ساعة ونصف. وبعد ذلك انبسطت الصحراء، ودخلنا السريرة، ووجدت في تلك الجهة قطعاً من بيض النعام.

وباكراً أخذ أرامي، أخو ملكني، كيساً وذهب يبحث عن الحطب. واسمه ينمّ عن قصته، لأنّ قبائل التبو والجرعان تطلق اسم «أرامي» على من قتل آخر. وكان قد أخبرنا أنه سيلحق بنا بعد ذلك، فلم ينشغل بالنا عليه وما طمأننا أكثر أنّه يعرف الطريق حقّ المعرفة. ولكنّنا بعد أن سرنا ساعتين وأخذ الظلام يرخي بسدوله حتى قلقنا عليه قلقاً شديداً. ووقفنا ننتظره وأطلقنا النار من بنادقنا مرّات عديدة ننبّهه إلى موضعنا، وناداه الرجال بأعلى أصواتهم. إلا أن كلّ ذلك ذهب سدى. عندها التفت إلى ملكني وسألته ماذا عسانا فاعلين في هذا الوضع ؟ فقال: «إنّ أخي مجنون، ولم يكلّفه أحد بجمع الحطب، وقد ترك مكان نصب الخيم من دون أن يتناول فطوره، وربّما دعاه الله إلى جواره. وإنّني إذا طلع القمر، تركت أحمال جملي وعدت أبحث عنه. فإن كان حيّاً جئت به، وإن وجدته ميتاً دفنته ثمّ لحقت بكم». وكان يقول ذلك بلهجة طبيعية كأنه يتكلّم عن أمر عاديّ، ورفعنا أثقال جمله فوضعناها على ظهر جمل آخر، ورجع هو يبحث عن أخيه.

وكان أرامي قد نجا من الموت مرّات عديدة، فأمِل الرجال أن يسلم هذه المرّة كذلك.

ولكن محمّداً كان يشكّ في سلامته إذ قال: «إنّ الله رحيم، ولكنّي أظنّ أنّ أرامي قد سعى إلى حتفه». وخشِيتُ أن يكون محمّد صادقاً في نبوءته، لأنّ أرامي كان غريب الأطوار منذ بدء الرحلة. وسمعت أن ماءه نفد في بعض رحلاته من إردي إلى العوينات، فأحسّ عطشاً قاتلاً ووصل العوينات نصف ميت، ومثل هذه الحادثة تترك أثراً في صاحبها لا يمّحي، فلا يعود إلى حالته الطبيعية إلا بعد زمن طويل.

وكنت قد لاحظت نظرات أرامي الغريبة الحائرة، فاستغربت أمره، وخفت إن لم يعد أن تكون الصحراء قد تملّكتها القسوة، فطالبت بحقّها منه.

وقد يموت الرجال في السفر الطويل الخالي من الماء بسبب العطش والتعب والأرق، فيسعون إلى حتفهم كما يقول البدو، ومعنى ذلك أنّه إذا غفل عنهم أصدقاؤهم ولم يسهروا على إبقائهم ضمن القافلة، ساروا في أحشاء الصحراء غير آبهين حتّى بالغريزة الّتي تدفع الجمل إلى الالتصاق ببقيّة جمال القافلة، فإذا عاد الهائم بعد ذلك بغتة إلى رشده جلس حيث صحا ولم يتحرّك، علماً منه بأنّ أصحابه إذا لاحظوا غيابه تعقّبوا أثر القافلة ثمّ أثره وسعوا لإنقاذه. وكنت قد قابلت في الكُفرة رجلاً انقطع عن القافلة وهام على وجهه مدّة 18 ساعة ثمّ أُنقذ، وهو فاقد الوعي شديد الألّم جراء العطش، قال لي ذلك الرجل: (إنّ الله كريم فإنّي لم أكن من القوّة إلا بحيث أدّيت صلواتي مبتهلاً إليه عزّ وجلّ قبل أن يدهمني ما توقعته من الموت المحتوم)، ثمّ أضاف باسماً: (ولكنّ الحياة والموت بإرادة الله).

الأربعاء 9 مايو:

استيقظنا عند الساعة الرابعة والربع مساءً وتوقّفنا عن السير الساعة العاشرة والربع وقطعنا 24 كيلومتراً. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 37، وانتشرت في السماء غيوم بيضاء وهبّت رياح ساخنة قوّية من الشمال الشرقي طوال النهار، ثمّ تحوّلت الى عاصفة رملية شديدة في اللّيل، وتساقط الرذاذ عند الساعة السابعة مساء، واستمرّت العاصفة من الساعة الثامنة إلى الساعة العاشرة. وكانت الأرض منبسطة، ناعمة الرمل في بعض الأماكن خالية من الأعلام والحشيش الجاف. وفي الصباح الباكر، رأينا أكوام رمل بعيدة عن يميننا. وكنّا قد سرنا أربع عشرة ساعة ونصف الساعة خلال اللّيلة الماضية، غير أنّنا لم نكن شديدي التعب، ثمّ تناولنا الفطور ونمنا أربع ساعات فانتعشت قوانا، وأراد محمّد أن نسير مبكرين

نظراً لوجود غرد وعر في سبيلنا لا يمكننا اجتيازه في الظلام. فاستيقظنا عند الساعة الرابعة والربع، ورحنا نمشي في أرض منبسطة ويهبّ علينا نسيم عليل من الشمال الشرقي. وفجأة شعرتُ، عند الساعة الثامنة، بريح تهبّ في وجهي. فذعرت لأنّ الرياح لا يتغيّر اتجاهها في العادة بغتةً، أضف إلى ذلك أنّ درجة حرارة الرياح لم تتغير وبالرغم من هبوبها من الجنوب لم تكن دافئة، وهكذا كان في الأمر شيء من الغرابة. فرفعت بصري إلى النجوم ولكنّ السماء كانت متلبدة بالغيوم من جميع نواحيها فأخرجت بوصلتي وامتلكني عندئذ شعورٌ بالخوف إذ رأيت أننا نسير صوب الشمال الشرقي بدلاً من الجنوب الغربي، فاتّضح لي أنّ محمّداً «طاحت» رأسه، كما يقول العرب، فقادنا في الاتجاه المعاكس. وكانت ساعة عصبية تتطلّب حكمةً وحسن تصرّف فإنّ من الخطر أن تهدم الثقة في نفس الدليل. ونزلت عن جملي ثمّ امتطيت جوادي وعدت إلى محمّد في طليعة القافلة وأدركت في طريقي إليه أنّ رجال القافلة، وبينهم الكثيرون ممن أعتادوا السير في هذا النوع من الصحراء وألفوا طبيعة الطقس هذه، كانوا يشعرون بأنّنا أخطأنا الطريق ولكن آداب الصحراء تقضي أن لا يتداخل أحد في شأن الدليل بأيّ حالة من الحالات لأنّ الدليل في الصحراء كربّان السفينة مطلق التصرّف في اختيار وجهة السير ويجب استشارته كذلك في تعيين أوقات السير والوقوف.

وكنت لحسن الحظّ قد سألت محمّداً عندما تركنا العوينات عن الاتجاه الّذي سنتخذه وضبطت البوصلة على ذلك، وتقدّمت إلى الدليل فوجدته مضطرباً، يفتقد الى ابتسامته المألوفة ولا يبدو عليه ما اعتدنا رؤيته من مظاهر ثقته بنفسه. وأريته البوصلة ثمّ عبّرت له عن شكّي في صحّة الاتجاه الذي نسلكه، فلم يجبني ونظر الى السماء بعينين متفرّستين يتعرّف موقع الجدي بلا جدوى لأنّ الغيوم كانت تغطيه.

وفي هذه اللحظة، أطفأ سراجه هبوب العاصفة الآخذة في الثوران، وكانت قافلة قد لحقت بنا وعرف كلّ رجل فيها أنّنا ضللنا الطريق. وتوقّف الرجال والجمال عن السير في حين أنّ العاصفة تسفّ الرمال في وجوهنا. وكانت الرياح قويّة، ولا يكاد الإنسان بسببها يسمع صوت أنفاسه، فما بالك ببقية الأصوات. وتلاشت الثقة من نفس محمّد وانعدمت انعداماً تاماً، ولحظت أثر ذلك من وجوه رجال القافلة، فقد كانوا جميعاً ممن ألفوا السفر

في الصحراء، وعرفوا معنى فقدان الطريق في سريرة منبسطة من الصحراء خالية من الأعلام، فقال الجميع بصوت واحد: «لا بدّ أن نحطّ الرحال حتى تصفو السماء».

ولكنّني كنت أعرف خطر هذه الخطوة، فإنّ الحائرين في مثل هذه الحال يقضون الساعات يفكّرون في حتفهم، ويزدادون ضعفاً ويأساً. وكان رأيي أن لا نقف فقد كنت أثق ببوصلتي، وتحقّقت مرّات عديدة إذ ضبطتها على الاتجاهات التي أشار إليها محمّد. وهدأت الرياح لحظة، فقلتُ بصوت هادئ فيه نبرة اليقين: «إن هذه الرياح تهبّ من الشمال شأنها في الأيّام الماضية، لأنها لو كانت تهبّ من الجنوب لكانت دافئة، وهذا هو نجم القطب وهذا هو طريقنا الصحيح». وأشرت إلى الموقع الّذي يجب أن يكون فيه الجدي ما لم تكن البوصلة غير صادقة، ثم درت وأشرت إلى الطريق التي يجب اتباعها. فاستعاد محمّد بعضاً من شجاعته، وقال: « جزاك الله خير الجزاء، صحيح ما تقول».

وتقدّم إلى السنوسي أبو حسن الّذي كان دليلنا إلى الكُفرة، وأكد ما قرّرته بصوت عال قائلاً: «والله إنّك لصادق في ما تقوله، وقد فكّرت في هذا ولكنّي لم أجرؤ على البوح به لعدم وجود الدليل على ذلك، نظراً لاحتجاب الجدي خلف الغيوم». واكتفينا بهذا، وأضأنا السراج بصعوبة شديدة، وتقدّمت القافلة بين محمّد وأبي حسن.

وانبعث من الظلام صوت يقول: «في أي اتجاه نسير؟ فأجابه بوكارة وهو يضحك: «دع الرياح تلطم قفاك الأسود، فإنك لن تحيد عن الطريق الصحيح». وبعد بضع ساعات شدّ محمّد على يدي وصرخ فرحاً، وهو يشير إلى تلال الرمل أمامنا، ثمّ قال: «ها هو الغرد. الحمد لله، إن الله رؤوف رحيم». وهكذا عاد للرجل طربه وسروره.

وهدأت العاصفة بعد قليل وكنّا بين تلال الرمل، وصفت السماء إلى حدّ لم يعد أشدّ رجال القافلة تشاؤماً منشغلَ البال ومضطّرباً. ولكنّ ما أصابنا في هذه العاصفة من الحيرة والخوف أظهر لنا ما يتعرّض له قاطع الصحراء من أخطار. وقدّر محمّد أنّه من الأفضل ألا نقطع هذه التلال في الظلام، فتوقفنا عن السير وحططنا الرحال.

الخميس 10 مايو:

استيقظنا عند الساعة الرابعة والربع صباحاً وتوقفّنا عن السير الساعة التاسعة إلا ربعاً، ثمّ استأنفنا السير في منتصف الساعة الخامسة مساءً ووقفنا الساعة السابعة من صباح 11

مايو، وكنّا قد قطعنا 75 كيلومتراً. وكان الجوّ صحواً معتدلاً، وهبّت رياح باردة قويّة في الصباح الباكر، ثمّ ضعف هبوبها بعد ذلك. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 38، وكانت الأرض ملأى بتلال الرمل الناعم الخطرة في بعض المواقع، وتمتدّ مسافة كيلومترين ثمّ تنبسط الصحراء. وفي منتصف الساعة السادسة مساءً، دخلنا منطقة تتناثر فوق أرضها ركام حجارة سوداء وبيضاء، شأن الصحراء قبل الكُفرة. وعند الساعة الثالثة صباحاً من اليوم الحادي عشر دخلنا منطقة من الحشيش الجاف، في أرض منبسطة من الرمل الناعم. وفي منتصف الساعة الرابعة والنصف صباحاً، اجتزنا جهة تكثر فيها تلال الرمل. وقد تحقّقنا حين قطعنا الغرد في الصباح من الخطر الّذي كنا سنتعرّض له لو أنّنا حاولنا قطعها في الظلام، فقد كانت هذه التلال شديدة الانحدار ناعمة الرمل، وكانت الجمال تغوص إلى ركبها، فيضطر الرجال إلى تخفيف أحمالها ومساعدتها على النهوض. وقضينا في قطعها ثلاثة أرباع الساعة، ثمّ وقفنا عند الساعة التاسعة صباحاً، وقد فتك بنا الجوع لأنّنا لم نذق شيئاً منذ غذاء البارحة. وكانت حاجتنا إلى الطعام أشدّ من حاجتنا إلى النوم، نظراً للراحة التي نعمنا بها بضع ساعات في الليلة الماضية.

وكان الطقس حاراً عندما بدأنا السير من جديد عند الساعة الرابعة والنصف عصراً، ولكنّ نسيماً عليلاً كان يهبّ من الشمال الشرقي، فلطّف من تلك الحرارة. وطلب منّي هري أن أعطيه بضعة أمتار من القماش الأبيض ليتّخذ منها عمامة، لأنّ حرارة الشمس آذت رأسه، فأعطيته ما أراد. ولا يلبس الثياب البيض في قبائل التبو والجرعان إلا شيوخها.

وشعرت تلك الليلة بالميل إلى المشي، فركبت جملي أقلّ من العادة. وكنت منذ تركي العوينات أمشي بين ستّ ساعات وسبع ساعات كلّ ليلة، ولكنّي مشيت تسع ساعات تلك الليلة. وسرنا سيراً حثيثاً حتى الساعة الثالثة صباحاً، ثمّ شعرت فجأة بحفيف عند قدمي، فتحسّست ذلك فكان حشيشاً.

وتغيّرت معالم الصحراء، وكانت الجمال قد تضورت جوعاً لأنّنا تركنا العوينات ولا نحمل من علفها إلا ما يكفيها لمدّة يومين، آملين وجود المراعي في طريقنا. ولذلك تركناها ترعى وهي تسير. وكان سير تلك الليلة متعباً للجميع، فقد كنّا مفتقرين إلى النوم. وملاحظة سير الجمال في أرض ذات مراع عمل لا يستهان به. وركب محمّد وهري

الجمل معظم الطريق، وكان حسن يحمل المصباح. ثمّ ترجّل محمّد قبل الفجر بقليل فحمله عنه وأراحه، ولم أر دلائل التعب على الرجال بالقدر الذي رأيته فيههم صباح اليوم، عند جمعنا الجمال لتأدية صلاة الفجر.

الجمعة 11 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الخامسة إلا ربعاً ووقفنا الساعة الثالثة والربع صباحاً من اليوم التالي، وقطعنا 42 كيلومتراً. وكان الجوّ صحواً لا رياح فيه، حارّاً في النهار والليل. وبلغت درجة الحرارة الأقصى 39، وكانت الأرض رملية مغطّاة بحشائش جافّة تشبه حقلاً من القمح الناضج. وعند الساعة الواحدة إلا ربعاً صباحاً مررنا بغرد عاديّ. وفي الساعة الأولى دخلنا أرضاً منبسطة خالية من الحشائش، وفي الساعة الثالثة والربع وقفنا عند تلال من الخرسان، وأمضينا اليوم في النوم والأكل. ثمّ بدأنا السير عند الساعة الخامسة إلا ربعاً مساءً، قاصدين أن نسير طوال الليل. ولم تحن الساعة العاشرة حتّى كنّا جميعاً متعبين ونعسين. وحتّى محمّد الّذي كان يمتطي جمله، غلبه النعاس بعد ذلك، فكان يغفو من فترة لأخرى. ونال منه التعب، فكان لا يتحقّق من طريقه بملاحقة نجم القطب وهو عماد الدليل، ومن الخطر أن يهمل ملاحظته. وتحقّقت أنا والسنوسيّ أبو حسن أنّ محمّداً لم يكن سائراً بنا في الطريق الصحيح، ولكنّنا لم نرد أن نتداخل معه في الأمر بعد تلك الليلة السابقة. وفي الساعة الثالثة والربع صباحاً وصلنا مرتفعاً من التلال فوقف محمّد بغتة. وكنت سائراً حينذاك في مؤخرة القافلة أتحقّق من صحّة اتجاهنا من وقت إلى آخر، فلاحظت أنّنا كنّا منذ الساعة العاشرة نميل في السير صوب الجنوب أكثر من ذي قبل. وقفت القافلة فتقدّمت إلى محمّد وسألته عن سبب وقوفنا فأجاب، وهو يشير أمامي قائلاً: «إنّني لا أتعرّف الى هذه الطريق بين التلال ولا أدري كيف تكون الأرض الّتي تليها».

وكان في ذلك صريحاً مقرّاً بخطئه، ولم أرد إثارة الحيرة في نفوس الرجال فقلت له: «لنحطّ الرحال حتّى يطلع النهار، فإننا متعبون هذه الليلة».

ولم أكد أنتهي من قولي حتّى بركت الجمال ورفعت عنها الأثقال، ولم أر قطّ النوم يستولي على الرجال بهذه السرعة، فقد التحف كلّ منهم بجرده وأتّقى الرياح الباردة الآتية من الشمال الشرقي، بقطعة من حوائج السفر ثمّ نام. واعتلى محمّد ذلك المرتفع ليتفقّد

النواحي فتبعته وقلت له: «أظنك كنت تبالغ في اتّباع نجم القطب». غير أنّني أردت بذلك أن أقول إنّه بالغ في السير صوب الجنوب، ولم أشر إلى نومه فوق جمله، لأني لم ارغب في زعزعة اعتقاده في نفسه أو ان أخجله. فأجاب متمتماً، وهو يتطلّع الى الأفق بقلق: «حفظك الله، لا بدّ أن اكون قد فعلتُ ذلك، وإلا لما كنّا وصلنا هذه الجبال في هذه الساعة المبكّرة، فقد قدّرتُ أن نصلها عند الفجر ومع هذا فعند الصباح يأتينا الفرج من عند الله». وتركته وأنا أشعر بالحيرة، فقضيت بضع دقائق مستيقظاً وأنا آمل ألا نكون قد بعدنا كثيراً عن الطريق الصحيح، واستولى عليّ التعب فلم أفكّر طويلاً في ذلك، وغلبني بعدها النوم.

السبت 12 مايو:

علا صوت محمّد بالدعوة إلى الصلاة في منتصف الساعة الخامسة فاستيقظنا جميعاً، ولم تمض ساعة حتّى كنّا على أتمّ إستعداد للسير. وتقدّم محمّد القافلة ورافقته، وكان لا يزال مضطرباً الى أن درنا حول التلال، فقال، وفي لهجته رنّة تشعر بالراحة: «الحمد لله هذه طريقنا». ثمّ أشار إلى الجانب الشمالي الغربي لسلسلة التلال، فسرنا إلى حيث أشار». وفي الساعة العاشرة إلا ربعاً صباحاً وصلنا المكان ونصبنا خيمنا، وأرسلت الجمال ترعى بين التلال على بعد كيلومتر أو كيلومترين. وكان الرجال والجمال في حالة سيئة، والماء قد أصبح قليلاً.

وبعد ظهر ذلك اليوم سبقنا كلّ من محمد وهري إلى الجبال، يرسمان طريقاً لنا في الرمال بأوتاد الخيم حتّى نتّبع الأثر. وعند الساعة الخامسة تبعناهما بين أكوام الرمل، ثمّ وصلنا التلال. ولم تكن التلال كثيرة لحسن الحظّ، وإن كانت شديدة الإنحدار في أماكن معيّنة. غير أنّ الأرض الجبلية التي كانت تليها أنهكت قوانا. فقد ظللنا نتعثّر بين الحجارة في الظلام، ولا يقينا أذى هذه الصدمات ما كان في أقدامنا من الأحذية البدوية. والتعثّر بالأحجار مؤلم في تلك الساعة المبكرة من الصباح، لأنّ رجال القافلة نعسون ويمشون مغمضي الأعين.

وكنت في الليالي السالفة قد قمتُ بتجربة موفّقة، فكنتُ أُطلق في الجوّ طلقتين أو ثلاث طلقات لأبعث النشاط في نفوس الرجال، وكانت هذه التجربة ذات نتائج حسنة، فإنهم كانوا يردّون بصرخات الفرح، ويجدّون في السير. ولكن النظرية قد خابت هذه الليلة، فقد

أرسلت الطلقات العديدة في الساعة الثالثة، وهي أصعب ساعات السفر بالليل، ولم يجبني أيّ صوت من رجال القافلة. وكان لي تعزية صغيرة في وسط ذلك الفضاء الساكن الباعث على التعب والوجوم، فقد طلع الهلال في الصباح الباكر كخيط مقوس من الفضة، وتلألأ فوقه نجم ساطع. وتركت عينيّ تنعمان بهذا المنظر، فنسيت ما كان يصيب قدمي من ألم التعثّر بالحجارة.

ووصلنا بعد ذلك بقليل إلى جهة كثيرة الحشيش الجاف، فتركنا الجمال ترعى قليلاً، ووقفنا نريح أجسامنا المنهكة. وحططنا الرحال في الفجر لتأدية الصلاة، ولم نكد ننتهي حتّى التحف معظم الرجال بجرودهم على ذلك الرمل الأحمر الجميل، كأنهم حجارة بيضاء.

وسارت القافلة بعد ذلك متثاقلة، ثمّ لحق بنا الّذين تأخّروا وهم يختلسون إغفاءة قصيرة. أمّا أنا، فإنّ أعضائي آلمتني هذا الصباح ولم أتمكّن من استعادة قواي، ولم أجد سبيلاً للراحة على ظهر جملي، رغم تجربة كلّ طريقة من طرق ركوبه، سواء أكنت مسرعاً أم متباطئاً، وثقلت أجفاني، وفي الساعة السادسة ساعدنا الحظّ فوصلنا جهة كثرت فيها الحشائش الخضراء، ونصبنا الخيام بعد مسيرة 13 ساعة متعبة. وكانت أعيننا حمراء كالدم، ودبّ التعب في جميع الأوصال، فلم تمض بنا نصف ساعة حتّى ساد السكون التامّ.

الأحد 13 مايو:

إستيقظنا لتناول الفطور عند الساعة العاشرة صباحاً، ثمّ عاد الرجال فناموا ولم يتح لي النوم. وبدأنا السير عند الساعة الخامسة والربع بعد الظهر، وقد ساءت الأحوال هذا المساء أكثر من ذي قبل. فقد كانت الأرض شديدة التموّج، كثيرة الحجارة، آلمت الرجال والجمال كثيراً. وكانت الجمال تضلّ بنا في حلكة الظلام وتتأخّر من وقت إلى آخر، عندما كنّا نتعرّج في سيرنا بين أكوام الرمل وتلال الصخور. وكانت الإبل ترعى بعض الحشائش التي كان من الصعب علينا أن نميّزها في تلك الرمال الحمراء والصخور القائمة المتناثرة. وتوقفت أصوات الرجال عن الغناء تلك الليلة في ساعة مبكرة، وفي هذا دليل واضح على تعبهم.

وجاءني السيّد الزروالي يقول إنّ محمّد يفضّل أن نحطّ الرحال باكراً بدلاً من السير

الطويل في الليل. وكان السير في الحقيقة مجهداً فاضطررنا إلى تغيير اتجاهنا عدّة مرّات، تفادياً للمرتفعات وأكوام الصخور، ولكن خشينا أن يؤدّي بنا هذا التغيير المستمر الى إضاعة الطريق. ولكن الطريق كانت وعرة الى درجة أنّنا كنّا نترك الجمال وراءنا من وقت إلى آخر. فلم أرَ فائدة من استمرار السير ولم أرَ دليلاً على تعب الرجال أكثر من أنّ حسناً الواجنجي، وهو من البدو الأكثر صبراً على السير، كان قد امتطى جمله منذ بدء المساء ولم يتركه بعد ذلك.

ونصبنا الخيم عند الساعة الحادية عشرة والنصف، والتحفت بجردي، وأخبرت الرجال أنّني لست بحاجة إلى إقامة ما يدفع عنّي الريح، وأعتقد أنّني لم أغيّر موضعي الّذي اتّخذته عندما غفوتُ حتّى الساعة الخامسة، وعندما استيقظتُ كان ظهري وقدماي يؤلمانني. وكان نسيم الصباح منعشاً، وكانت رؤيتي الرجال مهتمين ومتشوّقين للسفر سبباً لنسيان آلامي الجسديّة. وعلى الرغم من روح الانشراح هذه، فإنّ الأمور لم تكن مشجّعة، فقد كانت الأرض وعرة المسالك، وظهر على الرجال تزعزع ثقتهم بمحمّد وهري، وكانت حال الجمال سيّئة، والماء بدأ يتناقص أكثر فأكثر.

الإثنين 14 مايو:

إستيقظنا عند الساعة السادسة صباحاً وتوقّفنا عن السير عند الساعة التاسعة، واستأنفنا السير في منتصف الساعة السادسة مساءً ومن ثمّ توقّفنا عند الساعة العاشرة، فقطعنا بذلك 30 كيلومتراً. وكان الجوّ معتدلاً صحواً، وهبّ نسيم من الشمال الشرقي عند الساعة السابعة صباحاً وهدأ عند الظهر، وكان المساء والليل هادئين. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 32، وكانت الأرض ناعمة الرمل، مغطّاة بالحشائش النضرة والجافة. وتغيّرت معالم الأرض بعد استئنافنا السير بعد الظهر، فأصبحت كثيرة التموّج ومتعدّدة الأودية ذات المراعي والأشجار اليابسة، وكان ذلك دليلاً على اقترابنا من إردي. وفي منتصف الساعة التاسعة صارت الأرض كثيرة التلال، على امتداد أربعة كيلومترات. ثمّ قطعنا بعد ذلك وادياً كبيراً تكثر فيه المراعى والأشجار. وكان في عزمي عند البدء في الرحيل أن نسير أربع ساعات أو خمساً، ولكنّ الحرّ اشتدّ بسرعة فحططنا الرحال في الساعة التاسعة واسترحنا أربع ساعات. فكان لذلك تأثير جيّد، إذ ظللنا مستيقظين حتّى تناولنا فطور الصباح.

وتقدّمنا محمّد وهري بعد الظهر لاستكشاف الطريق الصحيح، لأنّ السبيل كانت وعرة المسالك. وسارت القافلة في منتصف الساعة السادسة وقلّ الماء، وبدأ يأسنا وظهر على الجمال الضعف والتعب. وكنّا في شوق شديد إلى الوصول إلى وادي إردي بأسرع ما يمكن، ولم نكد نبدأ السير حتّى وجد بوكارة وأرامي (وهو غير ذلك الذي هام في الصحراء واختفى، ولكنّه مثله قتل رجلاً آخر) أثر ورن[1] «برص» كبير فتتبعناه إلى جحره، ورحنا نبحث عنه فكان في ذلك تسلية لنا، ولكنّنا وجدنا الجحر خالياً، فتتبعنا أثر الحيوان إلى كوم من الصخور، وظللنا نبحث عنه عشرين دقيقة حتّى أمسكناه.

وتجدر الإشارة الى أنّ البدو والعبيد يتّخذون من دهن الورن دواء للروماتيزم، ويزعمون ان من يحمل رأس هذه الزاحفة يأمن شرّ السحر، وأن جلدها إذا علّق في بيت لا تدخله الثعابين. والورن لا يعض ولا يلدغ ولكن ذيله الّذي يشبه السوط يؤذي كثيراً. وقد سلخ ارامي ذلك الورن وأعطاني جلده. وتبعنا الأثر الّذي تركه دليلنا ولكنّنا فقدناه مرات عديدة في الظلام وأضعنا وقتاً في إيجاده، ورأيتُ أخيراً أنّ خطّ ذلك الأثر لم يكن مستقيماً. وبالتالي تبيّن لي أن محمّداً لم يكن واثقاً من صحّة الاتجاه الّذي اتخذه، فأمرت الرجال أن يحطّوا الرحال وتطلق النار في الفضاء. وبعد ذلك بقليل انضمّ إلينا محمّد وهري، وكانا فرحين بقراري التوقّف عن السير، وأخبرني الدليل أنّه لم يكن في مقدوره تعرّف الطريق في الظلام وإنّنا بالرغم من هذا لم نكن بعيدين عن البئر.

وكانت هذه أول مرّة، منذ أن تركنا العوينات، قد نمنا نوماً عميقاً متواصلاً مدّة خمس ساعات. وقد حادثت أرامي قبل أن أنام عن إردي وآبارها، فقال: «إنّ محمّداً دليل ماهر في النهار، ولكنّه مسنّ لا يرى جيداً في الليل. زد على ذلك أنّه لم يطأ هذه البلاد منذ سنين، وكان يجب أن نصل البئر الأولى هذا المساء ولكنّنا أخطأنا موقعها، والله أعلم». فطلبت منه ألا يخبر الرجال شيئاً من هذا، حتّى لا يخافون ويلومون محمّداً.

وجهّزت كيس النوم وجلست أفكّر، فقد كانت هذه اللحظة أكثر لحظات الرحلة بعثاً على اليأس، وفقد الرجال الثقة وقاسوا كثيراً من اشتداد الحرّ. وكانت الجمال خائرة القوى لهذا السبب كذلك، ولم يكن الدليل واثقاً من طريقه. وكان الماء قد بدأ يشحّ، وأيّ ظرف

(1) ورن: varan حرذون كبير، قريب من الضب، وأبو بريص أصغر منه حجماً. يُعرف بالعربية الفصحى بالورل.

من هذه الظروف كافٍ وحده لإنشغال البال، ولكنّ كلّها مجتمعةً تهدّ الأعصاب وتفتك بالعزيمة والثبات والصبر.

وبينما أستعرض هذه المصاعب والمخاطر، خطر بفكري أن ارامي المجنون وملكني الّذي ذهب يلتمسه لم يظهرا بعد، فوجدتني في حيرة وعجب وخشيت أن تكون الأقدار قد أزمعت أن تحرمني ما كنت قادراً على القيام به. وكانت هذه فرصة مناسبة كي تغدر بي الأقدار، فإنّني لو كنت أخطأتُ موقعي أركِنو والعوينات لما كان وقع فقدهما عليّ بهذه القسوة. أمّا وقد قطعت اكبر شقّ من رحلتي، ووصلت إلى غاية أبحاثي وحصلت على جلّ النتائج الّتي أردتها منها، فقد دبّ في نفسي الحنين إلى وطني وتعلّقت بأهداب الحياة، خشية على تلك النتائج أن تقبر معي، ورغبة في العودة بها إلى بلادي. وفكرت طويلاً، ثمّ قلت لنفسي: «الله أعلم». وظننتُ أنّني لن أستطيع النوم في تلك الليلة، ولكن سحر الصحراء بدأ يفعل فعله في نفسي، فثقلت أجفاني وغلب عليّ النوم.

الثلاثاء 15 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الرابعة فرافقتُ محمّداً وهري وانطلقنا نتعرّف الطريق، فوقع نظرنا بغتةً على منظر تلال إردي الحمراء وتأكدت ذلك بواسطة منظاري، ولم تمض بنا ساعة حتّى سرنا صوبها. وتناقشنا، قبل البدء في السير، في ما إذا كان الأنسب أن ننصب الخيم فوق التلال المشرفة على الوادي الّذي توجد فيه البئر، أو ننحدر إلى ذلك الوادي فنقيم فيه. وكان الانحدار إلى الوادي متعباً للجمال، ومع ذلك فقد قرّرنا أن نحط الرحال فوق أرضه، فإنّ ذلك على الأقل يبقينا بالقرب من موارد الماء، إذا هاجمنا قطّاع الطرق.

وأخذنا نمشي في دروب وعرة بين الصخور الحمراء حتّى وصلنا قمّة صخرة عالية، فبدا لعيوننا وادي إردي البديع ممتداً تحت أقدامنا، وهو واد ضيق يبلغ طوله عشرة كيلومترات وعرضه مائة متر، وتكتنفه صخور من الحجر الأحمر. وكان ذلك الوادي مثلاً واضحاً للواحة الواقعة في الصحراء، فإنّ أشجاره وحشائشه الخضراء تبعث السرور والطمأنينة، بعد قطع تلك الصحراء العارية ذات الصخور الوعرة التي قاسينا فيها الأخطار، منذ أن تركنا العوينات.

وبينما كنّا نتقدّم إلى البئر سبقنا محمّد وهري للتعرّف على الأرض. والعبيد شديدو

الاحتراس، فإذا وصلوا الى بئر ما، لا يهرعون إليها دفعة واحدة، بل يرسلون رجلاً أو رجلين للتحقق من وجود أحد بالقرب منها، والتأكد ما إذا كان صديقاً أو عدواً. ولذلك لم يكن تقدّم الدليلين لتعيين الطريق التي يجب اتّباعها فحسب، ولكنّه فوق ذلك للتحقّق مما إذا كنّا في حاجة إلى التأهب للدفاع عن أنفسنا، عند اقترابنا من البئر. وانحدرنا بعد جهد شديد في الطرق الوعرة إلى الوادي، ثمّ نصبنا الخيم في جانبه الشمالي. وتقع البئر في أقصى الجنوب، ولا طريق سهلة إليها من رؤوس التلال إلا التي اتّخذناها. وتناولنا طعاماً شهياً من الأرز والخبز الطازج، وشعرنا بطرب شديد كأنّنا في حفلة زفاف.

وتبدّدت الأفكار السوداء التي تملّكتني الليلة الفائتة كأنها كابوس شديد، وإن لم تخل من حقائق كثيرة، فإنّ الحدّ الفاصل في الصحراء بين النجاة والهلاك كثيراً ما يكون رفيعاً جداً. وبعد أن احتسينا ثلاثة أكواب من الشاي في بطء واستمتاع، ذهب الرجال بالإبل إلى البئر يسقونها ويأتون بالماء للقافلة. وعادوا بالماء فحلقت ذقني واستحممت وغيّرت ملابسي، فاطمأن بالي وهدأ خاطري، وابتسمت لي الحياة مرّة أخرى.

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر تسلّقت حائط الوادي مصطحباً التيودوليت، وقمت بتدوين بعض الملاحظات. وذهب السيّد الزروالي مع السنوسيّ أبي حسن وأرامي لإصطياد الودّان، وهو غنم الجبال، ولكنّهم عادوا غير موفّقين في صيدهم. وقد سألت أرامي عمّا إذا لم يحسِنوا الرماية فأجابني: «أبداً والله، لقد أحكمنا الرماية، ولكن الله رأف بالودّان».

وأرخى اللّيل سدوله على قافلة تضمّ جمالاً مستريحة ورجالاً طربين مردّدي الغناء، فشعرت أنّ الأحلام الجميلة ستراودني في هذه اللّيلة.

الفصل الثامن عشر
دخول السودان

استيقظتُ باكراً لفتح صندوق الأفلام (الشرائط) ووضع أفلام جديدة في آلات التصوير، والجوّ ما زال بارداً. وفي الساعة السابعة، أردتُ زيارة البئر مع محمّد وحمد. ووادي إردي من النوع الّذي يسمّونه (كركور)[1]، وهو منخفض طويل ضيّق بين التلال، متعرّج كالثعبان. ويمتدّ صوب الجنوب على مدى سبعة أو ثمانية كيلومترات، وينتهي عند طريق مسدود توجد فيها البئر في جوف مظلّل تحت الصخور. والعين على شكل نصف دائرة يبلغ طولها 12 متراً وعرضها 6 أمتار، وهي كعيون العوينات، وأغلب الظن أنها، فوق ما تتلقاه من مياه الأمطار، يمدّها نبع خفي. والطريق إليها صخرية لا تخلو من الخطر، فقد تعثر بها أحد الجمال التي أرسلناها في الليلة السالفة، فناله ضرر كبير.

وتسلّقنا الصخور إلى العين فاسترحنا وشربنا الشاي، وعدنا تحت شمس محرقة. والوادي بديع بجدرانه القائمة من الحجر الأحمر والحشائش الخضراء والأشجار المنتشرة في سفحه. وقال لي محمّد إنّه الوادي الأكثر وعورة بين أودية هذه الجهات. فدخوله شاقّ، ولذلك كان الدفاع عنه سهلاً. وعند العصر تسلّقت حائط الوادي لأرقب الغروب الجميل، وأرى لعب الأضواء على الرمل الأحمر والصخور الورديّة اللون.

وقصّ الرجال شعورهم، وأصلحوا لحاهم، واغتسلوا، ورتقوا ثيابهم التي كادت تتهرأ. وكانت المراعي كافية لجمالنا، فرأينا من الحكمة أن نستريح ذلك اليوم، ونستعد للرحيل. وأخبرني محمّد وهري أنّ السفر بعد ذلك لا يستحسن في الليل، لأنّ اجتياز التلال في الظلام غير مأمون. وأثنى البدو على كلام محمّد، لما رأوه بالأمس من قيادته الجمال من قمة الصخور العالية إلى الوادي.

---

(1) الكُركُور والمرمورة (بضم الكافين): الوادي العميق القعر (المترجم)

وأكثر الكلب من النباح في المساء فظننا أن أحداً اقترب أحد منّا، وأطفأنا النار على عجل وجمعنا الجمال، وأعددنا البنادق ونصبنا العسس حول الخيام، ولكن إنذار الكلب كان كاذباً. وقد يبدو اتخاذ مثل هذه الاستعدادات عند الاقتراب من بئر – سخيفاً بعد زوال الخطر، إلا أن القافلة التي لا تتّخذ مثل هذه التدابير في أرض مجهولة تكون قافلة مغفلة، فإنّ مهاجمة البدو المعادين او اللصوص أمر في حكم المحتمل.

الخميس 17 **مايو**:

إستيقظنا عند الساعة الرابعة وسرنا في منتصف الساعة السادسة، وكان خروجنا من الوادي أمراً لا يقلّ صعوبة عن نزولنا إليه، فقد سقط أحد الجمال ولم يصبه ضرر كبير، لحسن الحظّ. وقد ادرت بصري إلى الوادي عند وصولنا إلى نهايته، فتحققّت من الفرق بين أودية هذه الجبال وأودية أركِنو والعوينات، التي تكون أرضها على مستوى السهل الخارجي، بحيث يسهل على المسافر ان يدخل الوادي من مضيق يشبه ممراً. ولكنّ اودية هذه الجهات منخفضة عن مستوى الأرض، ولا يستطيع المسافر أن ينزلها إلا بالهبوط المتعرّج في طرق صخرية.

وقضينا ساعة في الخروج من الوادي، ثمّ سرنا صوب الجنوب الشرقي. وكنّا في جهة جبليّة تكثر فيها الصخور السوداء والحمراء، فتبينت لنا استحالة السير في هذه الأرض في الظلام. وفي منتصف الساعة العاشرة نزلنا وادياً ضيّقاً مخترقين طريقاً سحيقاً، فوقع جملان ورميا بأحمالهما على الأرض، وكان أحدهما يحمل الماء، إلا أن عبد الله كفانا اندلاق القرب من خلال ذهنه المتوقد، فأخرج سكينه بسرعة وقطع حزام قتب الجمل. وسقطت سدادة احد الفناطيس فسال مقدار ثلاثة أرباع من مائه، ولكنّ البئر التالية كانت على مسير ثلاثة أيّام لحسن الحظّ، وكان لدينا من الماء ما يكفينا لأكثر من ذلك. ولربّما كانت هذه الحادثة كارثة عظيمة، لو كانت المسافات بين الآبار أبعد من ذلك.

وحدث لنا هذا الصباح حادث فجائي كاد يؤدي إلى نتائج وخيمة، لولا أن أمرين ساعدنا الحظّ فيهما. فقد كان احمد، وهو الطاهي الذي رافقني من مصر، راكباً جملاً من غير رسن، وقد سأل حامداً جمّال أبي حليقة أن يحضر له رسناً، فأبطأ هذا معتمداً على معرفته بالجمال، ومعتقداً أنّ الجمال كانت خائرة القوى، وأنها كانت بحاجة شديدة إلى

الرعي وهي سائرة، إلا أن جمل أحمد رأى بعض الحشائش فأسرع نحوها ماراً تحت شجرة كثيرة الأشواك. ولم يسع أحمد تفادي هذه الأشواك الحادّة فتعرض لخدوش كثيرة آلمه وخزها، فصبّ جام غضبه على الجمل فلعنه ولعن صاحب الجمال، فرد عليه حامد فوراً بالمثل، وطلب منه عدم لعن صاحب الجمال الشريف. وكنت قريباً منهما، فلم يسعني إلا الإعجاب بالجمّال ووفائه لسيّده أبي حليقة.

ونزل أحمد بسرعة البرق عن جمله، ثمّ تقدّم غاضباً إلى حامد والدم يسيل من وجهه، واندفع السنوسي أبو حسن وحامد الآخر وسعد الأوجلي، فانضموا إلى جانب اخيهم البدوي، ووقف عبد الله إلى جانب احمد يعضده. ولم تكن هذه أولى المشاجرات التي رأيتها بين رجال الصحراء، فدفعتني خبرتي إلى أن أتبيّن قبل كل شيء موضع البنادق لأطمئن على وجودها بعيدة عن أيدي الرجال. وقد استراح بالي عندما رأيتها في موضعها مربوطة إلى ظهور الجمال، ولم يكن في أيدي الرجال إلا العصي يتضاربون بها. ومع ذلك فقد كانت الحاجة ماسّة إلى التدخل السريع قبل أن يتفاقم المشكل، فحثثت جوادي بين الرجال ووقفت بين فريقي المتخاصمين، وأمرت عبد الله وأحمد أن يتراجعا. وكانت ساعة عصيبة أحسست بخطرها، وأنا أقف بين رجالي ورجال القافلة، والتفت إلى السنوسي أبي حسن وحامد، فلحظت انّهما يصوّبان نظراتهما إلى موضع البنادق.

كانت كلمة تشجيع واحدة منّي تكفي ليهلك رجلاي، لأنّ البدو كانوا أكثر منا عدداً. ومن الوجهة الأخرى لم يكن مناسباً إذلال رجليّ أمام البدو، وإن كانا مخطئين. فالتفت إلى الفريقين وقلت غير متحيّز إلى أي جانب: «ماذا تعنون بهذه الأفعال الصبيانية، ألا تخجلون من هذا العمل وأنتم رجال؟» فبدأ حامد الكلام وقال: «إنّه أهانني»، فقاطعه أحمد قائلاً: «إنّه البادئ بالتحدي». فأجبتهما بحدّة: «لا يعنيني من القاذف ومن المهان، فأنتم جميعكم رجالي، ومن العار أن تتخلّقوا بأخلاق الأطفال».

وهنا تقدّم السيّد الزروالي، والتفت إلى عبد الله ثمّ إلى السنوسي أبي حسن، وقلت بشدّة: «وانتما ايّها الشيخان العاقلان أتنضمان إلى هذه المشاجرة المزرية، بدلاً من أن تسعيا إلى التوفيق بين المتخاصمين؟ وبعدُ فقد يكون الذنب ذنبي لأنّي اخترت لقافلتي أطفالاً، بدلاً من الرجال».

وكانت ثورة الفريقين قد أخذت في الهدوء، وتراجعت تلك النظرات الحادّة الّتي كانت متحفزة للهجوم. ورأى الزروالي عدم تحيّزي لرجليّ (وأحسبه كان يتوقّع عكس ذلك)، فلم يجد ما يأخذه عليّ، وفعل ما لم اكن أتوقعه منه، فقد أمر العبد فرج أن يلقيَ حامداً أرضاً لأضربه بسوطي، فلم تمض لحظة عين حتّى ألقى فرج حامداً على الأرض ووضع ركبته فوقه، فضربه السيّد الزروالي سوطين قبل أن أتدخل في الأمر، فترجّلت بسرعة وأمسكت ساعد الزروالي، قائلاً له: «إنّ الأمر لا يحتاج إلى إنزال عقابك فنحن لا ندري من هو المذنب، وسأتأكّد من الأمر وأعاقب بنفسي من تظهر إدانته». ثمّ التفتُ إلى الرجال وأمرتهم أن يتبعوا الجمال، وأشرتُ بعصاي إلى محمّد وهري اللذين سعيا الى عدم التدخّل في هذه المشاحنة، وأمرتهما ان يهديانا السبيل.

وانتهى كلّ شيء وسرت وحيداً، محاولاً أن أعرب للجميع عن عدم رضاي لما حدث. واقترب منّي السيّد الزروالي ثمّ سألني، وفي صوته رنّة أسف: «أظنّ أن غضب البيك مما حدث قد هدأ، ويعلم الله أنّني منذ استيقظت هذا الصباح وأنا أشعر أن شيئاً يضيق على أنفاسي، فتوقعت حدوث أمر سيّئ، وقد رأيت ذلك الإحساس في نفسك عندما بادلتني تحيّة الصباح.

ولم يمض زمن طويل حتّى شعر الفريقان بما يشعر به الأطفال الأشقياء بعد أن يتشاجروا. ولاحظتُ أنّ الرجال يختلسون النظرات إليّ ليتأكدوا إن كنتُ لم أزل غاضباً، ولكنني بقيت عابساً حتّى ساعة الغداء. ولا يخفى على من اجتاز الصحراء تلك النتيجة السيئة التي تسببها مثل هذه الحوادث، فإنّ لفظاً قاسياً يدل بطريقة أو بأخرى على إهانةٍ ما، يكفي لتبادل النار، لو كانت البنادق في متناول الأيدي. وأعتقد أنّها، لو كانت في أيدي الرجال وكنت على بعد قليل منهم كما هي الحال في أغلب الأحيان، لسالت الدماء وخرج الأمر من يدي، وقضى البدو على أحمد وعبد الله. وفي هذه الحال أسأل نفسي: كيف كان يمكن أن أتصرف أنا المصري؟ ألا أثأر لنفسي من قتلة مواطنيّ مهما كلّفني ذلك من ثمن؟ ولكنّي حمدت الله على أنّ البنادق كانت مربوطة إلى ظهور الإبل، وإنّني كنت على مقربة من المتقاتلين.

وراح السيّد الزروالي يهوّن الأمر عليّ، فقال: «إنّنا نقترب من نهاية الرحلة، والرجال

عادة في هذه المواقف ميّالون إلى الشجار». ولم تكد تنتهي هذه الحادثة الخطرة حتّى اشتدّت حرارة الشمس، فحططنا الرحال في الوادي في ظلّ بعض الأشجار اليانعة. ورعت الجمال، بينما كنّا نأكل ونستريح. وجاءني بعد الظهر، قبل البدء في السير، محمّد والسنوسيّ أبو حسن وبوكارة وحامد الجمّال يسألونني أن أسامح حامد على مهاجمته أحمد مدفوعاً بغضبه. وسامحت حامداً على الفور، فتقدّم إلى أحمد وقبّل رأسه، وبادله أحمد بالمثل. وانتهت تلك المشاجرة، كما تنتهي مشاجرات البدو على أصفى ما يكون.

وانحدرنا إلى الوادي الكبير في غضون ثلاث ساعات، ثمّ نصبنا الخيم عند مدخله في الساعة السابعة والربع. ورأينا أمامنا، قبل حطّ الرحال، جبال أجاة البعيدة حيث توجد البئر التالية. وكانت الأرض أمامنا منبسطة فبعثت الراحة في نفوسنا. فقد خيّل لنا في الوادي أنّ حوائجنا قد تحطّمت، على أثر تلك المنحدرات السحيقة العديدة. وكانت المنحدرات في بعض الأماكن وعرة الى درجة اضطررنا معها إلى رفع الأثقال عن ظهور الإبل خوفاً عليها من التحطم. وكان على الرجال أن ينزلوا بالحوائج فوق الصخور المنحدرة التي يرتفع بعضها عن بعض، في كثير من المواضع، نحو ثلاثة أقدام.

وطلع القمر ونحن ننصب الخيام، وكان عيد الفطر في اليوم التالي. وجاءني السيّد الزروالي يبلغني رغبة الرجال في الاحتفال بالعيد وفقاً للتقاليد الإسلامية، فرضيت كلّ الرضا، لأنّ جبال أجاة كانت على مرأى منّا، وكان زادنا من الماء كافياً، وكانت مراعي الوادي كثيرة الحشائش المغذّية للجمال.

وفي اليوم التالي إستيقظنا باكراً، وكان يوم الجمعة 18 مايو، فلبسنا الثياب النظيفة احتفالاً بالعيد وتبادلنا التهانئ، ثمّ أدّينا صلاة العيد. وكان جليّاً في نظرات رجالي أنّهم كانوا يفكّرون في الأهل والإخوان البعيدين في الأوطان النائية، وأخرجت قطعاً من الريالات المجيدية وأوراقاً مالية مصرية فوزّعتها على الرجال. وكانت النقود من نصيب محمّد وهري وحسن وأرامي لأنّهم سيتركوننا، قبل أن نصل أرضاً يتعامل فيها الناس بالأوراق المالية المصرية. وأخذ بقيّة الرجال الأوراق المالية، لأن في استطاعتهم صرفها في الفاشر. وأعطيت الزروالي عشرين طلقة من طلقات المسدّس وزجاجة عطر، ووزعت زجاجات أخرى على الرجال. وأعطيت بوكارة غليوناً وتبغاً، فأظهر لي عجزه عن الشكر

على ما تفضّلت به عليه، وقال: «ليس لي إلا جملي والملابس التي أرتديها وقد أعطاني البيك قيمة جملي تبغاً».

وكانت القافلة مرحة في الصباح. وكان الرجال فرحين بالهدايا، فسرّني ما هم عليه من رضا. ونمنا بعد الفطور، ولكنّنا استيقظنا بسرعة بسبب فتك النمل الأبيض بأجسامنا. وبدأنا السير عند الساعة السادسة إلا ربعاً، وخرجنا من الوادي إلى السريرة بعد ذلك بنصف ساعة. وكانت تمتدّ أمامنا سلسلة تلال شرقاً وغرباً، وكان في وسطها جبل أسلنجاة، وعن يمينها جبل أجاة الّذي كنّا نقصده. وأخبرنا هري بوجود بئر يصعب الوصول إليها في جبل أسلنجاة. وكان الوادي الّذي نصبنا فيه الخيام يتميّز بوجود أشجار على الجانب الأيمن من مدخله. وكان يوماً شديد الحرّ فسرنا ببطء مدّة ستّ ساعات، ثمّ وصلنا منطقة مليئة بأكوام الرمل، فتوقفّنا عن السير ليلاً.

السبت 19 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الخامسة والربع صباحاً وسرنا حتى الساعة الثامنة مساء. وهبّت من التلال المجاورة رياح ساخنة من الشمال الشرقي، وهدأت عند المساء. وكان سيرنا فوق أرض ناعمة الرمل كثيرة التموّج مغطاة بالحشائش الجافّة، وانبسطت الأرض أكثر من ذي قبل عند اقترابنا من التلال وكثرت فيها أكداس الحجارة السوداء الصغيرة، واشتدّت حرارة الشمس بسرعة في الصباح وهبّت رياح ساخنة، فنصبنا الخيم في منتصف الساعة العاشرة في ظلّ إحدى الأشجار، فراحت أنظارنا تسرح في عناقيد ثمرها الأحمر. وعاودنا السير ثانية في منتصف الساعة الرابعة على الرغم من اشتداد الحرّ، آملين أن نصل جبال «أجاة» قبل انتشار الظلام، واضطررنا إلى ضرب الجمال لإرغامها على الخروج من ظلّ الشجر والسير بها في الهجير، ولم يحن منتصف الساعة الثامنة حتّى كنّا عند سفح التلال والقمر بدأ يطلّ.

وصاح محمّد بغتةً منذراً ومحذراً، فقد رأى آثاراً حديثة لرجلين يسيران صوب «مردى». وكان محقاً في ذلك، لأنّ وجود غريب عن القافلة في الصحراء أمر يستلزم اليقظة حتّى يتبيّن الأمان منه. وسرعان ما انتزعت البنادق من أماكنها ولقمت بالرصاص، وجمع الرجال ما تفرّق من الجمال الّتي راحت ترعى. وتقدّم محمّد وهري والسنوسيّ

أبو حسن إلى الوادي يتفحصون الأمر. وبعد البحث الدقيق عادوا فأخبرونا أنّهم لم يجدوا أثراً لداخل إلى الوادي، وإنما وجدوا آثاراً حديثة لخارج منه. فنصبنا الخيم عند مدخل الوادي في الفسحة بين الأشجار والنباتات، حتّى لا تفوتنا رؤية من يقترب منّا في الليل. وتناولنا العشاء على عجلة ثمّ أطفأنا النار، ووضعت الجمال والقرب في وسط مضرب الخيم وصفّت الحوائج حوله، ووقف أربعة من حراس الليل ثمّ ذهبنا إلى فراشنا، وتعذّر علينا النوم لشدّة الحرّ وانشغال البال.

وإستيقظنا باكراً في صباح الأحد وتقدّمنا إلى الوادي محترسين، فعثرنا على آثار حديثة لرجال وقطعان. وكنا على ثقة أنّ أحداً كان يخيّم قبلنا في الوادي. وسبقنا محمّد وهري لأنّ سكّان تلك النواحي كانوا من قبيلة الجرعان، فقابلتهم ثمّ تبادلنا عبارات الأمان، وتقدّم كلّ منا إلى الآخر بعد أن ألقينا على الأرض ما كنّا نحمله من سيوف وبنادق وخاطبتهم بهذه الجملة: «أقسم بالله أنّنا مسالمون وأنّنا لا نريد إلحاق أيّ ضرر بكم، وأنّنا لا نقصد سبي نسائكم وأولادكم». وأجابني أحدهم بمثل ما قلت، ثمّ أخذنا في تبادل الأسئلة والأجوبة القصيرة، مثل: «من أنتم ؟»، «من أين قدمتم؟»، «أين تذهبون؟ وأيّ غرض تقصدون؟»، ثمّ شددنا على الأيدي وحمل كلّ منّا سلاحه ورجع إلى موضعه، وحاولنا أن نشتري منهم غنماً، ولكن رفضوا أن يبيعونا شيئاً. وتركونا بعد قليل، ثمّ عادوا بثلاث نعاج وقدّموها لنا مثابة ضيافة من دون ان يتقاضوا أثمانها، فأعطيتهم «عتقية» من القماش الأزرق ففرحوا بها كثيراً.

وأرسلت الجمال لتشرب من البئر وتحمل الماء للقافلة، بينما كان الرجال يستعدّون لتجهيز الوليمة العظيمة. واشتغلت بعد الظهر بالتقاط بعض الصور. وفي المساء قمتُ بتدوين بعض الملاحظات بآلة التيودوليت. وقد فزع أطفال الجرعان من رؤية مصباحي الكهربائي الّذي أستعمله في قراءة التيودوليت، ثمّ ما لبثوا أن وجدوه مسليّاً.

ووادي أجاة بديع المناظر، وهو طريق طويل ضيّق بين الصخور العالية، يحوي من الأشجار والنباتات اكثر ممّا رأينا فيه من بعيد، وفي منتصفه تقريباً يتفرّع إلى طريقين: يؤدّي أحدهما إلى البئر، والآخر إلى الصحراء الممتدة. وبئر أجاة مشابهة لبئر إردي، ولكنّ مياهها عكرة بسبب الغنم والجمال. والطيور كثيرة في هذا الوادي، تذكّر أغانيها الشجية

بمختلف الأصوات الجميلة التي تنبعث من أقفاص الطيور في حدائق الحيوانات.

وعندما استيقظنا، كان الظلام شاملاً والنجوم ساطعة في سماء صافية. وجاء الجرعان يودّعوننا. وأبى آرامي وحسن أن يستمرا في السير معنا إلى الجنوب أكثر من ذلك، وتركانا ليقصدا العوينات على جمل آرامي. أما نحن فقد انحدرنا إلى مفترق طرق الوادي من الجهة الشرقية، تحمينا جوانبه من حرارة الشمس. وأبصرنا ثلاثة غزلان في طريقنا فانطلق أحد الرجال محاولاً اصطيادها، غير أنّه فشل في ذلك. وسخر منه أصحابه شامتين ولكنّه أبى أن يقرّ بخيبته فأقسم قائلاً: «والله لقد أصبتها، ورأيت الدم يسيل منها». ولم أهتمّ بالأمر كثيراً، لوجود كميّة من اللحم كان قد أهداها إلينا الجرعان.

واشتدّ الحرّ بعد ذلك، وأبت الجمال أن تسير ولم يمرّ على سقيها وقت طويل، فحططنا الرحال في ظلّ شجرة، ولم يكفنا ظلّها فرأينا الأفضل أن نستظل بشقوق الصخور. وانطلقت الإبل ترعى وأخذ الرجال في إعداد الغداء، وذبحت النعاج، ثمّ قُلّبت ببطء فوق النار كعادة البدو في شيّ اللحوم التي استمتعنا بتناولها. وبينما كان الرجال يعدّون الطعام جرح سعد يده ورأيت دماً، فسألته كيف أصيب بذلك، فأجابني بوكارة: «من رشاش دم الغزالة التي أصابها حامد». وضحك الرجال ملء أفواههم مرّة أخرى.

وبعد الغداء، أمضيتُ وقتي في تثبيت ما ظهر على البارومتر والترمومترات ذات الدرجة القصوى والدرجة الصغرى،كما كتبتُ يوميّاتي، وجاءني حامد يعدو ليخبرني بوجود قطيع من النعام على مقربة منّا. فأخذ كلٌّ بندقيته وقام مستعداً للصيد. وبعد ذلك بقليل ظهر قطيع من ثلاثين أو أربعين نعامة، وتحمّس الرجال فلم ينتظروا حتى يقترب القطيع، وأطلقوا النار على مسافة بعيدة فاندفع النعام في واد آخر، وتعقّبها الرجال مسرعين وأرسلت طلقات عديدة، ولكنّ الزروالي عاد وأخبرني أن الرجال لم يتمكّنوا من إصطياد شيء.

وبعد قليل جاء حامد يحمل نعامة صغيرة وتبعه السنوسيّ أبو حسن، وادّعى كلّ منهما أنّه اصطاد النعامة، وطلبا مني أن أحكم في الأمر، نظراً لوجود جرحين في جسمها يحتمان أن يكون كلّ منهما قد أصابها. وسألتُ رأي من حضر الصيد من الرجال، فاتّفقوا جميعاً أنّ من اصطاد النعامة هو حامد، فحكمتُ لمصلحته. وقام الجمّال حامد بعد ذلك بعمل طريف شديد الغرابة. وحامد هذا نحيف، وجسمه حادّ التقاطيع لا يخاف الحيوانات ولا

يخشى الثعابين. حدث له أن عثر بنعامة في ناحية مقفلة من الوادي فقذفها بالحجارة، وعندما لم ينل منها هجم عليها ولفّ يده حول عنقها وصارعها صراع الأبطال، ولكنّها رفسته برجلها القويّة رفسة شديدة في خاصرته وانطلقت هاربةً، ثمّ أدارت بصرها بازدراء إلى حامد الّذي كان واقفاً يلعنها. وبعد ذلك أصلحت ريشها، وانطلقت فخورة بانتصارها فرحة بنجاحها، تاركةً حامد ضاغطاً بيده على جنبه المرضوض.

وعاد حامد فسألته: «هل آذتك النعامة؟» فأجابني وقد رفع يده عن جنبه بسرعة: «لا»، وسألته ثانية: «ولماذا لم تأت بها؟» فقال معتذراً: «رأيتُ من واجبي أن أطلقها لأنّها كانت أنثى».

وممّا أسفتُ له في هذه المرحلة أنّني لم أتمكّن من متابعة الصيد كما كنتُ أودّ، فإنّ السير ليلاً بين العوينات وإردي لم يُبقِ لي في الصباح إلاّ بعض النشاط لتدوين ملاحظاتي العلمية، وانتهاز الفرص للنوم ساعتين أو ثلاثاً قبل اشتداد الحرّ.

وبدأ زادنا يتناقص فلم يسعني أن أقيم في أجاة حيث تكثر الغزلان والنعام والنعاج البريّة. وزادتني رغبة في الرحيل قلّة الماء بعد أن رأيت رداءة ماء البئر من أثر الحيوانات، ولم يكن معي إلا بندقية مصريّة من طراز «مارتيني» وأخرى من بنادق الفرسان الإيطالية، أُهديتُها في الكُفرة، وهاتان وإن كانتا صالحتين في الدفاع عن النفس إلا أنهما كانتا عديمتي الفائدة في الصيد من البعيد، ولذلك حرمتُ نفسي لذّة الصيد.

وكان الجوّ شديد الحرّ فلم نبدأ السير إلاّ عند الساعة الخامسة مساءً، فسرنا في الوادي الجميل مدّة ساعة، ثمّ أخذنا نتسلّق التلال، وعندما وصلنا قممها رأينا منظراً بديعاً، امتزجت فيه ظلال الأشجار والأدغال بلون الرمال الوردي وحمرة صخور التلال الّتي تكتنف الوادي. وكان نسيم المساء العليل يحمل على أجنحته أنغاماً عذبةً تنبعث من أسراب اليمام. وزاد هذا المنظر جمالاً وانطباعاً في الذاكرة غروب رائع امتزجت فيه الحمرة باللّون الذهبيّ، فأوقفتُ حصاني وترجّلت ثمّ استلقيتُ على قطعة من الرمل الناعم، وقضيت نصف ساعة أتأمّل جمال ذلك المنظر الخلاّب.

ولفّ الكون الظلام وطلع اللبدر، وسمعت عن بعد بدو القافلة يغنّون فعدت إلى نفسي وقمت ألحق بالقافلة، وفي نفسي ميل إلى البقاء. واختلفت مناظر الأرض، فأصبحت

متموّجة كثيرة الشقوق تحيط بها تلال جرداء وبعيدة.

وكان الرجال كما الجمال يشكون من ماء أجاة العكِر. ولهذا السبب حططنا الرحال مبكّرين، ولخطورة السير في نور القمر الباهت. ونزلنا وادياً ناعم الرمل يبعد عن سبيلنا نحو مئتي متر، ونصبنا الخيم.

وعندما إستيقظنا يوم الثلاثاء 23 أبريل كانت النجوم لا تزال ساطعة في السماء، فبدأنا بالمشي وإلى يسارنا يشعّ الشروق بأبهى ألوانه. وكان سيرنا بطيئاً لأنّ الأرض كانت مغطّاة بالعوسج ونثار الحجارة، ولأنّ محمّداً وهري لم تطأ أقدامهما هذه النواحي منذ عشر سنين، فكانا شديدي الحذر في سيرهما. وبينما نحن نسير التفتُّ إلى حامد الجمّال، وأنا أمشي في مؤخرة القافلة كعادتي للتحقّق من اتّجاه المسير وتدوين مذكّراتي، ثمّ سألته: «أظن أنّ الدليل محمّداً يمتطي جمله وإلا لما سرنا بهذا البطء؟» فأجابني حامد الذكي ـ الحذق بسرعة قائلاً: «إنّ الشيخ سائر على قدميه يا سيّدي البيك، فإنّني أرى أثره فوق الأرض».

وأدهشتني ملاحظة البدو الدقيقة، وخبرة الجمّالين، فإنّ حامداً ميّز آثار أقدام رجال القافلة، ولا عجب إذا تعرّف الى مواطئ جمالها كذلك.

وإستيقظنا باكراً في اليوم التالي وبنا شوق شديد للوصول إلى بئر عنيباة، فإنّ ماء أجاة كان الأكثر رداءة الذي شربناه في هذه الرحلة، وقد بانت آثاره السيئة في الرجال والجمال. ولم تمض ثلاث ساعات حتّى كنّا على حافّة الوادي الّذي تقع فيه البئر ونزلناه، فاستدللنا على وجود سكّان فيه من آثار الناس والغنم والحمير. وتقدّمنا محمّد لمقابلة هؤلاء الناس وتبادل عبارات الأمان معهم، ثمّ حططنا الرحال على مقربة من البئر، وكان ماؤها عذباً فتلذّذ به الرجال والدواب. وكان في الوادي مضرب خيام كبير لرجال قبيلة البِديات يحوي مئات رؤوس الغنم وبعض جياد شيوخهم.

ولم يمضِ على إقامتنا قليل حتّى جاء سكّان الوادي لتحيتنا، وعلى رأسهم الشيوخ. وشددت على أيديهم جميعاً، ثمّ قطّرت الروائح الزكيّة في راحاتهم. وأرسلوا إلينا بعد الظهر بعض الغنم هدايا منهم. وعرض علينا نساؤهم، وكلّهنّ محبّات للتجارة، سمناً وجلوداً نشتريها فاستبدلناها بنقود مجيدية وبقماش. وقمتُ بتدوين بعض الملاحظات في المساء.

وفزع رجال البديات من رؤية التيودوليت والمصباح الكهربائي وثارت شكوكهم. ودخل أحد الشيوخ عليّ في خيمتي ففاجأني وأنا أفتح صندوق أجهزتي العلميّة، فأقفلت الصندوق مسرعاً وأدركتُ بعد قليل أنّني لم أكن صائباً بما فعلتُه، فقد لاحظت في وجهه المكفهر وعينيه المصفرتين المتقاربتين كعيني الثعلب أنّه اعتقد بوجود ذهب في صندوقي.

وبينما كان يترك خيمتي أمرتُ السنوسيّ أبا حسن وحامد على مسمع منه أن يستعدا لحراسة الخيم، وأشرت إليهما وقلت للشيخ أن ينبّه على النساء والأطفال بعدم الاقتراب من الخيم في الليل تفادياً من أن لا يعرفهم الرجال فيطلقون النار عليهم. وفي الواقع، لقد تصرّفتُ على هذا النحو للإشارة إلى أننّا يقظون وأن لا أمل في انتهاز غفلة منّا، وبالفعل أجدت هذه الإشارة نفعاً.

الفصل التاسع عشر
إلى فراوية على قلّة الزاد

كان وادي عنيباة مغطّى بالرمل الناعم، تنتشر فيه الأشجار والعواسج بين مخضوضر وجاف. وكنت قد نمت نوماً هادئاً، وإستيقظتُ على أصوات نساء البديات يطلبن من رجال القافلة علباً خالية. واستبدلوا ما أخذوا بلبن وأعشاب جافّة يسمّونها طبقاقاً. وأهدونا خمس نعجات على سبيل الضيافة، ووزعنا عليهم بعض الهدايا. وبدأنا السير عند الساعة الثالثة والربع في ظل رياح باردة تهبّ من الجنوب الشرقي، ولكن هذه الرياح هدأت وأصبح الجوّ حارّاً، فخف السير. وكان المساء أشدّ برودة فاستعضنا ما ضاع من الوقت، وكلّما تأخّر الوقت أصبح البرد قارساً أكثر. وإستيقظنا يوم الجمعة 25 مايو عند الساعة الرابعة، وسرنا بعد ذلك بساعة وربع. وكانت الأرض كثيرة التموّج والشقوق، ولم يكن هري واثقاً من السبيل فسرنا في بطء، لوعورة الطريق وحيرة الدليل في تعرّفها. وبعد الساعة التاسعة نزلنا وادياً، ونصبنا الخيم بعد ذلك بسرعة. وكان السنوسيّ أبو حسن يمشي إلى جانبي فأعرب لي عن رأيه في الدليل الجرعاني، وبدا في كلامه زهو العرب بأنفسهم، فقال: «إنّ هؤلاء الجرعان يترنّحون في سيرهم كالجمال، أمّا البدو فيطيرون صوب أهدافهم كالطيور». وكانت الشمس شديدة الحرارة عند استئنافنا السير بعد الظهر، فسارت الجمال ببطء. وكان غناء الرجال متقطّعاً، وقدّرت أنّ سير القافلة أصبح بطيئاً، لأنّ هري كان أشدّ حيرة من ذي قبل. وقد تعقبنا أثر قطيع من الغنم إلى «باو» ولكنّ ذلك الأثر لم يكن ظاهراً في الجهات كافّةً، نظراً لوجود الصخور المهشمّة في الطريق.

وبعد الساعة الخامسة بقليل نزلنا وادياً كبيراً، عرفنا بعد ذلك أنه يطلق عليه اسم «كوني مينا». وكان ذلك الوادي يمتدّ شرقاً وغرباً، وتكثر فيه الأشجار البديعة. وقبل أن نصل إليه بقليل قابلنا أحد الجرعان ومعه بعض الغنم، فتقدّم إليّ وقد ألقى سيفه وحرابه على الأرض وخلع نعليه فتبادلنا الشدّ على الأيدي والتحيّات التي اقتصرت على جملتين: «كيف

حالك؟» و»طيبين»، وهما كلّ ما يعرفه من اللّغة العربية.

وحادثه بعد ذلك محمّد وهري، فعرفا منه أنّ بعض الجرعان نصبوا الخيم في الوادي الذي يقع أمامنا. ولقينا في الوقت نفسه تاجر غنم آتياً من فدا الى واداي بغنمه وبقره في طريقه إلى الفاشر. وتركنا محمّد وهري وتقدّمنا إلى أكواخ القشّ التي يتكوّن منها مضرب خيم الجرعان. وقطعنا الوادي ثمّ حططنا الرحال في جانبه الأقصى.

وجرى خلفنا أحد الجرعان، ثمّ طلب منّا أن نعود إلى خيامهم فنمضي الليلة ونسير في الغد.

فقدّرت عاطفته وكرمه، ولكنّني رأيت أنّنا عاجزون عن تعقّب آثار خطواتنا، ولو لمسافة كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات، فشكرته على دعوته وأخبرته أنّنا على عجلة من أمرنا.

وحططنا الرحال ننتظر رجوع الدليلين، وبعد ساعة عاد محمّد يحمل أخباراً عن فدا والفاشر من ذلك التاجر. وانشغلنا تلك الليلة بفحص بعض أمتعتنا وإصلاح ما فسد منها. وكانت الحبال قد بدأت تتلف ورثّت أكياس البدو الصوفية. وأضعنا وقتاً طويلاً في الطريق في إعادة التحميل ونقل الحوائج من مكان إلى آخر، ولكنّنا كنّا نأمل بالوصول إلى الفاشر بعد أسبوعين. ورأيت في صباح 26 مايو أجمل شروقٍ للشمس في حياتي، فإنّ انعكاس ضوء الشمس الساطع على الصخور المجاورة، بين حمراء وسوداء وعلى التلال البعيدة، جعل كلّ شيء واضحاً جلياً. ثمّ احمرّ لون الشروق وتسلّلت أشعّة الشمس الذهبية بين ثنايا السحب الرقيقة، وغمرت كلّ شيء. وكان انعكاس الظلال المستطيلة للصخور والعواسج المتناثرة فوق الأرض يجعل من صفحة الرمال الصفراء برّاقة. وكانت ظلال القافلة المتعبة في سيرها ترسم على اديم الصحراء أشكالاً غريبة. ولكن سرعان ما تبع هذه المناظر البديعة ضحى ساكن النسيم.

ولحقنا هري عند الظهر ومعه شاة مذبوحة تدلّت أطرافها على جمله، وكانت ضيافة الجرعان الّذين مررنا بهم. وتتبعنا آثار الغنم والجمال وانحدرنا من وادٍ إلى وادٍ، ثمّ نصبنا الخيم في وادٍ كبير تكثر فيه الأشجار الظليلة. وكنّا دائماً حائرين بين الإقامة في ظلّ شجرة نتعرّض تحتها لفتك النمل الأبيض وسائر الحشرات، وبين نصب الخيم تحت الشمس المحرقة، غير أنّني، ومع مرور الوقت، فضّلتُ أن أختار العراء، لأنّ الحشرات لا تبتعد

عن ظلّ الأشجار حتّى تخفّ حرارة الشمس قرابة الساعة الخامسة أو السادسة بعد الظهر. وكان الوادي الّذي نزلناه يسمّى وادي «كاب تركو».

واستأنفنا السير عند الساعة الرابعة، وكان يهبّ علينا نسيم عليل من الجنوب الشرقي، يخفّف عنّا مشّقة السير. وكان في السماء القليل من الغيوم التي تخفّف من حدّة حرارة الشمس، فسارت الجمال سيراً حثيثاً. ومررنا قبل الغروب بأسرة من الجرعان مؤلّفة من رجلٍ وامرأة وولد عاري الجسد. ووجدنا بعد ذلك بئراً يبلغ عمقها سبعة أمتار وتحوي ماء عذباً، وإن غيّرت طعمه جذور شجرة قريبة نفذت إلى قاع البئر.

وحططنا الرحال عند الساعة الثامنة في أرض عراء خالية من العواسج والحجارة. وسطا علينا عند الواحدة بعد منتصف الليل ضبع، ولولا يقظة الجمّال حامد لانقضّ على جوادي «بركة» لأنّه كان مربوطاً إلى وتد لا يمكنه الدفاع عن نفسه. وقد أطلق حامد النار من بعيد على هذا الضبع فأخطأه، ورأيت بمنظاري شبحاً قاتم اللّون يجري بعيداً في ضوء القمر الساطع.

الأحد 27 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الخامسة والربع صباحاً، وتوقّفنا عن السير عند الساعة التاسعة والربع صباحاً. ثمّ استأنفنا السير الساعة الرابعة إلا ربعاً، وحططنا الرحال الساعة الثامنة إلا ربعاً مساءً، فقطعنا 30 كيلومتراً. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 38 وأدناها 7 درجات. وكان الجوّ صحواً هادئاً في الصباح، وهبّت عند الظهر رياح ساخنة من الجنوب الشرقي ومن ثمّ هدأت بعد الظهر، وكان في السماء بعض السحب البيضاء، وكان المساء دافئاً هادئاً. وعند الساعة العاشرة تراكمت الغيوم وأمطرت السماء رذاذاً، ومررنا بأودية ناعمة الرمل تكثر فيها تلال الخراسان الّتي يتراوح ارتفاعها بين 20 و80 متراً. وكانت الأرض الرملية كثيرة الحجارة المتناثرة من الخراسان.

ولم يكن هري الدليل عند حسن ظنّنا به، فقد تنبأ لنا بالوصول إلى «باو» في الصباح، ولكنّ اللّيل أرخى سدوله ولم نكن وصلناها بعد. وكان يعرف المواقع إذا رآها، ولكنّه كان يخطئ في معرفة الجهات الأصلية. ونفد منّا الماء ولم يبق معنا سوى قربة واحدة، وكان ماؤها ساخناً جداً. وظللنا نسير حتّى الساعة الثامنة إلا ربعاً، فسلكنا أرضاً صخرية لا

تسلم فيها الجمال من الخطر حتّى في ضوء القمر الزاهي. ووصلنا الى حافة وادٍ كبير، قال هري إنه وادي «باو» ولكنّنا لم نصدّقه. وقد علّمتني التجارب ألا أفرّط في البقية الباقية من الماء الّذي نحمله حتّى نصل إلى البئر التالية وأتحقّق من صلاحية مائها للشرب، فأمرت بعدم مسّ القربة الأخيرة تلك الليلة، ونمنا بغير عشاء لأنّ الماء ضروريّ للطهي. وكانت ليلة جميلة، تعزّيت فيها بملاحظة ضوء القمر يداعب الغيوم، وأنذرتنا قطرات من المطر باقتراب موسم الأمطار في تلك الأقاليم.

وإستيقظنا باكراً، لأنّ الشعور بالجوع لا يمكّنك من النوم طويلاً. وحثثنا الجمال للسير الى حدٍّ لم نلجأ إليه سابقاً، فلقد كانت شديدة التعب والضعف. واللافت أنّ عيوب القافلة تظهر إذا كان رجالها وجمالها جياعاً عطاشاً.

وخفت صوت الغناء ذلك الصباح، فلم يخرق السكون إلا تمتمة الرجال التي تستحث الجمال على السير، وكان الهبوط إلى الوادي خطراً لشدّة انحداره. وقذفت ثلاثة جمال بأثقالها، فحملها الرجال إلى الوادي، ثمّ أعادوها إلى أماكنها فوق ظهور الإبل.

وأخيراً رأينا كوخاً أو كوخين من القشّ وعدداً قليلاً من الأغنام، فوقفت وسمحت للرجال أن يشربوا ماء القربة الّتي ألحّوا ذلك الصباح على شرب ما فيها. واتجه محمّد وهري الى الأكواخ، وانحدرت القافلة إلى الوادي قاصدة البئر. وجاء لزيارتنا بعد قليل بعض عبيد الجرعان والبديات، فأطلقنا النار في الهواء كأنّنا نحيّيهم ونحن نريد في الحقيقة أن نظهر لهم استعدادنا لأيّ طارئ. ولاحظت أنّ هناك اتّفاقاً غريباً على أن يكون كلّ من زارنا من الرجال والنساء طاعنين في السنّ، فلم يكن بينهم شاب أو فتاة، غير أنّني لم أدهش كثيراً لذلك. ولكنّني تعجّبت بعد ذلك بقليل لرؤية جماعات من العذارى الحسناوات، ممشوقات القدود، بين سمراء وسوداء نصف عاريات في ثيابهن المهلهلة. وحين تقدّمت إلينا ثلاث أو أربع عذارى، التفتُّ إلى حامد وسألته: «من أين أولئك البنات؟» فنظر بوكارة إليهن معجباً ثمّ قال: «الله أكبر، هذه بنات القرية. لقد ظنّ القوم أنّنا سننهب القرية ونسبي عذاراها، فأبعدوهن ليختبئن حين رأوا القافلة مقبلة. أمّا الآن، وقد رأوا أنّنا مسالمون فقد أمروا البنات بالعودة».

ومرّت العذارى بجواري فكنّ يركعن لتحيّتي خفرات، كما جرت العادة عندهنّ في

تحيّة ذوي المقام الرفيع. وتقضي الآداب في تلك الجهات، إذا خاطب أحد العظماء أحداً ألا يظلّ السامع واقفاً، بل يجلس على الأرض على ركبتيه، ورددتُ عليهنّ التحية بالجملة العربية المألوفة: «عليكنّ السلام ورحمة الله وبركاته». وكانت كلّ منهنّ إذا قامت عن الأرض، تلفّتت بحياء إلى من كان معي من البدو المعجبين بهن.

ونصبنا الخيم في نهاية الوادي، على مقربة من البئر. وجاءنا شيخهم بعد ساعة يحيّينا، فتناقشنا معه في أمر الطريق إلى الفاشر، والاتجاه الّذي يجب سلوكه. وهنا راح هري يفكّر وامتلكه الحزن لاقترابنا من بلاده، إذ كنّا قد قطعنا حدود وادي الفرنسية. وكان هري قد أبى الخضوع للفرنسيين وهرب منهم، تاركاً أملاكه وأقاربه وانفرد بالإقامة في العوينات، يعيش في منفى طوعي. وتغيّرت معالم الأرض فكثرت فيها أنواع الطيور، وكان فيها الغراب والبوم والببغاء واليمام وغير ذلك من الطيور الأخرى الّتي لا أعرف أسماءها. وفتكت لبوة أثناء الليل بحمارين، فقبض بعض سكّان الناحية على شبل من أشبالها وسلخوه، ثمّ أرسلوا جلده إلى فدا ليبيعوه. وفي باو عدد غير قليل من قبائل الجرعان والبديات. ونساء هذه القبائل هيف القدود وبسيطات الملبس، ولباسهن إمّا قطعة من القماش يلتحفن بها ويتزنرن بشريط من القماش يحملن فيه سكيناً صغيرة، وإمّا يلففنَ قطعةً من جلد الماعز حول الجزء الأسفل من أجسامهن. ويسرّحنَ شعورهنّ على شكل جدائل صغيرة، ويلبسن حلياً من الفضّة والعاج، ويتحلّين في شعورهن بأطواق سميكة منها، ويتّخذن عقوداً من الخرز والكهرمان. وصغار البنات لا يلبسن إلا مئزراً من القماش أو الجلد.

والرجال صلبو البنية وعارون إلاّ ممّا يستر عوراتهم. ويحمل كلّ منهم حربتين أو ثلاثاً وسيفاً وسكيناً. ولا يلبس العمائم الكبيرة والثياب البيضاء إلا شيوخهم. وأعطينا النساء والأطفال معكرونة، ولكنّهم أبوا أن يأكلوها، واتّخذوا من خيوط المعكرونة عقوداً لبسوها معجبين. ولمّا رأى ذلك رجال قافلتي ظهر فيهم ميل البدو الغريزي إلى المتاجرة، فصنعوا عقوداً عديدة من قطع المعكرونة واستبدلوا بها سمناً وجلوداً.

واضطرّ محمد وهري أن يفارقانا في هذه الناحية، لأنهما لم يجرؤا على التوغّل جنوباً أكثر من ذلك. ووجدتُ صعوبة في العثور على دليل يقودنا إلى فوراويه، ولكنّني وجدته أخيراً. وأُهدينا شاة فتعشّينا في هذا اليوم باكراً، عازمين على أن نسرع بالسير في الصباح.

ولم يحضر الدليل فبدأت أشعر أنّ البديات يرتابون في قافلتنا. ثمّ حضر عند الساعة الحادية عشرة مساءً. فأيقظتُ الرجال عند حضوره وأمرتهم أن يحمّلوا الجمال، قبل أن تحين له فرصة فيغيّر رأيه.

الأربعاء 30 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الواحدة فجراً ووقفنا عند منتصف الساعة التاسعة صباحاً. واستأنفنا السير عند الساعة الرابعة والربع مساءً، وحططنا الرحال الساعة السابعة والربع مساءً، فقطعنا 40 كيلومتراً. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 36. والجوّ كان صحواً وجميلاً، وهبّت رياح قويّة من الجنوب الشرقي، وتغيّر مهبّها بعد الظهر فصار من الشمال الشرقي، ومن ثمّ هدأت عند المساء. ولم تتغيّر معالم الأرض إلا أنّها كانت اكثر انبساطاً، ولم يكن فيها أودية كبيرة أو أشجار عظيمة. وقطعنا عند الساعة الثامنة والربع صباحاً وادياً صغيراً، يمتدّ شرقاً وغرباً. وسرنا الساعة الواحدة صباحاً على ضوء قمر ساطع جعل من الظلام نهاراً، وسار معنا محمّد وهري بهدف أن يوهما أهل باو بأنّهما يرافقاننا إلى الفاشر، وخوفاً من أن يسطو عليهما أحد في الطريق.

وبعد ساعة خرجنا من الوادي، ووقفنا نودّع الدليلين اللّذين كان في عزمهما أن يعودا إلى العوينات، ليلاً خشية أن يراهما أحد.

وكنت واقفاً على مسافة من القافلة حين دنت ساعة الوداع، فشعرت بأنّ الصعوبات التي واجهناها قرّبتنا من بعضنا البعض. وكان محمّد منتصب القامة وذا عينين نافذتين، وكان في هيئته ما يدلّ على خصلتين وهما الاتّكال على الذات والرضا بالأقدار، وهما شيئان يميّزان سكّان الصحراء. وكان هري شيخاً لطيف العشرة ومتواضعاً، ذا ابتسامة رقيقة وتصرّفات جذّابة. وكان في حركاته ما يدلّ على الوقار والجلال، رغم قدمه اليسرى المؤلمة الّتي كان يجرّها جرّاً إذا مشى. ولا أبالغ إن قلت إنّه كان أميراً بفطرته.

ولم يكن افتراقنا يشبه ذلك الفراق الّذي يحدث بين رفقاء السفر فحسب، ولكنّه كان يحوي معنى انتهاء الأستاذ من تدريب تلميذه على الشيء وتركه بعد ذلك يستعين بالتعليمات التي أعطاه إيّاها في سبل الحياة. فقد نسينا جميعاً أنّني كنت رئيس القافلة وأنّهما لم يكونا إلا دليلين. وألقى هري يديه على كتفي ثمّ قال، وفي صوته رنّة تأثّر شديد: «أسأل

الله أن يرعاك ويهبك القوّة. امضِ في هذه الطريق، وبارك الله فيك». ثمّ أشار إلى فسحة بين التلال البعيدة، وتمتمت بضع كلمات بصوت لم أستطع ان املك فيه رنّة المتأثّر، ثمّ أنثنيت عنه ولحقتُ بالقافلة. والتفتُ بعد ذلك فرأيت هذين الرجلين الجليلين، اللّذين يبعثان الأسى نظراً لما فُرض عليهما من النفي، يختفيان في ضوء القمر.

ووقفنا عند الفجر لأداء صلاة الصبح، ثمّ حططنا الرحال في منتصف الساعة التاسعة، وكان في تلك النواحي آثار أسود. واستأنفنا السير بعد الظهر بقليل، ولكنّ الرجال كانوا متعبين لأنهم لم يناموا طويلاً في الليلة الماضية، فلم نسر إلا ثلاث ساعات. وقد هربت منّا الشاة الّتي أهديت إلينا فتبعها حامد وسعد في ضوء القمر وهما يقلّدان ثغاء الشاة ولكنّهما لم يفلحا في العثور عليها.

الخميس 31 مايو:

إستيقظنا عند الساعة الرابعة إلا ربعاً صباحاً ووقفنا الساعة الثامنة مساءً، فقطعنا 36 كيلومتراً. وبلغت درجة الحرارة أقصاها 37 وأدناها 5 درجات. وكان الجوّ صحواً جميلاً هادئاً، وهبّت بعد الظهر رياح من الجنوب الشرقي، ثمّ غيّرت اتجاهها فهبّت من الشمال الشرقي، وهدأت عند المساء. وكان الليل ساكناً والبدر كاملاً، والسماء تحوي غيوماً. ووقع لنا حادث ذلك اليوم. فإالدليل نام في الطريق لبعض الوقت، و»طاحت رأسه» بعد سيرنا باكراً يوم الجمعة الأوّل من يونيو، فسار بنا جنوباً بدلاً من أن يسير إلى الجنوب الشرقي. ولم أتدخّل في الأمر حتّى وقفنا نؤدّي صلاة الصبح عند الساعة الخامسة، فسألته عمّا إذا كانت وجهته الأولى أن يسير صوب الجنوب، فدهش كثيراً ولكنّه أقرّ بخطئه بصراحة.

ولم نكن قد بعدنا طويلاً لحسن الحظّ عن الطريق السوي. ومررنا عند منتصف الساعة السابعة بتلّ يدعى طميرة، وكان عليه شجرة جافة تشكّل الحدود بين واداي والسودان.

وانحدرنا عند ملتقى الحدود إلى وادي هور، وهو وادٍ فسيح كثير الأشجار، يقال إنّه يمتدّ غرباً إلى واداي وشرقاً إلى السودان واسمه في واداي وادي حوش. وأرض الوادي شديدة الخصوبة، يقصد مراعيها في الخريف اهل واداي ودارفور.

وحططنا الرحال عند الظهر في ذلك الوادي، ووجدنا آثار زرافات. واخترقنا بعد الظهر مساحة كبيرة من الحشيش الطويل الجاف، وكأنّنا نسير في حقل من القمح. وازداد تهلهل

ثياب الرجال والاهتراء في أحذيتهم، وزادت خشيتنا من التعرّض «للحسكنيت»، وهو شوك صغير صلب أعقف ينمو في شجيرة صغيرة، ويعلّق بكلّ ما يمّسه فيصعب استخراجه.

وسمعت بوكارة يصف الزرافة والفيل لحامد فقال: « إنّ للزرافة رأس الجمل وحوافر البقرة وكفل الجواد». ولكنّه بالغ في وصف الفيل، حتّى جعله أعجوبة في مخيّلة رجال الشمال.

وسرنا باكراً يوم السبت 2 يونيو، حتّى نتمكّن من الوصول إلى فواروية ذلك اليوم. ومررنا عند الساعة الخامسة صباحاً بعلم يدعى «حجر كمرارا»، على بعد عشرة كيلومترات إلى يميننا. وبعد ذلك بساعة مررنا بعلم آخر يدعى «حجر اردرو»، وهو تلّ يبلغ ارتفاعه 80 متراً وطوله 200 متر؛ وحجر هو اللفظ السوداني لكلمة غارة، ومعناها تلّ صغير. ثمّ بدأنا بعد ذلك ننحدر إلى وادي فواروية، وكان أكبر الأودية الّتي مررنا بها وأكثرها اكتظاظاً بالسكّان الذين هم من الزغاوة والبديات.

وحططنا الرحال عند الساعة التاسعة بالقرب من خيم بعض أفراد البديات، وسمعنا بعد قليل أخباراً غير سارّة عن استحالة الحصول على موئن فوراوية، وكان ذلك عكس ما كنّا ننتظره. فأسرعت في البحث عن رسول أحمّله خطاباً إلى حاكم دارفور في الفاشر، أسأله فيه أن يرسل إلينا أطعمة وقماشاً لرجالي الّذين كانوا في ثياب مهلهلة. وزارنا شيخ من شيوخ الزغاوة المقيمين بالقرب منّا، وإنما رضي بالمجيء مدفوعاً بحبّ الاستطلاع بعد تردد طويل، ويعود سبب ذلك الى خوفه من رجالي. وكان خاضعاً للحكومة السودانية فاستفدتُ من ذلك، وعرضت عليه ثلاثة جنيهات إن حمل خطاباً منّي إلى سافيل باشا، حاكم دارفور.

وكان الأجر باهظاً، وزدت على ذلك أن هددته بشدّة إذا تردّد او رفض، وأمرته أن يسير في فجر اليوم التالي فتمتم بضع كلمات يشكو فيها عدم وجود دابّة تحمله، ثم مضى وعاد بعد قليل فأخبرني انه سيحمل خطابي إلى الفاشر، وأنّه سيسافر على ظهر جواد.

وسرّنا هذا الخبر لأنّ السكّر كان قد فرغ منّا منذ ثلاثة اسابيع فاضطررنا إلى تحلية الشاي على قدر الاستطاعة بالبلح المطحون. ونفد منّا الدقيق والأرزّ، وسئمت نفوسنا ما كنّا نأكله من المعكرونة القليلة المسلوقة بالماء الرديء.

ونقلت خيامنا على مقربة من بعض آبار الوادي، وحاولت ان أشتري شاة أدخل بها السرور على نفوس الرجال، ولكنّ الظلام أخذ ينتشر فلم يقرب خيامنا احد من سكّان الوادي. وسقينا الجمال، وتهيأنا لليل غير راضين كلّ الرضا عن الحياة. ودهشت فجأة لسماع الرجال يغنون طربين كأنّهم تناولوا طعاماً شهياً. فناديت السيّد الزروالي وبوكارة وسألتهما عن سبب غناء الرجال، والسكّر معدوم والغذاء قليل والحالة لا تبعث على الرضى، فأجابني الزروالي: «لقد هدأ بالنا الآن فقد دخلنا السودان، وشعرنا آخر الأمر بالأمان والطمأنينة. « فسألته: «أكنتم خائفين إلى هذا الحدّ من الرحلة التي قمنا بها ؟» فقال بوكارة: «إن جميع أهلنا في الكُفرة كانوا يقولون إننا سائرون إلى حتفنا بسلوك هذه الطريق. وكانوا يقولون لنا المقدّر لا بدّ واقع ولكنّ الله يلحظكم بعين رعايته، فداخلنا الشكّ في السلامة، وخفنا أن يكون مودّعونا صادقين».

وقال الزروالي: «لقد رأيت بنفسك كيف شجّعك بعض رجال الكُفرة على أخذ هذه الطريق وكيف نصحك بتركها الكثيرون. وأكبر ظنّي مشجّعوك أرادوا بك سوءاً ورجوا أن لا يروك أبد الدهر». وهكذا صارحني السيّد الزروالي وقد قربنا من نهاية الرحلة، فأخبرني أنّ بيوت (السدايدة) و(المجلولات)من قبائل الزويّ في الهوارى والكُفرة كرهوا زيارتي الثانية كراهية شديدة، وعقدوا اجتماعاً تناولوا فيه أنجع الوسائل للقضاء على القافلة أو منعها من العودة. وهنا وضحت لي مروءة الرجال الّذين رضوا بمصاحبتي في تلك الطريق المخيفة المجهولة من دون تذمّر او ممانعة، فداخلني الزهو بهم جميعاً.

وأيقظني حامد عند الساعة الثانية صباحاً، وفي هذه الليلة كان يقوم حامد بدور الحارس، ثمّ أخبرني أنّ الرسول وصل وأنه مستعدّ لحمل رسالتي إلى الفاشر. وكان تحت وسادتي خطابان أحدهما لسافيل باشا والآخر إلى حاكم «كتم»، وهي محطّة في طريق الفاشر، أسأله فيه أن يتحقّق من وصول خطابي إلى الحاكم في الفاشر. وسرّني مجيء الرسول في هذه الساعة المبكرة، فإنّ سرعة وصول المؤن والملابس التي طلبتها تسرّ جميع رجال القافلة. ووعدت الرسول بزيادة بضعة ريالات على أجره، إذا أمكنه أن يوصل الخطاب إلى الفاشر في غضون أربعة أيّام، وتمنّيت له السلامة. ثمّ وقفت أنظر إليه وهو ينطلق في ضوء القمر على جواد هزيل ولكن قويّ العضلات.

الفصل العشرون
نهاية الرحلة

غلبني النعاس في ليلتي الأولى بفوراويه، وشعرتُ بتأثر لم أشعر به منذ أن ودّعت الضابط باثر في السلّوم عند ابتداء الرحلة. وأحسست أنني الآن على اتّصال بالدنيا الخارجية وأنّ رحلتي انتهت، وأنه لم يزل أمامي شهر أو أكثر حتّى أترك قافلتي وأغيّر وجهة سفري. لقد أصبحت واحتا أركِنو والعوينات معروفتين بعد أن كان يجهل موقعهما الجميع. وأصبح في الإمكان، إن صحّت ملاحظاتي وكنت آمل ذلك، أن تُرسم خريطة دقيقة لجهات صحراء ليبيا الواقعة بين جالو وفوراويه.

وأمضينا ثلاثة أيّام في فوراويه التي اعتدنا فيها الجوّ الرطب، وحاولنا أن نجد ما يمكن أن نأكله. وكان السحاب القاتم ينتشر فوق رؤوسنا والمطر يهطل كلّ يوم. وكان معظم رجالي قد تناولوا قسماً لا بأس من لحم الضأن، ولكنّ عدم وجود السكّر اللازم للشاي، وحرماننا من الأطعمة الأخرى قلل من استمتاعنا بذلك النعيم. وانحدرنا إلى الجنوب بعد ظهر اليوم السادس من شهر يونيو، ورحنا نخرج شيئاً فشيئاً من الوادي فمررنا بقطعان كثيرة من الأغنام والماشية العائدة من مراعيها، يتبعها صبيان وفتيات هيف القدود لا يلبسون إلا ما يستر عورتهم من قماش وعقود من الخرز.

وكانت هذه الأصقاع مختلفة عن الصحراء الّتي اخترقناها، فقد كنّا نسير في طريق مأهولة، ونمرّ من وقت إلى آخر بقرى صغيرة من أكواخ القشّ، ونساء يحملن الحطب، ونرى غير ذلك من دلائل السكن والحياة. وطلبت من رجال القافلة عند اقترابنا من إحدى هذه القرى أن يتقدّموني، وأشرت لهم إلى المكان الّذي تنصب فيه الخيم، وتبعتهم بجوادي. وإنّما فعلت ذلك لأنّ هذه الجهات كانت تتمتّع بميزات جغرافية معيّنة، فأردت أن أدوّن بعض الملاحظات، وسمعت عند اقترابي من الخيم أصواتاً عالية، وكانت خليطاً من الغناء والعويل.

وكان أوّل ما خطر ببالي أنّ نزاعاً قام بين رجال القافلة وسكّان القرية، فانطلقتُ بجوادي لأستطلع الخبر. ولكنّني لم أكد أقترب من الخيم حتّى سمعت دويّ الطبل وغناء النساء، وكان وقت الغسق فلم أتمكّن من توسّم وجوه الجمهور الّذي كان يتقدّم نحوي. ولم يمض زمن قليل حتّى هرع إليّ أحد رجالي، وأخبرني أنّهم لقوا الإستقبال الأكثر حفاوةً من رجال القرية ونسائها الّذين أصرّوا أن يخرجوا ليستقبلوا شيخ القافلة. ولم يكد يخبرني بذلك حتّى أحاطت بجوادي مجموعة من العذارى يغنّين ويرقصن، وبدوره راح جوادي يقفز فرحاً، كما يليق بالجواد البدوي. وزغردت النساء، فطلب منّي البدو أن أفرغ البارود. وأفسح الجمهور الطريق لجوادي فابتعدت به مسافة قصيرة، ثمّ درت وانطلقت به عائداً فأوقفته وقفة واحدة، وكنت في ذلك الوقت قد أخرجت بندقيتي فأطلقتها عند وقوف الجواد، على الطريقة البدوية، عند أقدام أوّل صف من العذارى الجميلات فخفن من ذلك وفرحن في آن واحد.

وبعد ذلك أحاط ست منهن بجوادي وطفن حوله ثمّ أدّين لي «الشبّال»، وهو أن يملن بجدائل شعورهن نحوي ثمّ يلوين رؤوسهن بغتة، تاركين خصلهن تدور أمامي. وأجبتهن على هذه التحيّة، فكنت أضع إصبعي على جبين كلّ منهن، وأدير بندقيتي في الهواء حول رأسها، وأنا أقول: «أبشري بالخير». ثمّ التأم جمعنا في موكب حافل، وتقدّمنا إلى مضرب الخيم. ورآني رجال القافلة محاطاً بالعذارى فأطلقوا النار احتفاءً واحتفالاً بالمناسبة، ووزّعت عليهنّ بعد ذلك الروائح العطرة فانصرفن فرحات. وكانت ليلة أنس وطرب في مضرب الخيم.

ووصلنا «أم برو» في اليوم التالي، وهي على بعد 38 كيلومتراً من فوراويه، وحططنا الرحال بالقرب من البئر. وإستيقظتُ في الصباح التالي على أصوات الغنم والماعز المقبلة للشرب، وبعد ذلك بساعة أقيمت سوق عامرة على مقربة من خيامنا، لأنّنا كنّا نصبناها على عجلة بالقرب من شجرة كبيرة، في وسط المكان المعد لإقامة السوق. ولم يشترك في هذا السوق إلا النساء اللواتي جلبن الزبد والجلود والحصر والشعير والقطن والملح، واستبدلن بكلّ هذا أشياء أخرى من دون دفع أي أموال في عمليّة المقايضة هذه مستعملات النقود في معاملتهن. تقوم النساء بهذا بينما، يستريح الرجال ويظلّون عاطلين عن العمل.

وحين أبصرت هذه المناظر ومثيلاتها في قرى السودان، رحتُ أفكّر بأنّ هذه الجواري السود يكنّ أسعد حالاً وهنّ أسيرات في البيوت البدوية. فإنهنّ وهنّ مطلقات يقمن بتأدية كلّ هذه الأعمال، فيقمن بالإهتمام بالغنم والماعز ويشتغلن بأمور المنزل ويجهزن الطعام و »المريسة«، وهي شراب الرجال المحبوب، ويشتغلن في الأسواق ويقمن بعمل كلّ شيء على وجه عام. أمّا وهنّ أسيرات، فليس عليهن إلا واجبات محدودة، تترك لهن من الفراغ نصيباً غير قليل.

وطال بي التفكير في هذه المقارنة وأنا ألاحظهن في السوق، فخيّل إليّ أنّي أسمع في حديثهن وغنائهن نبرات لم أسمع مثلها في أصوات الأسيرات، فعلمت أنّ الحرية قد تبعث في النفوس شعوراً خاصاً ينعم به المطلقون، حتّى عندما يعيشون في ظروف شديدة الصعوبة.

وأمضينا يومين في «أم برو» وزارني عبد الرحمن جدّو، وكيل محمّدين ورئيس قبيلة الزغاوة، وقدّم لي غنماً ودجاجاً على سبيل الضيافة. وقابلنا الوكيل في اليوم التالي مقابلة رسمية، وكان مُحاطاً بخدمه وحشمه على ظهور جيادهم وهم يدقّون الطبول. وأرسلت لنا أسرة محمّدين في غياب رئيسها غذاء من العصيدة والخضار والفطائر والمريسة.

وكانت مرحلتنا التالية تتطلّب سفر خمسة أيّام إلى «كُتُم»، على بعد 129 كيلومتراً جنوباً. وكان الجوّ جيّداً رغم حرارته وهطول بعض الأمطار، وسرنا كالعادة في الصباح الباكر والعصر، وكان سبيلنا سهلاً بين أراض تكثر فيها التلال المغطّاة بالحشيش الجاف والأشجار الصغيرة. وعثرنا في الطريق على قطع من الأرض، أُحرقت حشائشها تمهيداً لزرعها بعد ذلك.

ورجع رسولي إلى الفاشر في صحبة آخرين، ولم يكن عند حسن ظنّي به فقد قضى خمسة أيّام بدلاً من أربعة للوصول إلى الفاشر. ولم يحضر مع ذلك رداً على رسالتي، وقال لي إنّ الرد في انتظاري مع جندي عند بئر «مطرّج» التي تبعد مسافة 12 ساعة من محلّتنا، وإنّ ذلك الجندي يحمل زاداً لنا. ولكنّ ذلك الزاد المنتظر كان قليل الفائدة على تلك المسافة البعيدة، فقد تناولنا عشاءً خفيفاً عندما حططنا الرحال في تلك الليلة. وبعد تناول العشاء أمرت دليلنا أن يسرع بالسفر، فيمشي ليلاً ولا يقف حتّى يصل «مطرّج»، ثمّ يخبر الجندي أن يسرع قدر المستطاع ويأتي إلينا.

وبدأنا السير قبل الساعة الرابعة من الصباح التالي، ولم تمض ساعة حتّى هرع الرجال يخبرونني أنّ جندياً يتقدّم إلينا على جمله، وبعد ذلك بدقائق سلّمني الجندي خطاباً من المستر شارل ديبوي، القائم بأعمال حاكم دارفور المستقيل سافيل باشا. وقدّم لنا كميّة من الأرز والدقيق والشاي والسكّر، وسرّني على الأخص أنّه سلّمني كميّة من السجائر، فآخر مرّة دخّنت فيها السجائر كانت أثناء تواجدي في إردي. فقد عرفت فجأةً في العوينات أنّه لم يبق لي إلا بعض سجائر قليلة، فكنتُ أدخّن سيجارة واحدة في اليوم أنعم بها بعد العشاء. وكان يؤلمني الانتظار طوال النهار حتّى تحلّ الساعة التي أدخّن فيها سيجارتي. ولكنّني كنت أسعد كثيراً بساعة التدخين، فكنت أجلس في مكان ظليل وأشعل سيجارتي الثمينة، ثمّ أقيها هبّات الرياح حتّى لا تنتهي سريعاً. ونفدت السجائر، فلم يبق لي إلا الذكريات القديمة والانتظار المقبل. وقد كوفئت على ذلك الانتظار الطويل، وثأرت لنفسي بالانكباب على التدخين حتّى احترق حلقي.

وأهديت بوكارة بعضاً من تلك السجائر، فوضعها فوق طربوشه الأحمر ذي الزر الطويل، ثمّ امتطى جواد الدليل فرحاً وراضياً. ولكنّ السرور لم يعمّ أفراد القافلة ليدفعهم إلى الغناء والرقص إلا حين نزلنا دار راحة الحكومة في «مطرّج»، فإنّ الطرب تملّك الرجال حتّى وضعوا قطعة السكر على الأرض وأطالوا الرقص حولها، الى درجة أن الجندي اعتقد أنّ مساً من الجنون قد أصابنا جميعاً.

وقد سأل بعضنا عن مبعث ذلك الطرب فأجابه عبد الله: «إن لنا شهراً لم نذق السكّر فيه، وإنّنا قادرون الآن على تحلية الشاي الّذي نشربه. وإنّما يشعر بافتقاد السكّر وشدّة الافتقار إليه من حُرِمَه عهداً طويلاً»، فهزّ الجندي رأسه مبتسماً ثمّ قال: «يجب عليّ أن أعود في الحال إلى كُتُم وأحضر لكم شيئاً من الزاد، فإنّنا لم نظنّ أنّكم تفتقرون الى هذا الحدّ إلى الطعام». وتفضّل علينا قبل سفره بالذهاب إلى خيم قريبة، وجلب لنا شاة وزبدة دفع ثمنها معاون كُتُم، لأنّ البائع رفض قبول الأوراق المالية المصرية.

وتركنا الجندي بعد أن زوّدته بخطابات منّي إلى المستر ديبوي والمعاون، وهو الحاكم المنتدب في كُتُم. وكفانا الزاد الّذي أحضره الجندي، ولكنّ الخوف من حاجتنا إلى الاستزادة جعلنا نقرّر السفر في التوّ، فسرنا وحططنا الرحال عند الظهر في دار استراحة

الحكومة عند بئر «المراحيج»، ونصبنا الخيم ليلاً على بعد بضعة كيلومترات من تلك الجهة. وكانت حال الجمال سيئة جداً، فقد جُرحت ظهور بعضها وجنوبها ودميت، ورفض اثنان منها أن يسيرا حتّى ترفع عنهما الأحمال. وأمطرت السماء ذلك المساء مدّة ساعة، ولكن ذلك لم يبل عطش نفوسنا، وغنّى الرجال ورقصوا حول ركية[1] عظيمة من النار.

وقد ذكّرتني رطوبة المكان ورائحة الحشيش الرطب بالأوقات التي كنتُ أمشي فيها في أرياف إنكلترا. وسرنا في الصباح الباكر حتّى نصل بئر «مطرّج» عند الظهر، وتناولنا الغداء في دار استراحة الحكومة القريبة من البئر وزارنا شيخ مطرّج وأحضر لنا دجاجاً على سبيل الضيافة. وأراد أن يستقبلنا تلك الليلة حتّى يقوم بواجب الضيافة نحونا في اليوم التالي، ولكنّني كنت أشعر بالحاجة إلى الإسراع في السفر فقد ساءت حال الجمال عن ذي قبل، واضطررنا إلى ترك أحدها عند شيخ القرية على أن يأخذ ربع ثمنه إذا شفي وبيع، وأن يكون خالياً من المسؤولية إذا مات.

وظهر لنا جنديّ آخر على ظهر جواده بعد مسيرنا بساعة ونصف ساعة في اليوم التالي وأحضر لي خطاباً من معاون كُتُم وكميّة صغيرة من الأرز والسكّر، وشكرنا له الهدية لأنّ زادنا كان قد شحّ ونفد منّا السكّر اللازم لتحلية الشاي، وأعطيته خطاباً يوصله إلى كُتُم، ثمّ حططنا الرحال بعد ذلك بواد صغير في «باو».

وأمطرت السماء عند استئنافنا السير بعد الظهر، وهبّت رياح قويّة من الجنوب الشرقي، ورأيت من الحكمة أن نحطّ الرحال حتّى تهدأ العاصفة. غير أنّني رحتُ أراقب بمنظاري فإذا بي أرى صف أكواخ القش الّتي تؤلّف مركز الحكومة في كُتُم، فشجّعني ذلك على المضيّ في السير فحثثنا الإبل. ورأينا بعد ذلك مجموعة من الفرسان تتقدّم إلينا فصرخ البدو عند رؤيتها مبتهجين، وتعرّفت الملابس الرسمية للجيش السوداني، فكان ذلك أبهج ما وقع عليه نظري منذ أسابيع طويلة. وتقدّم إلينا رياض أفندي أبو عقلة ونصر الدين افندي شداد – وهما معاونا كُتُم – على رأس مجموعة مؤلّفة من عشرة فرسان، وفي صحبة

---

(1) الركية (في الأصل): البئر أو حوض الماء بجانب البئر. وهنا تعني: الحفرة التي يوضع فيها الحطب لإضرام النار. (المترجم)

القاضي ورئيس الكتبة وغيرهما من موظفي كُتُم ووجهائها، وشددت على أيديهم جميعاً، ثمّ اخترقت القافلة القرية وهم يحيطون بها.

وعند اقترابنا من المركز، راحت تحيّينا نساء يرتدين الثياب البيضاء، يغنين ويزغردن ويضربن الطبول. ووقفن صفاً طويلاً يغنين ويرقصن فطرب لهنّ البدو كثيراً، وسألوني أن أسمح لهم بإطلاق البارود رداً على تحيتهن. ولم يسعني الرفض فتناوب الرجال، وعلى رأسهم بوكارة، إطلاق البارود عند أقدامهن. ولم تكن السودانيات متعوّدات تلك العادة البدوية في تكريم النساء كأخواتهن البدويات في الشمال، فجفلن قليلاً عند اشتعال البارود على مقربة من أقدامهن، ولكنّهن ظللن يتمايلن ويرقصن على دقّ الطبول، بينما كان رجالي يطلقون البارود عند أقدامهن على التوالي. وكان لقاءً بديعاً، بدّد سرورنا به ما نالنا في السفر من تعب ومعاناة.

وزاد إظهار الكرم نحونا فأرسل إلينا المعاونون والموظّفون أربع نعجات وزبداً وخضاراً وسكّراً، فأمضينا ليلة من أبهج الليالي. وكان وصولنا الى كُتُم في ذلك الوقت فألاً حسناً عند سكانها، لأنّنا قدمناها مع بدء فصل الأمطار. وقضينا يومين في ضيافة المعاونين في غياب المفتّش المستر أركل الّذي كان في الفاشر.

وفي عصر يوم من أيّام إقامتنا، شاهدنا مباراة في لعب الكرة بين الجنود، وأبدى اللاعبون نشاطاً شديداً، وإن لم يتقنوا اللعب إتقاناً تاماً. ولم يخل اللعب من فكاهة ظريفة، فإنّ كثيرين من اللاعبين الّذين حاولوا أن يرفسوا الكرة رفسة قوية أخطأوها، وراحت أحذيتهم السودانية تنطلق في الفضاء. وقد راقتنا كثيراً روح التآلف الّتي كانت سارية بين الضباط والجنود، الّذين قاموا بهذه اللعبة الّتي لا تخلو من بعض الخشونة.

وتناولت عشاء تلك الليلة في دار رياض أفندي ونصر الدين أفندي، فكان أوّل طعام ذقته بين حيطان المنازل منذ أن تركت الكُفرة، وقدّم لي مضيفي جرائد مصريّة، فكانت أوّل ما قرأت منها بعد مضي ستّة أشهر.

وتركنا كُتُم عند الساعة السادسة من صباح يوم 17 يونيو فرحين بما لقينا من دلائل الكرم والضيافة أثناء إقامتنا، ومن مظاهر الوداع الحار عند مغادرتنا المدينة، وبقي أمامنا أن نسير الى الفاشر، وهي تستغرق يومين.

ودبّت في نفوسنا جميعاً الحماسة والابتهاج بعودتنا إلى الاتصال بحياة الحركة، ولكنّني شعرت ساعة أويتُ الى فراشي ليلة 18 بوخزة حزن في قلبي، لأنّ ذلك اليوم كان آخر أيّامي في الصحراء. وأدركت أنّني سأفتقد الى رجالي وجمالي وسأُحرم من تلك الوحشة المؤنسة والجمال والوحدة ومتعة المرافقة الّتي ملكت نفسي في الصحراء وعيشي بها، ورأيتني أضيف إلى صلوات شكري دعاءً خالصاً أسأله الله فيه أن يقدّر لي العودة إليها يوماً من الأيّام.

وكنت قد أصدرت أمري إلى رجال القافلة بالسفر المبكر في الصباح التالي، وتملّكهم الشوق إلى الرحيل فبالغوا في التبكير، ولم أكن أقلّ منهم سروراً بالرحيل، فلم آبه بالإنطلاق عند الساعة الثانية والنصف فجراً. وحططنا الرحال على مسافة ثلاث ساعات من الفاشر، نستعدّ لدخول المدينة فحلقنا ذقوننا ولبسنا أفخر ثيابنا، وكان المستر ديبوي قد أرسل إلينا في كُتُم كميّة من القماش الأبيض، فأمكن رجالي أن يظهروا في لباس لائق، وتهافتوا جميعاً على القطعة الباقية من مرآتي يتوسّمون فيها وجوههم. ونظفّت البنادق وأصلح بعض حوائجنا الّتي أصبحت في حال يُرثى لها من الاهتراء. وكان بودّي أن أصنع شيئاً للجمال فأغيّر مظهر هزالها ونحفها، ولم يكن باستطاعتي ذلك إلا بأن نمشي وإراحة هذه الجمال، ولم يكن عندنا من الوقت أو الظروف ما يمكننا من فعل ذلك. ومع ذلك فقد خيّل لي أنّها تشاطرنا الشوق إلى الرحيل، فجدّت في السير بخفّة ونشاط.

وارتدى عبد الله والسيّد الزروالي ثيابهما الحرير، وتقدّمت القافلة إلى المدينة فرحةً. ووصلنا الى مشارف الفاشر فإذا بصرخات السرور تنبعث من جميع أفراد القافلة، لأنّهم رأوا مجموعة الفرسان لابسي الخاكي تتقدّم إلينا، وحثثت جوادي بركة فعدا راضياً وسرّته رؤية الجياد القادمة.

وتقدّم المستر ديبوي على جواده يحيّيني فتبادلنا الشدّ على الأيدي، وحيّانا بقيّة الموظّفين المصريّين والإنجليز فرددنا عليهم التحيّة بأحسن منها، ثمّ ذهبنا إلى دار المستر ديبوي الّذي تفضّل فخصّني ورجالي بجزء منها. وتفضّل البكباشي «أوداس» فاهتمّ بالجمال المتعبة وأطعمها وسقاها وعالج جراحها، وكانت في حاجة ماسّة إلى هذا العلاج.

وأمضيتُ عشرة أيّام في ضيافة المستر ديبوي، ولقيت شيئاً كثيراً من كرم ضبّاط

وموظّفي المدينة بين مصريّين وإنجليز ومن وجهائها كذلك. والحق أقول إن دلائل الكرم غمرتني ومظاهر الرعاية ظللتني، فلم أكن في حاجة إلى شيء.

وشعرت بحياة المدنية فاستمتعت بملذّاتها، وخاصّة منها أكل الخضار والفواكه، وما كنت لألقى هذه الملذات لولا ما ذقت في صميم الصحراء من قلّة موارد الحياة. وحان موعد وداعي لرفقائي الّذين صحبتهم في رحلتي من الكُفرة، فجاءني بوكارة وأخوه وحامد والسنوسي أبو جابر يودّعونني فكانت ساعة مؤثرة شعرت فيها بألم الفراق، واسترجعتُ الذكريات الجميلة، ولم يتمالك أولئك الرجال أنفسهم عن البكاء، ولم أستطع منع عيني من أن تدمع فلقد كنّا سويّاً في الأيّام الحلوة والمرّة، وخرجنا من عشرتنا الطويلة أصدقاء مخلصين. ولم أكن أتمنّى أكثر من هؤلاء رفقاء لاجتياز تلك الأصقاع الموحشة، ولا أكثر منهم قدرة ورجولة وإخلاصاً.

وقرأنا الفاتحة فكانت جهشات بوكارة تخالط كلّ وقف من آياتها الشريفة، وشددت على أيادي الرجال جميعاً للمرّة الأخيرة، ثمّ افترقنا لنتقابل كما أرجو يوماً من الأيّام في تلك الصحراء الّتي نالت من نفسي بقدر ما نالت من نفوس ساكنيها.

ولم يبق أمامي إلا مرحلة واحدة إلى الأبيض الّتي تبعد 600 كيلومتر إلى الشرق، فقطعتها وأخذت القطار إلى الخرطوم، ومنها إلى القاهرة فوصلتها في أوّل أغسطس سنة 1923. وكنت قد غبت عن وطني سبعة أشهر و23 يوماً. وقطعت بالقافلة مسافة 3500 كيلومتر في الصحراء. وأمكنني بواسطة هذه الرحلة أن أجزم في تحديد مركز آبار زيغن، ومكان الكُفرة على خريطة أفريقيا؛ وكان الموضع الأوّل قبل ذلك بعيداً عن مكانه الأصلي بمقدار 100 كيلومتر، والثانية بمقدار 45 كيلومتراً. وحقّقت كذلك نجاحاً عظيماً في إثبات الواحتين المجهولتين، أركِنو والعوينات، على خريطة صحراء ليبيا.

(تمت الرحلة)

الى أحمد محمد حسنين

لا أتوق الى أن يمثّلني أي تمثال في شارع عامّ أو أحد صفحات كتب التاريخ وجلّ ما أطلبه أن توضع زهرة من الصحراء على ورقتي المتعرّجة لتدلّ على الطريق التي سلكتها.

لم أكن أسعى وراء جواهر مدفونة في الصحراء، بل الكنز الذي كنتُ أبحث عنه أقلّ ثمناً من تلك. لقد قمتُ بهذه الرحلة، وكم هم قليلون الذين سيفهمون قصدي، لقد ذهبتُ لكي أستكشف قطعة من الأرض لا تزال مجهولة.

المساحات الشاسعة نادتني، والسبيل كان متاحاً أمامي، ويا للعجب، فإن قدميّ لم تتعثرا في طريق مجهولة سلكتها: فكم من الصعب أن ينظر المرء الى الوراء فلا يرى على مسافة آلاف الأميال سوى أثر خطاه؟

ولن يستطيع نصف المسافرين بحثاً عن الذهب أن يثروني بالقدر الذي أثريتُ به، عندما كانت عيناي المرهقتان تتأملان بزوغ الفجر والشمس تقوم بنشر أشعّتها الناعمة فوق أديم الصحراء.

الأفكار هي كنزي، فأين عسى أن تباع الأفكار؟

عالمي كان فارغاً، ولكنّه كان نظيفاً.

الفاشر، في 30 يونيو 1923

ج. ف. فولي

الملاحق

مذكرة[1] عن نتيجة رحلة حسنين بك في رسم الخرائط

1 – مقدمة

تتكوّن البيانات الخاصّة برسم الخرائط الّتي أحضرها حسنين بك من:

دفاتر محتوية على أرصاد فلكية بتعيين الوقت وخطّ العرض واختلاف البوصلة، أُخذت في تسعة عشر معسكراً رئيسياً، ومعها الأرصاد الخاصّة بمقارنات الساعات.

مذكّرات يوميّة محتوية على بيانات مستمرّة لأرصاد انحرافات البوصلة وللمسافات التقديرية من واحة سيوة إلى آبار «لامينا» بالقرب من الفاشر، وهي مسافة تقرب من 2430 كيلومتراً. وتحتوي هذه المذكّرات اليوميّة أيضاً على:

عدد كبير من أرصاد انحرافات البوصلة لمعالم طبيعية ظاهرة على جانبي الطريق.

تقديرات تقديرية على قواعد حساب المثلثات لخطوط عرض الجبال الّتي مرّ بها.

عدد كبير من قراءات البارومتر المعدني المستدير (أنريد) والترمومتر الّذي يدار في الهواء ويستخرج منه درجة الرطوبة الّتي أخذت لتقدير الارتفاعات على طول الطريق.

الأرصاد اليوميّة لأقصى درجات الحرارة وأدناها.

ملاحظات على طبيعة الأماكن التي مرّ بها.

مذكّرات عن الأحوال الجوية.

وهذه البيانات المرصودة تمّ تحليلها بمعرفة قسم مساحة الصحارى في القاهرة، واستخدمت في إعداد الخريطة بمقياس 2/1 مليون المرفقة ببيان حسنين بك عن أسفاره،

(1) هذه المذكرة: كتبها الدكتور جون بول John Ball (مدير قسم مساحة الصحراء بمصر).

والغرض من هذه المذكّرة الّتي نحن بصددها هو:

أولاً– إعطاؤها بياناً عن الاختبار الدقيق الّذي مرّت به هذه الأرصاد أثناء القيام بتحليلها، كي يساعد على تقدير درجة الدقّة الّتي يمكن نسبتها للمواقع الجغرافية والارتفاعات والمعلومات الأخرى الّتي استعملت في تخطيط الخريطة.

ثانياً – بيان الإضافات إلى المعلومات الجغرافية الحاضرة ببحثها عن إقليم غير معروف في شمال أفريقيا الشرقي، وصدر هذا البيان نتيجة لهذه الحملة.

2 – التعيين الفلكي للوقت المحلّي

أخذت الأرصاد بواسطة التيودوليت لارتفاعات الشمس والنجوم في جميع المعسكرات الرئيسية لتعيين الخطأ بالنسبة للزمن المحلّي الوسطي الشمسي للساعة من طراز نصف كرونومتر الّتي استعملت في تحديد خطوط العرض، وبلغت جملة هذه التعيينات الزمنية التامّة 34 أخذت في 17 معسكراً. وأخذت الأرصاد بتيودوليت 3 بوصات من صنع (ترونون وسيمس) دائرته الرئيسية يمكن قراءتها بورنيتين للدقيقة الواحدة، وكان مجهزاً بميزان حسّاس مركّب على ذراع الميكروسكوب. وكان يوضع التيودوليت دائماً في خطّ الزوال المغناطيسي بواسطة بوصلته الحوضية. وكان الغرض من الطريقة الّتي استعملت هو أخذ أوقات مرور حافّة الشمس أو النجم بكلّ من الأسلاك الثلاثة الأفقية لتقسيم الأستاديا، قارئة الميزان والدائرة عند كلّ تعيين على الوجهين الأيمن والأيسر. وأخذ أيضاً – في حالة النجوم – الانحراف المغناطيسي للنجم من الدائرة الأفقية. وأخذت مذكّرة بلون النجم لتحقيق ذاتية النجوم في هذا القلم، وبذلك يتخلّص الراصد من ضرورة معرفة النجوم. وكان يُقرأ البارومتر والترمومتر باعتناء في كلّ رصد لعمل حساب الانكسار.

ولم يكن هناك أيّ صعوبة في تحقيق ذاتية النجوم إلا في حال واحدة وجد من الضروري فيها إلغاء الأرصاد، نظراً لأنّ الراصد رصد عرضاً نجوماً مختلفة عند الرصد على وجهي الآلة. وقد أجريت في أيّام عديدة عمليّتان للرصد أو أكثر في المكان نفسه، ودلّت مقارنات النتائج في هذه الأماكن أنّ الأرصاد كانت بدقّة فائقة بالنسبة لصغر الآلة. وقد وجد مثلاً في سبع حالات رصدت فيها الشمس وهي على وشك الغروب، ونجم عقب الغروب مباشرة، أنّ أقصى فرق بين نتائج عمليتي الرصد هو 7 ثوان فقط، بينما كان المتوسّط يقلّ عن 4

ثوان. ومن الظاهر أن دقّة وقت الأرصاد كافية جداً للتأكد من عدم وجود خطأ محسوس في خطوط العرض ناشئ من أغلاط في الزمن المحلّي المفروض.

وبما أنّ أرصاد الوقت لم تستعمل إلا في تجهيز الخريطة في ما يخصّ تعيين خطّ العرض، فليس من المهم إعطاء كشف عن أغلاط الساعة. غير انّها ربما تهمّ الجغرافيين الّذين يقصدون الصحارى للوقوف على بعض نتائج تجارب حسنين بك في عملية نقل الساعات، وعلى المجازفة في الاستناد الى ثبات معدّل السرعة لفترات طويلة على الرغم من استخدام أحسن أنواع الساعات. ومن الساعات الست الّتي كانت بحوزته لم تبق إلا واحدة صالحة للاستعمال حتّى نهاية السفر. ومن حسن الحظّ أنّ هذه الساعة الّتي قاومت عناء سفر سبعة أشهر في جوف الصحراء، هي التي أخذ عليها حسنين بك جميع أرصاده، وكان يحملها في جيبه طول مدة السفر، وهي من طراز نصف الكرونومتر ذي الحجم الكبير، ماركة explorens الإنجليزية الصنع، ومجهّزة بغطاء واقٍ من الأتربة لجهاز إدارتها. ولقد حازت هذه الساعة شهادة خاصّة من معمل الطبيعيات الأهلي National Physical Laboratory of England بإنكلترا، وكانت أثمن الساعات الستّ الّتي استعملت في هذه الرحلة. وحتّى هذه الساعة لم تستطع المحافظة على معدّل سرعة ثابت حتّى تصلح في إيجاد خطّ الطول، ولو انّها كانت وافية بالغرض في إيجاد خطّ العرض، ولو انها في حالتين، لما كان من الضروريّ الإستناد الى ثبات معدّل سيرها لمدّة يوم أو يومين لرصد خطّ العرض فقط، من دون أخذ أرصاد عن الوقت المحلّي. فنجد مثلاً فيما يأتي متوسّط معدّل سير هذه الساعة محسوباً من واقع أرصاد الوقت المحلّي في أماكن معلوم خطّ طولها من قبل.

معدل سير الساعة

السلّوم – سيوة	29 ديسمبر – 13 يناير	15 يوماً	فقدت 5.8 ثوان
سيوة – جغبوب	13 يناير – 20 يناير	7 أيام	فقدت 0.1 ثانية
جغبوب – الفوراوية	14 فبراير – 5 يونيو	111 يوماً	فقدت 7.7 ثوان
الفوراوية – أم بورو	5 يونيو – 8 يونيو	3 أيام	فقدت 6.6 ”
أم بورو – الفاشر	8 يونية – 6 يونيو	18 يوماً	فقدت 9.4 ”
الفاشر – الأبيض	30 يونية – 15 يوليو	15 يوماً	فقدت 9.4 ”

غير أنّ هذا الجدول لم يستطع أن يعيّن بالضبط اختلافات الساعة. وفي طول المدّة الّتي بقيت فيها الساعات الخمس الأخرى صالحة للاستعمال، قام حسنين بك بمقارنات متعدّدة بساعته الرئيسية. وبين 21 مارس و23 منه، يوجد هناك ما يحملنا على التحقّق من أنّ هذه الساعة مسبّقة بفترة زمنية غير عادية بلغت 50 ثانية. وهناك تسبيق غير عادي مشابه لهذا، لوحظ في الساعات الأربع وعشرين الواقعة بين يومي 24 و25 مارس، وكلا هذين التسبيق غير العاديين حدث ما بين جالو والحراش في بدء الرحلة، بينما أظهرت باقي الساعات أنّها سائرة في حالة حسنة. ومن المحتمل جداً أن تكون قد حدثت حالات أخرى غير عادية فيما بعد، حينما تعذّر وجود مراقبة مرضية للمقارنات، نظراً لوقوف أو تلف بعض الساعات الأخرى أو كلّها. ومن بين الساعات الخمس الأخرى، كانت هناك ساعة إنجليزية الصنع من طراز نصف كرونومتر مشابهة للساعة الرئيسية ولكن بحجم صغير، وثلاث ساعات منها كانت سويسرية الصنع من أحسن النماذج ذوات رافعة من طراز (peerless) بغطاء محكم. وأمّا الساعة الباقية فكانت من النموذج السويسري ذي رافعة، والتي تضيء أرقامها وعقاربها ليلاً، وكانت توضع في المعصم لسهولة معرفة مدة السير. وقد توقفت الساعة الصغيرة من طراز نصف كرونومتر عن العمل في 3 أبريل، بعد أن استمرّت مدّة أربعة أشهر في العمل، على الرغم من إعادة تشغيلها، إلا أنّ معدّل عملها تغيّر كثيراً عن ذي قبل. وأمّا الساعات الثلاث ذوات الرافعة من طراز Peerless فكانت لا بأس بها، على الرغم من توقفها عن العمل حتّى نهاية السياحة. فإحداها وجدت معطّلة ومختلفة في 6 مايو، بعد اشتغلت لقرابة خمسة أشهر، والاثنتان الباقيتان ظلّتا تعملان شهراً إضافياً.

ويستدل من المقارنات الّتي أجريت في الطريق، أنّ اختلافات معدّل العمل كادت تكون في درجة واحدة مع الساعة طراز النصف كرونومتر. وأمّا ساعة المعصم فكانت عرضة لاختلافات أكثر في معدّل عملها، نظراً للطريقة التي تعمل بها. وكانت في بعض الأحيان تضبط على الساعة الرئيسية، ولكنّها استمرّت في العمل حتّى نهاية الرحلة.

وقد وجد أنّ الساعات الإنجليزية من طراز نصف كرونومتر لا تقلّ تفضيلاً عن أحسن الساعات السويسرية ذات الغطاء المحكم، من وجهة مقاومة الأتربة التي هي من أهمّ الخاصيّات الّتي نضعها نصب أعيننا، عند اختيار الساعات اللازمة للاستكشاف في

الصحارى. ومن أهمّ أسباب توقف عمل الساعات، واختلاف معدّل عملها، هو طريقة حملها أثناء السير. فتارة تكون مع الرحّالة، وهي في هذه الحالة تكون عرضة لصدمات عنيفة فجائية تحدث أثناء القفز من على ظهر الجمال أو محاولة الصعود عليها. وتارة تكون داخل الأمتعة، وفي هذه الحالة تكون عرضة لمثل هذه الصدمات التي تحدث من حركات الجمال الفجائية. ويعزى الشرح المحتمل للتقديم غير العادي، الّذي ظهر في الساعة الرئيسية في مدة قصيرة في الحالتين السابقتين، إلى ارتجاج أثناء الصعود أو الهبوط تحدث جراءه ملامسة للفتي الزمبلك الشعري ببعضها لمدّة قصيرة، مسببّة تأخّراً في مدّة تذبذب الرقّاص. وممّا يجدر بالذكر أنّ الساعة الّتي ظلّت تعمل طوال مدّة الرحلة كانت أكبر الساعات حجماً، فكانت مقاومتها لهذه العوامل تعود إلى حد ما، إلى قوّة مقاومة أجزائها نظراً لكبر حجمها.

3 – التعيينات الفلكية لخطوط العرض:

أخذت أرصاد ارتفاعات النجمة القطبية لتعيين خط العرض لتسعة عشر معسكراً في 35 ليلة باستعمال تيودوليت 3 بوصات الذي استعمل في أخذ أرصاد الوقت وأخذ ثلاث قراءات للارتفاعات على كل من الوجهين باستعمال شعرات الأستاديا الثلاث على التوالي، ودوزنت الأوقات بواسطة نصف كرونومتر المعلوم خطؤها عن الوقت المحليّ بالضبط بالأرصاد على الشمس أو نجم أخذت قبل أخذ أرصاد خط العرض، وأعطيت عناية خاصة لضبط ميزان روح التسوية ودوّنت الضغط الجوي ودرجة الحرارة في وقت أخذ الأرصاد.

ويبيّن الجدول الآتي نتائج الأرصاد:

خطوط العرض الفلكية

السلوم	4 ليال	9	35	31	شمالاً
سيوة	ليلة واحدة	41	12	29	شمالاً
جغبوب	5 ليال	26	44	29	شمالاً
المعسكر بقرب جالو	ليلة واحدة	56	11	29	شمالا
جالو (العرج)	ليلة واحدة	33	2	29	شمالاً

(بوتافال) بئر أبي الطفل	ليلة واحدة	26	54	28	شمالاً
الحراش	ليلة واحدة	29	26	25	شمالاً
التاج	6 ليال	47	13	24	شمالاً
أركِنو	ليلتان	32	12	22	شمالاً
العوينات	ليلة واحدة	29	52	21	شمالاً
إردي	ليلة واحدة	39	35	18	شمالاً
أجاة	ليلة واحدة	38	52	17	شمالاً
عنيبة (أنيباه)	ليلة واحدة	24	21	17	شمالاً
باو	ليلة واحدة	24	28	16	شمالاً
الفوراوية	ليلتان	51	21	15	شمالاً
أم بورو	ليلتان	57	3	15	شمالاً
القطوم (كُتم)	ليلة واحدة	15	12	14	شمالاً
الفاشر	ليلتان	3	38	13	شمالاً
الأبيض	ليلة واحدة	51	10	13	شمالاً

ومن هذه الأماكن يوجد ستة منها معروف خطّ عرضها من المساحات الرسمية لمصر والسودان وهي: السلوم – سيوة – جغبوب – كُتُم – الفاشر – الأُبَيّض. وقد وجدتُ أنّ أرقام حسنين بك مرضية، ولو أنه لم يتيسّر القيام بمقارنة دقيقة، نظراً لعدم التحقّق من معرفة موقف حسنين بك بالضبط. وقد أوضح حسنين بك أن نقطته التي أخذ منها الأرصاد في جغبوب تقع على بعد 200 متر في جغبوب الجنوبي الغربي لقبّة المسجد. وبتطبيق الفرق المنُاظر لخطّ العرض (ناقص 6 ثوان) على تعييني لخط عرض القبة في سنة 1917 الذي كان « 41 '44 °29 نحصل على 35 '44 °25 أي بفرق 9 ثوان فقط من أرصاد حسنين بك في خط العرض. وهناك اختبار آخر لدرجة دقّة أرصاد خط العرض، يمكن القيام به عبر مقارنة خطوط العرض التي وجدت للمعسكر نفسه بواسطة أرصاد أخذت في ليال متعددة. ونجد فيما يأتي متوسّط الانحراف لخط عرض واحد مرصود عن المتوسط لجميع المعسكرات

التي أخذ فيها رصدان أو أكثر لخط العرض:

السلوم	4 ليال ـ متوسط الانحراف	8 ثوان
جغبوب	6 ليال ـ متوسط الانحراف	40 ثانية
تاج	5 ليال ـ متوسط الانحراف	12 ثانية
أركِنو	2 ليلتان ـ متوسط الانحراف	6 ثوان
الفوراوية	2 ليلتان ـ متوسط الانحراف	8 ثوان
أم بورو	2 ليلتان ـ متوسط الانحراف	23 ثانية
الفاشر	2 ليلتان ـ متوسط الانحراف	6 ثوان

ومن هنا، يظهر أن الخطأ في خطوط العرض المرصود لا يبلغ مقدار دقيقة واحدة. وبالتالي اعتمدت خطوط العرض التي رصدها حسنين بك عند تجهيز الخريطة عن النقط غير الموجود فيها تعيينات سابقة، مثل الحراش والتاج وأركِنو والعوينات وإردي وأجاة وعنبية وباو. وقد اعتمدت في الخريطة أيضاً خطوط العرض التي رصدها حسنين بك عند جالو (العرج) وبئر أبي الطفل والفوراوية، لأن أرصاد أولهما من المحتمل أن تفوق أرصاد رولفس التي دلت على دقيقتين 2 إلا أنها من دون شك أدقّ، لأنها تتّفق تماماً مع خط حسنين بك، ولأن أرصاد موقع الفوراوية، ولو أنه موضّح على خرائط السودان إلا أنه خارج عن حدود مثلثات السودان، ويحتمل فيه بعض الخطأ.

وبعد كتابة ما تقدم، وصلتني معلومات من جانب مدير مساحة السودان أن جبل الفوراوية اعتبر كنقطة في شبكة المثلثات السودانية، وأن موقع القمة بالضبط هو خط عرض «59 '20 º15 شمالاً وخط طول «48'36 º23 شرقاً وارتفاع 954 متراً عن سطح البحر. وهذا الموقع يختلف بكيلومترين عن الخريطة المشار إليها، ولكن نظرا لعدم معرفة المسافة والانحراف من معسكر حسنين بك إلى التل ولو أن خط العرض الذي وجده حسنين بك يعيّن مركزه بموازاة كيلومتر ونصف شمال التل، فلم أر ان هناك ما يدعو إلى القيام بأي تغيير في ضبط نتائج حسنين بك. وخط الطول المعتمد على المعسكر ربما يكون مختلفاً اختلافاً بسيطاً حتى إنه لا يحتمل أن يتعدى الخطأ فيه ميلاً او أكثر. ولما كان الفرق بين سطح التل ونقطة معسكر حسنين بك غير معروف بالضبط، فلذا لا يوجد هناك

ضابط لقراءة البارومتر عن نقطة المعسكر، وبناء عليه رأيت من الحكمة ان أستعمل الفاشر كضابط جنوبي في تصحيح تعيين الارتفاعات.

4 – أرصاد اختلافات البوصلة

لسهولة إيجاد النجم القطبي عندما يكون في السماء غير قاتم جداً أو محجوباً بالسحب احتجاباً جزئياً، وللحصول أيضاً على الانحراف التقريبي لنجوم الوقت لتعريف ذاتيتها، وضع التيودوليت دائماً في خط الزوال المغنطاسي بواسطة بوصلته الحوضية، وقرِئ الانحراف المغناطيسي للنجم القطبي على الدائرة الأفقية بعد رصد كل خط عرض، ولوحظ الوقت. وبهذه الطريقة تعين انحراف البوصلة التقريبي لكل معسكر، وكانت النتيجة كالآتي:

السلوم	ديسمبر سنة 1922	3 أرصاد	34 2	غرباً
سيوة	يناير سنة 1923	رصد واحد	42 2	غرباً
جغبوب	فبراير سنة 1923	5 أرصاد	25 2	غرباً
المعسكر بقرب جالو	مارس سنة 1923	رصد واحد	12 4	غرباً
جالو (العرج)	مارس سنة 1923	رصد واحد	5 4	غرباً
(بوتافال) بئر أبي الطفل	مارس سنة 1923	رصد واحد	5 4	غرباً
الحراش	أبريل سنة 1923	رصد واحد	48 3	غرباً
التاج	أبريل سنة 1923	6 أرصاد	32 3	غرباً
أركِنو	أبريل سنة 1923	رصدان	57 3	غرباً
العوينات	أبريل سنة 1923	رصد واحد	00 4	غرباً
إردي	مايو سنة 1923	رصد واحد	21 4	غرباً
أجاة	مايو سنة 1923	رصد واحد	00 4	غرباً
عنيبة (أنيباه)	يونية سنة 1923	رصد واحد	21 4	غرباً
باو	يونية سنة 1923	رصد واحد	59 4	غرباً
الفوراوية	يونية سنة 1923	رصدان	32 4	غرباً
أم بورو	يونية سنة 1923	رصدان	25 3	غرباً
القطوم (الكُتم)		رصد واحد	26 4	غرباً
الفاشر		رصدان	51 2	غرباً

وبالطبع، إنّ طريقة تقدير انحراف البوصلة بواسطة التيودوليت هي تقريبية فقط. ولكن المقادير التي وجدت قد تكون صحيحة في أغلب الأماكن، بفرق قدره نصف درجة، تبين أن ليس هناك أي احتمال لخطأ فادح في المقاس المباشر، نظراً للشذوذ المحلي لانحراف البوصلة. وعلى ذلك فقد استعملت في تحويل انحرافات (الترافاس) للبوصلة إلى الانحرافات الحقيقية للجزء الأكبر من الطريق الذي لم يسبق وجود تعيينات له، والذي بناء على ذلك لم يعرف بأي درجة من الدقة تمّ توزيع الخطوط المتساوية في الاختلاف المغناطيسي.

5 – **خطوط الطول**

إن احتمال تلف بعض الساعات في سفر سبعة أشهر قد أمكن التنبؤ به، وظهر منذ البداية عدم الاحتمال بأن هناك أي فائدة يمكن الحصول عليها من الساعات، في تعيين خطوط الطول، في سفر طويل شاق كهذا. وعليه فقد رأينا الاتّكال كلياً على المقاس المباشر لخطوط الطول، باذلين كل الجهد للحصول على سلسلة كاملة من انحرافات البوصلة والمسافات المقدّرة بين جغبوب وبعض الأماكن المعروفة في السودان. ويجب أخذ الانحرافات ببوصلة جيدة بكل دقة ممكنة وعلى مسافات تحسب يومياً من مدة سير مجمل المهمات، باعتبار معدل 4 كيلومترات في الساعة على طريق الصحراء، مع اعتبار اختلافات السرعة على أراض مختلفة الطبيعة. وابتدأت الرحلة من الشمال إلى الجنوب، فلذلك كان لا بدّ من ضبط المسافات بواسطة خطوط العرض، بينما لم تتراكم أخطاء الانحراف، عندما كانت قابلة للتسوية من تلقاء نفسها على أي طول كبير من الطريق. وكان السبب الرئيسي في أخذ ست ساعات لم يكن لإيجاد خط الطول، التي لم توفّر إلاّ بعض المقادير القابلة للشك، وإنّما للتأكد من وجود ساعة واحدة على الأقل تستمر في العمل طوال مدة الرحلة لرصد خطوط العرض، إذ من دونها لا يمكن إيجاد ضابط تام لمعرفة جميع المسافات الرئيسية.

ولقد برهن احتمال حصول التلف للساعات على صحة التنبؤ به، إذ تلفت جميع الساعات باستثناء واحدة، غير أنه لحسن الحظ ظلت هذه الساعة الواحدة تعمل حتى نهاية الرحلة، وأمكن بواسطتها تعيين خطوط العرض (ولو أن معدل عملها لم يكن ثابتاً

الى حدّ استخدامه من دون ضابط في إيجاد خطوط الطول). ومن الجهة الأخرى اتبع بدقة البرنامج الخاص برصد سلسلة متواصلة من الانحرافات (زوايا الطريق) الدقيقة، وبتقدير أطوال الطريق بين هذه الانحرافات من بدء القيام من جغبوب (آخر نقطة في مصر) حتى الفوراوية (اول نقطة معروفة في السودان)، وهي مسافة 2430 كيلومتراً. ومن هذه السلسلة المتواصلة للانحرافات وتقدير خطوط الطول متحدة مع خطوط العرض المرصودة، أمكن تقدير خطوط الطول لجميع المواقع على طول الطريق بدرجة عالية نوعاً ما من الدقة.

ولتقدير خطوط طول جالو (العرج) اتّبعت طريقة تختلف قليلاً عن تلك التي اتّبعت في مختلف المعسكرات الرئيسية على طول الطريق. ويرى الناظر إلى الخريطة أن اتجاه السير من جغبوب إلى جالو كان من الشرق إلى الغرب[1]، بدلاً من الشمال إلى الجنوب، كباقي اتجاهات سير الرحلة. وعليه لم تكن خطوط العرض المرصودة كافية لتصحيح المسافات المقدرة في هذا الجزء من الطريق بخلاف الأجزاء الأخرى. ولكن لحسن الحظ ساعدنا خط العرض المرصود عند جالو على تصحيح التقدير السابق الذي أوجده حسنين بك في سنة 1920 عن بعد هذا المكان من الجيدابية، وهذا مضافاً إليه الانحرافات المرصودة وقتئذ التي يمكن الاستنتاج منها مقياس واحد لخطّ العرض عند جالو، وإذا افترضنا أن تقدير البعد بين جغبوب وجالو صحيحاً، أمكننا استعمال خط العرض المرصود عند جالو لتصحيح الانحرافات وبذلك نحصل على مقدار آخر لخط الطول. وبعد إمعان النظر في جميع المعلومات الموجودة، نجد أن الطريقتين متساويتان في درجة الدقة، وأن تحديد موقع الجيدابية باعتبار خط عرض 30» 48' 10º شمالاً، وباعتبار خط طول 30 13 'º20 شرقاً، معرضاً لبعض الشك.

لم يُعرف ما اذا كان هناك أرصاد أخذت بدقة عن الجيدابية والموقع الذي ظهر هو الموقع نفسه الذي اعتمدته في تحضير خريطة سابقة عام 1921 وحصل عليه بفضل تقديرات استطاع ملاحظتها من مسافات وانحرافات عينت بواسطة استعمال «الأتوموبيل» والبوصلة بمعرفة الكابتن ونيمز من «زويتينة» في سنة 1918، والانحرافات التي رصدت

(1) ليس في نص الرحلة ما يدل على وقوع خطأ أو انحراف في اتجاه السير، وذكر الآبار والعلامات التي مروا بها بوضح ذلك.

بمعرفة حسنين بك في رحلته السابقة ربما كانت أقل دقة من رحلته الحاضرة، ومن جهة أخرى فإن تقدير المسافات من جغبوب إلى جالو كما استخرجت بواسطة الضبط بخطوط العرض عن الأجزاء الأخرى من الطريق تقترب جداً من الحقيقة، بينما يحرك التصحيح المتساوي بمقدار نصف درجة في زوايا الطريق المباشر بالضبط لموقع جالو حتى يقع على موازاة خط العرض المرصود. ولقد اعتبرتُ خط طول جالو على الخريطة متوسط خطيّ الطول الذي وجد أولاً باعتبار أن:

أولاً – انحرافات حسنين بك مضبوطة من «الجيدابية» مع تصحيح مسافاته بواسطة خطوط العرض.

ثانياً – مسافاته من جغبوب مضبوطة وباستعمال خطوط العرض المرصودة لضبط زواياه.

النتيجة

الحالة الأولى: من الجيدابية خط الطول عن جالو (العرج) 21º 29' 48.

الحالة الثانية: من جغبوب خط الطول عن جالو (العرج) 21º 26' 19.

المتوسط المعتمد = 3 <28 21º

والجدير بالذكر أن النتيجة تظهر جالو في موقعها بالضبط المبين في خريطة رولفس سنة 1880 والطريقة التي اتبعت بخطوط الطول المعتمدة للمعسكرات الأخرى على طول الطريق كالآتي:

تقسيم الطريق إلى تسعة أجزاء بين المعسكرات المهمة الآتي بيانها التي رصد فيها خط العرض وهي: جالو – الحراش – تاج – أركِنو – العوينات – إردي – أجاة – باو – الفوراوية، ورسم ترافوس البوصلة عن كل قسم بمقياس 1 / نصف مليون من واقع الانحرافات المرصودة وخطوط الطول المقدرة، ورسم خط الزوال عن كل قسم من متوسط قراءات انحرافات البوصلة على طرفي الخط، وقياس مقدار الفرق الكلي عن خط العرض عن كل قسم وقورن بالفرق الناتج من خط العرض من واقع الأرصاد، وهذه المقارنة أعطت بالطبع متوسط الخطأ في تقدير المسافة على طول كل قسم باعتبار أن الانحرافات مضبوطة. ونتيجة المقارنة عن الأجزاء المختلفة هي كما تظهر في الجدول الآتي:

تصحيحات عن المسافات المقدرة

جزء الترافرس (خط السير)	فرق خط العرض من واقع الرسم (كيلو متر)	الفرق الحقيقي لخط العرض من واقع الارصاد (كيلو متر)	الفرق في خط العرض بين الرصد والرسم (كيلو متر)	تصحيح المسافات المقدرة في المائة
جالو – الحراش	375	399	24	6.4
الحراض – تاج	131.5	134.2	2.7	2.1
التاج – أركِنو	217.7	223.7	6	2.8
أركِنو – العوينات	36	37	1	2.8
العوينات – إردي	369	363.2	5.8	1.6
إردي – أجاة	75.6	79.2	3.6	4.8
أجاة – أنيياه	57	57.5	0.5	0.9
أنيياه – باو	99	97.7	1.3	1.3
باو – الفوراوية	124.2	122.7	1.5	1.2

وكانت أول خطوة، بعد إيجاد متوسط الخطأ للمسافات المقدرة لكل جزء من الطريق، هي قياس فروقات إحداثيات خطوط الطول من الترافرس المرسوم، مع تصحيح الخطأ في المسافات المقدرة وتحويل فروقات إحداثيات خطوط الطول إلى فروقات. ولما تمّ ذلك كانت نتيجة الفرق في خط الطول بين جالو والفوراوية "2º 25' 55. وباعتبار أن خط الطول الحقيقي عن جالو هو كما يظهر أعلاه، وخط الطول الحقيقي عن الفوراوية كما هو وارد في خريطة بمقياس 1/ ربع مليون من خرائط مساحة السودان سنة 1921 ينتج:

خط طول جالو: "21º 28' 3

خط طول الفوراوية: "23º 38' 7

الفرق: "2º 10' 7

وعلى ذلك يحتاج فرق خط الطول الذي وجد عبر القياس المباشر إلى التصحيح بمقدار «48 '15. وهذا التصحيح يتضمن فرقاً في الزوايا يقلّ مقدار متوسط الخطأ فيه عن درجة في انحرافات البوصلة، ويتضمن أيضاً مقداراً في المسافات المعدلة يمكن تجاوزها. وقد وزّع على جميع خطوط السير (الترافرس) بالنسبة لفروقات خط العرض بين المعسكرات الرئيسية، وعليه نجد في ما يأتي مقادير خطوط الطول المعتمدة.

خطوط الطول المستنتجة

القياس المباشر مصححاً بخط العرض					تصحيح خطوط الطول المستنتجة الآخر					
جالو	–	–	–	شرقاً			3°	28'	21°	شرقاً
الحراش	5"	15"	22°	شرقاً	10"	29'	55"	10'	22°	شرقاً
التاج	5"	29'	23°	شرقاً	34"	29'	41"	23'	23°	شرقاً
أركِنو	10"	52'	24°	شرقاً	55"	29'	15"	44'	24°	شرقاً
العوينات	34"	2'	25°	شرقاً	18"	29'	16"	54'	24°	شرقاً
إردي	34"	22'	23°	شرقاً	5"	29'	29"	10'	23°	شرقاً
أجاة	49"	28'	23°	شرقاً	54"	29'	55"	15'	23°	شرقاً
عنيبة (أنيباه)	58"	27'	23°	شرقاً	30"	29'	28"	14'	23°	شرقاً
باو	18"	16'	23°	شرقاً	31"	29'	47"	1'	23°	شرقاً
الفوراوية	58"	53'	23°	شرقاً	48"	29'	10"	28'	23°	شرقاً

وعند محاولة تقدير الدرجة المحتملة للدقّة عن خطوط الطول المستنتجة وجدت صعوبة، إذ بينما نتحقّق من أنّ متوسّط الخطأ في انحرافات البوصلة كان أقلّ من درجة، وهذا الخطأ تصحح في التعديل، نجد أن ليس لدينا ما يثبت أنّ الخطأ في البوصلة البالغ قدره 339 الّذي يكوّن بيانات الاتجاهات عن 1754 كيلومتراً من الترافرس من جالو إلى الفوراوية (أيّ متوسّط 38 انحرافاً مرصوداً عن كلّ قسم من الأقسام التسعة). ومع ملاحظة الدقّة المتناهية في تقدير المسافات، كما تعيّنت من أرصاد خطّ العرض، يظهر أنّ أيّ خطّ من خطوط الطول المبيّنة أعلاه لا يحتمل خطوءه في التقدير عن ثلاثة أو أربعة أميال. وهذا

يتضمن درجة من الدقّة كان من الصعب تحقيقها بنقل عدد كبير من الكرونومترات في رحلة داخلية استغرقت أكثر من ثلاثة شهور. وأرى أنّه يمكن الإجمال حينئذ بأنّه لا يمكن الحصول على نتائج لخطوط الطول أحسن من هذه بدون مساعدة إشارات الوقت اللاسلكية.

6 – الارتفاعات عن سطح البحر

استعمل للتقدير البارومتري للارتفاعات عن سطح البحر (أنريد) بوصة 2 صناعة (إستيورت). وكانت هذه الآلة إحدى الاثنتين اللّتين صنعتا خصّيصاً لهذه الحملة لكي لا تتأثرا من تقلّبات الحرارة، وجهّزت بمقياس ضغط مفتوح يوازي الملّيمتر على مقياسه الحقيقي ملّميتر من الضغط تقريباً، حتّى إن التقديرات في الضغط إلى نصف ملّيميتر كان في الإمكان تقديرها. وقرئ البارومتر في الصباح والمساء في كلّ من المعسكرات وفي مواقع أخرى متعدّدة في الطريق، ودوّنت في الوقت ذاته قراءات درجة حرارة الهواء بواسطة الترمومتر الّذي يبيّن درجة الرطوبة، وقد عمل البارومتر بشكل جيّد جداً خلال كافّة مراحل الرحلة. ولكن لسوء الحظّ لم تُتح فرصة لاختبار الآلة قبل رحيل حسنين بك، ولكنّها كانت بحالة جيّدة عند عودته. وقد اختبر البارومتر بعد ذلك في معمل مصلحة الطبيعيات في مصر ووجد أنّه يحتاج إلى التصليحات الآتية في درجة 25 سنتيغراد

الضغط بالملّيمتر 760 750 740 730 720 710 700 690 680 670 660 650

التصحيح بالملّيمتر 3.2− 2.3− 2.1−−1.4−1.1−0.1+0.6+1.7+0.2+2.9

وتجدر الإشارة الى أنّ بقاء هذه التصحيحات ثابت في جميع أوقات الرحلة أمر محتمل جداً، بالاتفاق التام المبين سابقاً بين المنسوب الّذي وجد عن جالو عبر قراءات البارومتر مباشرة (مصحّحاً بالطبع باعتبار الجدول الموضّح أعلاه ثابتاً) وبين قيمة المنسوب كما تعيّنت من قراءات البارومتر الزئبقي في محطة الأرصاد الجويّة في سيوة.

وكانت الخطوة الأولى في حساب منسوب البارومتر هي جمع قراءات البارومتر والترمومتر في كلّ من المعسكرات التسعة الّتي أُقيم فيها عدّة أيّام وأخذت فيها عدّة قراءات، واستخراج متوسّط مجموع الضغط المدوّن ودرجات الحرارة عن كلّ من المعسكرات الرئيسية وصحّح الضغط عن الخطأ الآلي من الجدول المبيّن أعلاه. ونظراً لأخذ الأرصاد في أوقات مختلفة من النهار فالاختلاف اليومي عن الضغط يمكن إهماله

حيث إنه يتلاشى عند أخذ متوسّط القراءات، وكي يتمّ إحتساب الاختلاف السنوي يتمّ تحويل متوسّط الضغط إلى متوسّط ضغط السنة باستعمال تصحيح مبني على الاختلاف السنوي العادي في سيوة والأبيض كما هو مدوّن في كتاب «عاديات الطقسيات»، الّذي وضعته مصلحة الطبيعيات المصرية وموضّح بالجدول الآتي:

جدول تصحيحات لتحويل متوسّط الضغط الشهري إلى متوسّط الضغط السنوي بالملّيمتر:

	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونية	يولية
سيوة	−3.4	−2.0	−1.9	+0.9	+0.9	+2.7	+3.5
الأبيض	−1.2	−0.7	+0.3	+1.2	+1.0	+0.6	−
المتوسّط	−2.3	−1.4	−0.8	+1.0	+1.0	+1.6	+1.8

وكان من المستحب القيام بتصحيح آخر للتوزيع على الأماكن ذات الضغط البارومتري المتساوي عند سطح البحر في المنطقة الّتي اخترقت، ولكنّه لم تتوفّر البيانات لإجراء هذا التقدير. غير أنّ هذا التوزيع يحتمل أن يكون خطيّاً، وقد توزّع بالتقريب باعتبار منسوب سيوة السابق (17−) مليمتراً والفاشر (793) مضبوطاً.

وإنّ توزيع أيّ باق من الفرق بواسطة تصحيح قراءات البارومتر بين هذين المحلّين بالتساوي بين الأقسام المختلفة وفرق الارتفاع المقابل لكلّ فرق لمتوسّط قراءات البارومتر المصحّحة عمل حسابه من جداول Barometrische Höhenstufen في بحث يوردان Jordan: Mathematische und Geodätische Hülfstafeln عن درجة حرارة الهواء المقابلة لمتوسط قراءات الترمومتر في نهايتي الخط.

وكانت المناسيب المعتمدة عن 13 معسكراً كما تعيّنت بالطريقة المبينة قبلاً، كما هي مبينة في الجدول التالي. وما هو جدير بالذكر أنّ باقي فرق الارتفاع الّذي وزّع بين سيوة والفاشر، والّذي افترِض أنّه نشأ من ميل خطّ الضغط المتسلسل، بلغ 63 متراً، وهو يعادل هبوطاً عادياً في الضغط عند سطح الماء بين المحلّين بمقدار 5 مليمترات من وجهة أخرى، ما هو أقرب الى الواقع، وأن التصحيح النهائي الّذي أجري في مناسيب أيّ جزء رئيسي من الطرق لا يتجاوز 5 أمتار.

الارتفاعات المستنتجة عن سطح البحر

عدد الأرصاد	متوسط الضغط مصححاً بالمليمتر	متوسط درجة الحرارة سنتيغراد	فرق الارتفاع من واقع جداول بالمتر	فرق الارتفاع مصححاً بالمليمتر	الارتفاع عن سطح البحر بالمتر
سيوة 4	762.6	12	–	–	17
جغبوب 50	757.7	15	54	49	32
جالو 18	754.7	17	34	29	61
الحراش 6	732.8	23	254	149	310
تاج 31	718.5	19	170	165	475
أركِنو 12	708	31	128	123	598
العوينات 14	706.3	31	21	18	616
إردي 7	683.3	31	295	290	906
أجاة 3	695.2	34	157	162	744
باو 5	677.7	33	230	225	969
الفوراوية 11	685.8	31	107	112	857
أم بورو 8	679.5	30	83	78	935
القطوم 5	660.2	24	254	249	1184
الفاشر 5	689.7	31	386	391	793

بعد تحديد مناسيب المعسكرات الرئيسية أجري حساب المعسكرات المتوسّطة ومحلات أخرى بالطريقة نفسها مع تصحيح كلّ جزء من المناسيب المعتمدة في النهايات وأقصى تصحيح كان يلزم لتطبيقه على فروقات الارتفاع الّذي نتج من قراءات البارومتر بين نقطتين في سفر يوم واحد بلغ خمسة امتار، والمتوسّط ثلاثة أمتار، واستثني من ذلك

المسافة بين جغبوب وجالو حيث لم تعتمد مناسيب في الطريق بينهما لرسم الخريطة نظراً لصعوبة حالة الجوّ وعدم ثباتها مدّة السفر بين هذين المكانين وحدثت زوابع شديدة في عدّة أيّام من السير كان يصحبها اختلافات سريعة في الضغط الجوي حتّى إنه لم يمكن بالضبط الحصول على نتائج ارتفاعات من قراءات البارومتر.

وأمّا في ما يتعلّق بدرجة الاعتماد على المناسيب المستنتجة فيحوم حولها شكّ في المناسيب المعتمدة على المواقع النهائية وهي سيوة والفاشر، بينما لم تُختبر دقّة الحرارة في البارومتر، وربما لم يكن مضبوطاً. وإذا أخذنا بالاعتبار كلّ النقاط، فيمكن تقدير أن مناسيب المعسكرات الرئيسية صُحّحت بنسبة تترواح بين 20 متراً تقريباً، بينما المنسوب عن المعسكرات الوسطى والنقاط الأخرى الّتي أخذ فيها قراءة أو قراءتان للبارومتر ربّما كان الخطأ فيه ضعف هذه الكمية.

7 – ملخّص المواقع الجغرافية الرئيسية والمناسيب

ملحوظات الارتفاع خط الطول شرقاً خط العرض شمالاً عن سطح البحر سطح المتر
أخذ الموقع المعين 32 24 31 11 29 44 44 جغبوب المسجد سابقاً بمعرفة الدكتور بول 61 21 28 3 19 2 33 جالو (العرج) 98 21 54 15 28 54 26 بئر أبي الطفل 310 22 10 55 25 26 29 الحراش بئر زيغن 475 23 23 41 24 13 47 تاج (الكُفرة)
ترافس قصير بالبوصلة 400 23 24 40 24 13 8 بويمة الكُفرة من تاج معسكر رولفس 598 24 44 15 22 12 32 أركِنو

8 – تكوين خريطة الطريق بمقياس 1/مليون

في عملية استعمال المقياس المباشر في تعيين خطوط الطول للمعسكرات الرئيسية، رصد الطريق احتياطياً بمقياس 1/نصف مليون مباشرة في دفاتر الأرصاد على سلسلة لوح يحتوي كلّ جزء منها على جزء من الطريق. وأضيفت على رسم هذه السلسلة من اللوح المناسيب المحسوبة عن كلّ معسكر، والمعالم الجغرافية تعيّنت بانحرافات فرعية على جانبي الطريق بمذكرات حول طبيعة الأرض، والأجزاء المختلفة الّتي رسمت احتياطاً بمقياس 1/ نصف مليون صغرت بمقياس 2/1 مليونين، مع اعتبار الفروقات البسيطة في توقيعات الرسم عن مقياس 1/نصف مليون، كما وقع من واقع خطوط العرض المرصودة. والأجزاء المختلفة المصغرة وضعت على الخرائط النهائية بين المواقع المعتمدة نهائياً للمعسكرات الرئيسية. ووجد عملياً بيان الطبيعة الجغرافية الرئيسية على الخريطة النهائية، ولو انّ المذكرات عن طبيعة الأرض اضطر إلى إغفالها لتبسيط الخريطة. ومع ذلك، فإنّ هذه المذكرات حفظت على خرائط قطاعية أصلية بمقياس 1/ نصف مليون في مصلحة مساحة الصحارى في مصر حتّى يمكن الرجوع إليها في المستقبل، بينما روحها أُدمجت في رواية حسنين بك عن هذه الرحلة ورسم الجزء الرئيسي في الطريق، وهو من جغبوب إلى الفوراوية، من واقع مذكرات حسنين بك اليومية ودفاتره. ونقلت الأجزاء الخاصّة بالطريق من السلّوم إلى جغبوب في الشمال، ومن الفوراوية إلى الأبيض في الجنوب، من واقع الخرائط الرسمية الحديثة لمساحة مصر والسودان، باعتبار أنّها أدقّ من طريقة مساحة الطريق. وقد ساعد تحديد مواقع الحراش والتاج من واقع أرصاد حسنين بك على تحديد الطريق في رحلة حسنين بك السابقة مع المسز فوربز العام 1920 – 1921 بطريقة مضبوطة بشكل أفضل عن الارصاد الأصلية لتلك الرحلة الّتي لم تعزّز بأرصاد فلكية. وقد حدّد الطريق السابق من واقع تحديد المواقع الحديثة، وتبين بخطوط مقطعة على الخريطة الجديدة.

9 – إضافات لمعلوماتنا الجغرافية نتيجة هذه الرحلة

جالو: يشبه جزء قطعه حسنين بك في طريقه من جغبوب إلى جالو بالطريق الّذي قطعه رولفس في سنة 1869. وعند «جاراماتان سيدي»، التي تقع تقريباً في منتصف الطريق بين

جغبوب وجالو، يتفرّع الطريق، وقد اتّبع حسنين بك الفرع الشمالي من الطريق المعروف بطريق «الزاوية» والّذي يمرّ بآبار «هزيلا» ويتّصل بجالو بطريق أقرب إلى الشمال من الفرع الجنوبي المعروف بطريق «المجابرة» الّذي اتّخذه رولفس. ويتطابق الموقع الّذي حدّده حسنين بك مع الموقع الّذي حدّده رولفس، ولكن هناك اهتماماً خاصاً في تعيين منسوب الآبار بمعرفة حسنين بك بمقدار 61 متراً فوق سطح البحر. وقد وجد رولفس عندما زارها سنة 1869 و1879 أنّ البارومتر يبيّن منسوباً أقلّ من سطح البحر في سنة 1869 وفوق سطح البحر سنة 1879 وبناءً على ذلك استنتج أنّ كلا من «هزيلا» و»جالو» تقع عند سطح البحر[1]، وتعتمد تعيينات حسنين بك على أرصاد البارومتر مدّة عشرة أيّام مع مقارنته بسيوة.

وتجدر الاشارة الى أنّ المنسوب نفسه المستنتج لجالو هو 61 متراً، سواء أكانت المقارنة بالبارومتر المعيار في محطّة الأرصاد الجوية في سيوة في هذا الوقت نفسه أم من قراءات أخذها حسنين بك بالبارومتر نفسه في 4 أيّام مختلفة في سيوة قبل ذلك بشهرين (مع حال الاختلاف السنوي عن الضغط في المدّة بين الوقتين) ولا شكّ في دقّة تعيينات حسنين بك، إذ لم تسمح الفرصة لقراءات رولفس أن تمتدّ مدّة طويلة كهذه، ومن المؤكّد انّها لم تقارن في الوقت نفسه بمكان ذي منسوب معروف. والجدير بالذكر أنّ المنسوب الّذي يشير إليه حسنين بك هو عن نقطة رصد أعلى من النقطة الّتي اتّخذها رولفس، وذلك نظراً لإحاطة الرمال بالمنازل. وعليه بدأ سكّان «العرج» في بناء منازلهم من جديد على أرض أعلى، وأخذت أرصاد حسنين بك على أحدث مسكن من هذه المساكن. وهناك نقطة أخرى تستحقّ الذكر، وهي أنّه وعلى الرغم من أن تعيينات حسنين بك تمّ مراجعتها عبر التطابق التامّ بين الطريقتين المتبعتين في المقارنة المذكورة أعلاه، فإنّ اختلافات الضغط المرصودة من يوم إلى يوم عند جالو تزيد كثيراً عن سيوة في عشرة الأيّام نفسها الّتي أخذت فيها الأرصاد. وأكبر مدى أظهره البارومتر عند جالو كان عشرة ملّيمترات من معيار البارومتر في سيوة، والسبعة ملّميترات هي متوسّط الضغط بين الموقعين خلال عشرة أيّام من المقارنة، وهي الفترة المعتمدة لحساب المنسوب الجديد، هو عبارة عن متوسّط

(1) انظر مذكّرات رولفس عن الكُفرة سنة 1881 صفحة 226 (الدكتور بول)

الفرق الّذي يختلف من 1 – 12 ملّيمتر في أيّام مختلفة. والاختلاف الكبير للضغط الجوي عند جالو يفسّر عدم تطابق نتائج رولفس في تواريخ مختلفة، الذي قد له صلة بالزوابع الرمليّة التي يكثر حصولها في هذه المنطقة.

بئر أبو الطفل (أو باتيفال كما سمّاها رولفس)

تكتسب هذه البئر أهميّة معيّنة لأنّها المكان الأخير في طريق القوافل الّتي تخترق الصحارى الوعرة بمسافة طولها 400 كيلومتر حتّى تصل إلى «زيغن». وموقع بئر أبو الطفل كما عيّنه حسنين بك يتّفق الى حدّ كبير مع الأرقام الّتي أعطاها رولفس (أنظر Mitt. P 71 1881 – Afrik Geo، Band II 0881)

ارتفاع عن سطح البحر		خط طول شرقاً	خط عرض شمالاً
21 98	15 45	26 54 28	أرقام حسنين بك
21 58	10 44	22 56 28	أرقام رولفس
– 1 56	40 – 1 5		الفرق

زيغن «سرهن» (كما أسماها رولفس)

أُطلق هذا الإسم على المنطقة الّتي تتواجد فيها عدّة آبار، وغير مأهولة بالسكّان، وأهميّتها تنحصر في وقوعها في طريق القوافل من جالو إلى الكُفرة، والبئر الرئيسية التي تقصدها القوافل هي بئر الحراش. ولم يزر رولفس زيغن، وإنّما سافر من جالو إلى الكُفرة من طريق تتجه غرباً أكثر عن طريق «تيزربو» و»بوزيما». والموقع المعيّن لزيغن على الخريطة بُني تعيينه على أقوال مرشديه، وهو على بعد 100 كيلومتر شرقاً من الشمال الشرقي عن موقعه. وبما أنّ أيّ سائح في المستقبل ينتظر الشتاء للسير من جالو إلى الكُفرة، في الوقت الّذي تلي فيه أهميّة الوقود أهميّة المياه، فمن المهمّ أن يلاحظ أن المكان الأوّل حيث يمكن العثور فيه على الحطب للوقود يقع على بعد 342 كيلومتراً بعد بئر أبي الطفل، وعلى بعد 52 كيلومتراً قبل الوصول إلى بئر الحراش. وفي حالة الطوارئ، يمكن الحصول على المياه من ماتان أبو حوش، وهي البئر القديمة بزيغن التي تبعد 18 كيلومتراً قبل الوصول إلى الحراش، ولكنّ الحراش مياهها ألطف وهي المركز المعتاد الّذي تقصده القوافل، ويمكن الحصول فيه على المياه من دون حفر. وعلى ذلك فالقوافل، التي تكون

في حالة الظمأ الشديد، تفضّل الذهاب إلى الحراش عن الوقوف عند البئر القديمة. ويمكن الحصول على أحسن مياه في جوار الحراش بالحفر إلى عمق 3 أو 4 أقدام، وتبعد الحراش عن بوزيمة بمقدار 54 كيلومتراً في اتجاه منحرف قليلاً شرقاً عن الجنوب، وتبعد الحراش عن التاج، وهي أهم مدينة في إقليم الكُفرة، نحو 180 كيلومتراً جنوب شرق.

تيزربو

وهي أقصى واحة في إقليم الكُفرة من الجهة الشمالية الغربية، ولم يزرها كما هو معلوم أحد من السياح منذ أيّام رولفس. وموقعها كما عيّنه حسنين بك يقع بين درجتي 70 و80 غرب شمال الحراش على بعد يراوح بين 60 و70 كيلومتراً. وهذا التعيين يضع تيزربو في الموقع الّذي عيّنه رولفس، وموقع معسكر رولفس عند قصر (جيران جدي) ربّما كان أقرب الى الواقع، ولو أنّ الواحة قد تكون في الحقيقة أقلّ حجماً عمّا بيّنها في خريطة.

بوزيما

ولو أن حسنين بك لم يمرّ ببوزيما في هذه الرحلة إلا أنّ تعيينه لموقع الحراش، بالتطابق مع خط سير البوصلة التقريبي لموقع بوزيما عند زيارته مع المسز فوريز العام 1921، يسمح بتعيين موقعها على درجة متوسّطة من التقريب. ولقد صُحّحت تقديرات حسنين بك عن المسافات والانحرافات في رحلته السابقة بمقتضى خطوط العرض المرصودة عن الحراش وتاج، والّتي تعيّن موقع معسكره في بوزيمة على بعد 60 كيلومتراً من الحراش في اتجاه خمس درجات شرقاً من الجنوب الحقيقي. ومن معسكره إلى معسكر رولفس (عين النصراني) يقع موقع الحراش على بعد 15 كيلومتراً تقريباً في اتجاه غربي من الشمال الغربي الحقيقي، ووفق تعيين حسنين بك الحديث لموقع الحراش يعيّن موقع معسكر رولفس على بعد 30 كيلومتراً عن موقعه في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو الجنوب، حسب ما عيّنه رولفس كما يتبيّن من المقارنة الآتية:

	خطّ عرض شمالاً	خطّ طول شرقاً
بوزيمة (معسكر رولفس من أرصاد أشتيكر):	42 11 25	0 15 22
بوزيمة (معسكر رولفس من تقدير حسنين بك):	11 58 24	46 5 22
الفرق:	31 13 0	14 9 0

ويتعذّر القول أن يكون قد أخطأ حسنين بك بمقدار 25 كيلومتراً في تقديره السابق لبعد بوزيمة عن الحراش، ولذا نرى في الواقع أن الخطأ يكمن إمّا في أرصاد أشتيكر أو في ما هو أكثر احتمالاً في تحويله لهذه الأرصاد. وهذه النقطة سيشار إليها فيما بعد عند المناقشة على موقع بوزيمة.

الكُفرة «كبابو» (كما أسماها رولفس)

لا يطلق اسم الكُفرة الآن بشكل عامّ على واحات الكُفرة جميعها، كما فعل رولفس العام 1879، ولكن بصفة خاصّة يطلق على الجزء الّذي أطلق رولفس عليه اسم «كبابو» ومقرّ الحكومة المحلية والمستعمرة الرئيسية. وهي المدينة ذات الأسوار المسمّاة «تاج» الواقعة على قمّة جبل صخري يشرف على أودية الصحراء الحقيقية التي تقع في الجنوب وتشمل قرى: جوف – بومة – بويمة – الزروق – الطلاليب – الطلاب. وقد أجرى حسنين بك خط العرض عند تاج وتقدّم بنحو 3 كيلومترات على انحراف 16 درجة غرباً من الجنوب إلى جوف، ومن هناك أجرى تقديرات مضبوطة عن البعد والانحراف عن باقي قرى الواحة، وبها تمكّن من تحديد مواقعها النسبية على الخريطة بدقّة أقرب إلى الحقيقة من ذي قبل.

ويتمتع موقع بومة، أقصى القرى شرقاً في إقليم الكُفرة، بأهمية عظمى، لأنّه أمضى هناك كلّ من أشتيكر ورولفس فترة زمنية ورصدا خطّ الطول والعرض سنة 1879. وقد عيّن حسنين بك بويمة على بعد كيلومترين من تاج في اتجاه شرقي من موقع الجنوب الحقيقي. وباعتمادنا تعيينه لموقع تاج نحصل على المواقع الآتية لبويمة عند مقارنتها بأرقام رولفس:

	خط طول شرقاً	**خط طول شمالاً**
بويمة كما عينها حسنين بك	24 13 8	23 24 40
بويمة كما عينها رولفس	24 31 38	23 12 40
الفرق	– 18 30	– 12 –

وعلى ذلك، عيّن حسنين بك موقعاً بمقدار 40 كيلومتراً إلى جنوب الجنوب الشرقي من الموقع الّذي عيّنه رولفس من واقع أرصاد أشتيكر. وأهم ما في هذا الاختلاف الكبير أنّه يقع في خطّ العرض الّذي رصد مباشرة بمعرفة أشتيكر عند بويمة نفسها وبمعرفة حسنين بك في تاج التي تقع على بعد كيلومترين من بويمة. ولم أستطع شخصياً العثور على أيّ تفاصيل لأرصاد أشتيكر، وقد تكون أجريت بواسطة دائرة منشورية. ولكنّني أخضعت بيانات حسنين بك الأصلية عن أرصاده عن الوقت وخطّ العرض في تاج إلى التمحيص الدقيق، فوجدت برهاناً قاطعاً أنّ خطّ العرض الّذي عينه لا يتجاوز الخطأ فيه دقيقة واحدة. وقد رصد ارتفاع النجم القطبي عند تاج في ما لا يقل عن 6 ليالٍ مختلفة بساعة، خطؤها بالنسبة للوقت المحليّ كان معروفاً بالضبط، بأرصاد على الشمس والنجم أجريت في هذه التواريخ نفسها. وبفضل التدقيق العميق للأرصاد لا يتجاوز الشكّ في خطأ الساعة الّتي رصد بها النجم القطبي عن ثانيتين في الوقت، وهذا الخطأ بالطبع لا يؤثّر في تعيين خطّ العرض. وممّا يؤكّد أن النجم المرصود هو النجم القطبي، الانحراف المغناطيسي، وكذلك معدّل سيره في حركته الظاهرة. وأكبر فرق في خطّ العرض المرصود عن المتوسّط في أرصاد الليالي الست لم يتجاوز، 15، ومتوسّط اختلاف أيّ رصد فردي عن المتوسط يبلغ 12، وعلى ذلك فخطّ عرض تاج، كما عيّنه حسنين بك وهو "47 '13 °24، يمكن اعتباره صحيحاً بفرق قدره 1. وحيث إنّه لا يوجد مجال في خطأ بهذا القدر في تقدير مسافة بويمة من تاج، فليس هناك أدنى شكّ بأنّ خطّ عرض بويمة الّذي عيّنه رولفس هو أكبر بمقدار نصف درجة. ومن المدهش أن يلاحظ أنّ الاختلاف، في حالة بوزيمة الّذي يبلغ "31 '13 بين خطّ عرض رولفس وخطّ العرض المستنتج من اعمال حسنين بك الحديث، هو من الدرجة والعلامة نفسها مثل الفرق الّذي وجد في بويمة، وأن تصحيحاً سلبياً مساوياً في القدر لنصف قطر الشمس يجعل، في كلّ حالة، نتائج كلا الراصدين متطابقة تقريباً. ويعزى تفسير ذلك إلى أنّ أشتيكر عيّن خطّ العرض برصد الحافّة العليا من الشمس ظهراً، وفي كلّ رصد من أرصاد بوزيمة وبويمة لم يتمّ تصحيح الارتفاع المقاس عن نصف قطر الشمس، وبذلك جعل خطّ العرض اكبر من الحقيقة بمقدار 16. وخطأ مثل هذا، كما يعلم كلّ سائح علمي، يسهل وقوعه في أرصاد تمّ تحويلها بسرعة في الموقع، وفي الوقت الّذي أجرى فيه أشتيكر أرصاده وعمليات حسابه في الكُفرة كان هو وقائده

عرضة للخطر والموت على أيدي البدو. وتعزى مثل هذه الأسباب الى حدّ بعيد، إلى اختلافات خطوط الطول في كلا المحلّين.

وبناءً على تعيينات حسنين بك، يقع معسكر رولفس في بوزيمة على خط طول إلى الشرق أكثر من خط الطول الحقيقي بمقدار 9، ويقع معسكره في بويمة إلى الغرب أكثر من خط الطول بمقدار 12. وما علينا إلا أن نفترض أن أشتيكو رصد الحافة السفلى في الصباح في بوزيمة والحافة العليا بعد الظهر في بويمة لإيجاد الوقت المحلّي، وفي كلتا الحالتين لم يتمّ تصحيح الارتفاع المرصود بمقدار نصف القطر، ولذا يمكننا أن نعلّل تماماً كلا الاختلافين في خطّ الطول.

ومّما يدعو إلى الحيرة في تفسير الخطأ في خريطة رولفس، هو أنّ رولفس قطع المسافة بين بوزيمة وبويمة قدّرها بـ 120 كيلومترا[1] بينما عيّن حسنين بك هذه المسافة بزيادة 40 كيلومتراً. وبما أن أقوال رولفس عن المسافة كتبت بعدما تعيّنت المواقع فلكيّاً، فمن المحتمل أنّه حصل على البعد 120 كيلومتراً عبر احتساب واقع الأرصاد الفلكية، لاغياً التقدير التقريبي الّذي ربما يكون قد قدّره من واقع زمن سيره. واعتبر كلّ من حسنين بك ومسز فوربز أنّ المسافة الحقيقية كانت أكثر من 120 كيلومتراً حينما قطعاها في العام 1921. ولكن بما أنّهما لم يعيّنا المواقع بالرصد، فبقي من المشكوك فيه ما إذا كان هناك خطأ فيتعيين مواقع بوزيمة وبويمة على خريطة رولفس. ولكن الآن بُرهن عملياً أنّ كلا هذين الموقعين على خريطة رولفس كانا غير صحيحين.

وفي ما يتعلّق بمنسوب الكُفرة، فمن الباعث للارتياح تطابق أرقام حسنين بك مع أرقام رولفس. وقد أشارت قراءات حسنين بك للبارومتر، جنوب جوف عند عزيلة، الى أنّ الارتفاع عن سطح البحر هو 389 متراً. ويقدّر أنّ بويمة تقع أعلى من تلك بعشرة أمتار، فيكون ارتفاع بويمة نحو 400 متر عن سطح البحر، وهذا الرقم يتفق مع رقم رولفس. وبني التاج على قمّة جبل شمال جوف منذ أيّام رولفس، وعيّن ارتفاعها بمقدار 475 متراً عن سطح البحر من سلسلة قراءات البارومتر في خلال أسبوعين. أمّا القرى الواقعة على حدود الكُفرة في شمال تاج فهي منخفضة عن تاج نفسها، غير أنّها أعلى بقدر لا بأس به

(1) انظر Mitt. Afrik Ges Band: 1880 – 1880 p.32 (الدكتور بول)

عن باقي القرى الجنوبية في إقليم الكُفرة. وتعلو عوازل بمقدار 434 متراً عن سطح البحر وكذلك الهواري والهواويري يقعان في المستوى نفسه. وهناك تطابق تام لدرجة ما في تقدير اتساع الكُفرة من الشمال إلى الجنوب. أمّا خريطة

رولفس فتظهر أن فرق خطّ العرض بين الهواويري والطلاب هو بمقدار 35 كيلومتراً، بينما حسنين بك يعيّن ذلك بمقدار 30 كيلومتراً. ولكنّنا عند معالجة اتساع البلدة من الشرق إلى الغرب نجد فرقاً شاسعاً، فإنّ رولفس يقدّر الاتساع من الشرق إلى الغرب بين بويمة والطلاب بمقدار 40 كيلومتراً، بينما حسنين بك يقدّره بمقدار 21 كيلومتراً. وبما أنّ رولفس يظهر أنّه

عيّن مواقع كثير من القرى استناداً إلى أقوال العرب وليس وفق تقديره الشخصي الدقيق، كما فعل حسنين بك، فلا حاجة بنا للتردّد في اعتماد المواقع النسبية الّتي عيّنها حسنين بك باعتبارها أقرب إلى الصواب. ويستنتج من خريطة رولفس أنّ الامتداد شرقاً وغرباً هو ضعف الحقيقة.

والخطأ في الامتداد شرقاً وغرباً (بقدر ما يخصّ تعيين مواقع القرى، وليس في تقدير اتساع الزراعة) هو أكبر على الخرائط التي رُسمت بمعرفتي، وطبعت بمعرفة مسز فوربز العام [1]1921.

ويعود ذلك إلى أنّ المسافة بين جوف والطلاب كان مبالغاً في تقديرها عن الرحلة السابقة، فقد أعطيت لي بمقدار 42 كيلومتراً، بينما هي تبلغ بحسب تقدير حسنين بك الأخير 20 كيلومتراً. ومما يلفت النظر، عند مقاربة حسنين بك الأخيرة عن قرية الكُفرة بالخريطة التي نشرت بمعرفة مسز فوربز، هو أنّ عزيلة واقعة في الثانية جنوب جوف بينما تقع في الخريطة القديمة التي رُسمت من واقع بيانات حسنين بك وكروكي[2] في شمال الهواويري، ويعلّل ذلك بوجود بلدتين باسم عزيلة. وهذا الاسم يطلق محلياً على أيّ بئر منعزلة يحيط بها عادة بعض النخيل، وتعتبر آخر مورد مياه القوافل عند مغادرتها الواحة. وعلى ذلك، فالعزيلة الشمالية هي آخر بئر للسائح من الكُفرة إلى الشمال الشرقي

(1) انظر Geographical Journal vol. 68 (p192. 8421) (د. بول)

(2) كروكي croquis: رسم أولي بسيط يعده الفنان تمهيداً لرسم أفضل واكثر إتقاناً، وهو يشبه المسودة في الكتابة.

نحو جغبوب، والعزيلة الجنوبية هي آخر بئر في الكُفرة لأيّ سائح متوجّه نحو واداي. وتبلغ المسافة من العزيلة الجنوبية في الكُفرة إلى أركِنو 266 كيلومتراً في الاتجاه الجنوبي الشرقي، ولا توجد مياه ولا مرعى في الطريق؛ وتبلغ المسافة من أركِنو إلى العوينات 42 كيلومتراً في اتجاه أميل بقليل إلى الجنوب.

واحتا أركِنو والعوينات

ومن أهمّ النتائج التي حصل عليها حسنين بك هو إثبات حقيقة وجود واحتي أركِنو والعوينات وتعيين موقعيهما وارتفاعهما الى حدّ كبير من الدقّة. فلقد كان هناك رواية متداولة بأنه توجد واحتان في (أو بالقرب من) الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصري، حتى إن خريطة أفريقيا بمقياس 4/1 مليون التي نشرها يوستوس پرتِس Justus Perthes من مدينة غوتا بألمانيا سنة 1892 تبين واحة صغيرة غير مسماة وبئرا في خط عرض (51 21) وخط طول (3 23) وواحة أخرى لا يسكنها أحد وغير مسماة على بعد 48 كيلومترا إلى الشرق في خط عرض (50 21)؛ وكلتا الواحتين عُيّنتا على الخريطة بلا شك وفق أقوال العرب الشائعة، ويظهر أنه لم يقصدهما أي رحالة من قبل. وفي الواقع، كان وجودهما يحتمل الشك الى حدّ كبير، حتى إنهما لم يظهرا على الخرائط الحربية الإنجليزية أو الفرنسية. وإنّني لم أستطع العثور على بيانات نشرت عن وجود واحة أركِنو ولكنّني وجدت أن واحة العوينات ذُكرت في إحدى الرسائل الحديثة التي كتبها هاردنغ كنغ والقائمقام تلهو Lieut Col. Tilho. وفي رسالة هاردنغ كنغ سنة 1913 (في المجلة الجغرافية مجلّد 42 صفحة 242) عند كلامه (على صحراء ليبيا عن لسان أهلها)، فيقول إنه سمع عن موقع يسمّى عوانة أو عوانات في منتصف الطريق من (مرجا) إلى (الكُفرة)، وتوجد فيه بئر ومراع خضراء إثر الأمطار. وفي الخريطة التي كانت مرفقة بهذه الرسالة قدّر الموقع المحتمل لهذه الواحة على خط عرض 37 21 وخط طول 45 24 وتختلف بمقدار 130 كيلومتراً عن أقرب الواحتين، كما أظهرت الخريطة الألمانية المذكورة. ويقول القائمقام تلهو الذي أجرى استكشاف تيبستي وإردي وبركو وعنيدي بين 22 و23 من خط العرض شمالاً وبين 24 و25 من خط الطول شرقاً، كما عُلم أن هناك طريقاً بين العوينات ومرجا (أنظر مجلد 56 صفحة 98 سنة 1920). أما أرصاد حسنين بك فعينت الموقع لمعسكره وارتفاعه عن سطح البحر في أركِنو والعوينات كما يأتي:

	خط الطول شمالاً	**خط الطول شرقاً**	**الإرتفاع عن سطح البحر**
أركِنو	22 12 32	24 44 15	598
العوينات	21 52 29	24 54 16	516

وعلى ذلك، تبعد العوينات مسافة 24 كيلومتراً أبعد مما قدّرها هاردنغ كنغ من واقع أقوال مرشده، ولكنها تقع خارج الحدود الواسعة في خط العرض التي حددها القائمقام تلهو وتبعد بمقدار 150 كيلومتراً عن الموقع الذي تظهره الخريطة الالمانية تحت إسم «الواحة التي لا يسكنها أحد»، بينما أركِنو التي هي الواحة الصغيرة الواقعة غرب الواحة التي لا يسكنها أحد قد ثبت الآن أنها تبعد بمقدار 180 كيلومتراً عن الموقع الذي عُيّن على الخريطة الألمانية.

ويلاحظ أن أركِنو تقع داخل الحدود المصرية بينما تقع العوينات على مسافة قصيرة داخل حدود السودان الإنجليزية – المصرية.

وأهم ما في تلك الأماكن أنها تفتح مجالاً لاستكشاف الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصري التي لم يصلها حتى الآن لا الدوريات العسكرية ولا حتّى المستكشفون، نظراً لعدم توفر أي معلومات أكيدة عن وجود موارد مياه دائمة وعن مواقعها. والآن وقد أُظهرت بالضبط مواقع أركِنو والعوينات، وعُرفت مواقع موارد المياه الصالحة للشرب بكميات معقولة، فقد أصبح من الممكن لأي رحالة من مصر أن يصلها ويحصل على المياه اللازمة له في عودته.

ولكنّني لا زلت أقول إن الوصول إلى أركِنو والعوينات من مصر ليس أمراً سهلاً، نظراً لوجود صعوبات عظيمة، ولو أن كلا الواضعين للخريطة الالمانية والمستر هاردنغ كنغ أدركوا أنه يوجد طريق قديم من مصر يصل إلى العوينات. ومن أقوال مرشد المستر هاردنغ كنغ إنه يوجد طريق من الواحة الداخلة بطول 600 كيلومتر يخترق صحراء بلا ماء، وعلى ذلك تكون الرحلة بين الموقعين متعذرة على الجمال حتى في فصل الشتاء، بينما صلاحية الأرض لمرور السيارات، وخصوصاً في المنطقة الجبلية حول الواحات، ليست معلومة حتى الآن.

وأهم ما يذكر عن طبيعة إقليمي أركِنو والعوينات أن أرضهما ليست منخفضات طبيعية تستمد ماءها من مياه الرشح في قاع الأرض كباقي واحات صحراء مصر الغربية، ولكنها مناطق جبلية تستمد ماءها من مياه الأمطار المحلية التي تتجمع في أحواض صخرية.

ولا توجد في وادي النيل، على خط العرض نفسه، أي أمطار تقريباً، ولكن على بعد 700 كيلومتر غرباً في الصحراء تهطل الأمطار بشكل كافٍ، وتشكّل مورداً دائماً للماء وإن كان محدوداً (وفي العوينات فهو كافٍ لإحتياجات مستعمرة يسكنها 150 بدوياً). وفي وقت ما من السنة تنبت الحشائش لمرعى الحيوانات في الوديان المنخفضة. ويبلغ مستوى الأرض في هذه المنطقة 600 متر فوق سطح البحر، ولكن الجبال المجاورة للواحة تعلو 1100 متر عن سطح البحر، ومن الصعب أن يكون هناك شكٌ في العلاقة بين الأمطار وبين نظرية تأثير الجبال حيث إنّ الجبال تجذب السحب أو تساعد في تكوينها.

وفي هذا السياق، تجدر الاشارة الى أنّ عدم وجود الزرع في الأراضي المستوية البعيدة في الجنوب، كما في الأراضي في الشمال، يبرهن على أنّ سقوط الأمطار في المناطق غير الجبلية أقلّ منه في المناطق الجبلية حول هذه الواحة، ولو أنّه أمر نادر في صحراء مصر الغربية، إلا أنّ هذه الأحواض الصخرية معتاد وجودها في الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر

حيث تسمّى[1] Galts، ويكون وجودها في إردي وعنيدي من منطقة افريقيا الفرنسية الاستوائية. وبالاضافة الى ذلك، يمكننا الاستنتاج من اكتشافات تلهو وحسنين بك، أن العوينات التي فيها جبال أعلى من أركِنو، توجد فيها مياه أفضل جودة وأكثر غزارة. والحفاظ على المياه طوال مدة الجفاف مسألة محكومة بجزء منها بطبيعة الصخور التي تتكوّن منها الجبال والتي لا تتسرب منها المياه، وجزء آخر بوجود البرك الخفيّة تحت حماية الصخور في أوعية صخرية تقلّل من التبخّر.

وكان امتداد جبال أركِنو والعوينات لا يزال مجهولاً ولكنّه يقدّر بنحو 1000 كيلومتر مربّع، والطريق الذي حدّده حسنين بك يقع غرب السفح الغربي لهذه الكتل، حتّى إنّ حدودها الغربية وامتدادها الشمالي والجنوبي تمّ التحقّق منها. ولكن حدودها الشرقية في

(1) انظر كتابي عن جغرافية وجيولوجية صحراء مصر الشرقية سنة 1912 صفحة 240. (د. بول)

مصر لا تزال مجهولة، ويُشك في وجود سلسلة من التلال تربط الكتلتين من الجبال بعضها ببعض شرقاً. وأجرى حسنين بك استكشافاً يمتد 40 كيلومتراً شرق معسكره في العوينات، من دون أن يصل إلى حدود الكتلة الجبلية، ويمكن رؤية الجبال على مسافات بعيدة من الشمال والجنوب. وقد أمكن رؤية أركِنو على بعد 60 كيلومتراً من الشمال، والعوينات بقيت ظاهرة على الأقل على مثل هذه المسافة من جنوب الطريق. ويحتمل أن لا تكون هذه الجبال ظاهرة للرحالة من جهة الشرق، نظراً إلى تكوينها من عدّة تلال صغيرة غير متّصلة بعضها ببعض. والأرض في هذا الطرف عالية وتنحدر بالتدريج نحو النيل، وسيبقى هذا غير معلوم إلى أن يحدث اكتشاف آخر.

وتبلغ مسافة السفر من العوينات إلى آبار إردي 430 كيلومتراً في اتجاه الجنوب الغربي، وتقع الـ 284 كيلومتراً الأولى منها ضمن حدود السودان المصرية – الإنجليزية، والـ 146 كيلومتراً الباقية تقع ضمن حدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية، ولا يوجد البتّة على طول هذا الطريق مصدر للمياه، ولكن يجد الإنسان من حين إلى آخر بقاع فيها حشائش جافّة، وذلك في النصف الأخير من الطريق.

وقبل الوصول إلى إردي بنحو 25 كيلومتراً، كانت الأودية مكسوة بالحشائش الخضراء. وعلى ذلك فالحدّ الشمالي لمنطقة الامطار الاستوائية يقع تقريباً على خط عرض 50 18.

إردي

تطلق تسمية إردي على منطقة واسعة تمتدّ من خطّ طول 21 إلى خط عرض 24 شرقاً، وترتفع تدريجياً نحو الجنوب وتنتهي بجرف متقطع شرقاً وغرباً في خطّ عرض 30 18. ويقع منبع المياه الّذي زاره حسنين بك، والّذي عرّفه مرشده ببئر إردي، في خطّ عرض 31 18 وخط طول 10 23، ويعلو عن سطح البحر بمقدار 958 متراً. وهذا ليس ببئر، وإنّما هو بركة صخرية مشابهة لآبار أركِنو والعوينات ومياهها ذات نوعيّة جيّدة. وبئر إردي التي زارها حسنين بك قريبة من المنطقة المبيّنة على خريطة القائمقام تلهو سنة 1920 تحت اسم «أرديما»، ويظهر أنّها ليست عين المياه نفسها الّتي زارها ذلك الرحّالة. ويقع بئر إردي على رأس واد صغير تجري مياهه نحو الشمال، ويضطر الإنسان إلى صعود التلال إلى ارتفاع 1020 متراً فوق سطح البحر، ثمّ يعبر سهلاً متقطعاً قبل الوصول إلى مصارف المياه الجنوبية التي تنتهي بالجرف. وقد تقدّم حسنين بك مخترقاً هذا السهل في اتجاه جنوبي

شرقي، هابطاً من الجرف عند خطّ عرض 25 18 وخطّ طول 20 23 ومنسوب قدم الجرف هو 790 متراً فوق سطح البحر، فيكون الجرف على ارتفاع 230 متراً.

وبعد الهبوط من جرف إردي، اتبع حسنين بك طريقه نحو الجنوب إلى أجاة، مخترقاً المنخفض الرملي العظيم الّذي يفصل سهول إردي عن عنيدي (على بعد 88 كيلومتراً من معسكره في شمال آبار إردي). ومن الواضح أنّ هذا الطريق كان محاذياً بالتقريب للطريق الّذي اتبعه القائمقام تلهو سنة 1914، وعلى بعد 20 كيلومتراً منه شرقاً.

أجاة

منبع مياه أجاة هو بركة صخرية تشبه منبع إردي ولكنّ المياه فيه رديئة، نظراً لتلويثها بالحيوانات. وتبعد البركة 6 كيلومترات عن سطح واد ينتهي نحو الشمال بجرف يواجه جرف إردي. وموقع البركة في أجاة يقع على بعد 24 كيلومتراً من ينابيع أجاة التي أشار اليها القائمقام تلهو على خريطته. ومن المحتمل تعدّد البرك والينابيع في المنطقة المجاورة بين هذه التلال، وكلّها يطلق عليها هذا الاسم، وهذا مما يفسّر الفرق الظاهر. والطريق من أجاة إلى أنبياه يبلغ 65 كيلومتراً، ويتبع خطاً متكسراً وبشكل عامّ في اتجاه جنوبي. ويصعد الطريق في الكيلومترات العشرة الأولى للوادي، وبعد ذلك يعلو بسرعة حتّى يصل إلى ارتفاع فوق 1000 متر عن السهل.

أنبياه (عنيباه)

هي مستعمرة صغيرة للبدو فيها بئر مياه جيّدة، تبعد نحو 28 كيلومتراً شرقاً عن آبار كيتة المبيّنة على خريطة القائمقام تلهو على السهل العالي نفسه. ومن أنبياه إلى باو مسافة 120 كيلومتراً تكثر فيها، في اتجاه الجنوب الغربي، سهول تلية غير مستوية. وبلغ أعلى ارتفاع دوّنه حسنين بك نحو 1184 متراً فوق سطح البحر، وقد وصل إليه في نقطة على الطريق تبعد 18 كيلومتراً عن أنبياه. وهذا الارتفاع البالغ 3884 قدماً هو أعلى بقليل من 3600 قدم التي دوّنها القائمقام تلهو كأعلى ارتفاع بلغه على سهل اردية نفسه في نقطة تتجه إلى الغرب أكثر، ويحتمل أن هذا السهل يأخذ في زيادة الارتفاع نحو الشرق. وقد عبر وادي «كابتاركو» على بعد 47 كيلومتراً بعد ذلك. والجدير بالذكر أنّ بيانات حسنين بك عيّنت موقعاً لهذا بالقرب جداً من كابتاركو المبيّن على خريطة القائمقام تلهو.

باو

باو التي زارها حسنين بك هي ليست بو التي زارها القائمقام تلهو والّتي تقع على بعد 100 كيلومتر أكثر شمالاً، ولكن هي المكان المعروف باسم «أوروبو» الواقعة على خريطة تلهو، وتظهر «باو» على خريطة واداي ودارفور التي أرفقت بالاتفاقية الإنجليزية الفرنسية في باريس سنة 1919، كما يتّضح من المقارنة الآتية عن المواقع المعيّنة بمعرفة حسنين بك والمقاسة من الخريطة عن المحلّين المذكورين:

	خط عرض شمالاً	خط طول شرقاً
باو (حسنين بك)	16 28 24	23 1 46
أوروبو (تلهو)	16 30 –	22 59 –
باو (خريطة الاتفاقية)	16 28 –	23 4 –

وتقع آبار باو عند رأس الوادي الّذي يصرف مياهه شمالاً وتكثر فيه الشجيرات والأشجار وبه عدّة آبار مستديمة، على الرغم من أنّ المياه تقلّ في فصل الجفاف ويضطر حينئذ إلى تعميقها، والطريق من باو إلى الفوراوية يبلغ 145 كيلومتراً في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي على أرض مكسوّة بالحشائش والشجيرات. ومرّ حسنين بك على بعد 55 كيلومتراً من دخول الفوراوية بالقرب من تل معروف بالتميرة، عليه جذع شجرة يابسة معتبرة كعلامة حدّ بين الأملاك الفرنسية وبين الأملاك الإنجليزية المصرية. ولم تؤخذ أرصاد فلكية هناك، ولكن نتائج حسنين بك المضبوطة بالترافرس الّذي عليه تعيّن الموقع التقريبيّ للتلّ في خطّ عرض (48 15) شمالاً وخطّ طول (23 27) شرقاً ووادي هور المسمى (هوه) على خريطة الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية، على بعد 7 كيلومترات بعد تلّ التميرة.

الخلاصة

استناداً إلى تحليل نتائج حسنين بك الذي استغرق زمناً كبيراً من وقتي لمدّة تزيد عن شهرين، ربّما يسمح لي أن ألاحظ بأنّ رحلته كما يخيّل إلي هي إنجاز يكاد يكون فريداً في تاريخ الاستكشاف الجغرافي. وتبلغ مسافة الطريق من السلّوم إلى الأبيض 3345 كيلومتراً، وجزؤه الأكبر عبارة عن صحراء غير آمنة يسكنها نفر قليل من القبائل القديمة المتعصّبة والتي لا يمكن لأحد أن يجتازها بدون حرس عسكري قويّ، ما لم يكن مسلماً وذا إرادة قوّية وحكمة صادقة وثبات متين. ولكن حسنين بك لم يقم فقط بهذه الرحلة الشاقّة وأتى بأوصاف هامّة وصور شمسية عن البلاد التي مرّ بها في طريقه، وإنّما أجهد نفسه قبل الانطلاق من مصر بعدّة أسابيع للتمرين على سهولة استعمال التيودوليت، وفي الحصول على المعلومات عن أحسن طرق مساحة الاستكشاف الّتي تستعمل في استكشاف مثل هذا الذي عزم على القيام به. وقد برهن طوال رحلته على حسن تطبيقه للمعلومات الطوبوغرافية التي حصل عليها، والدقّة والضبط في أرصاده يشهدان بذلك عند تحليلها السابق.

والجدير بالذكر هو قدرته على القيام بهذه الأرصاد من دون مساعد، واستمراره في التحفّظ على الدقّة والضبط في مقاساته وبياناته لمسافة تزيد عن 2000 كيلومتر والتي تفصل نقطتين في طريقه معروفتين من ذي قبل. وما يستحق الشكر عليه هو ترتيب وتفصيل طبيعة أرصاده التي جعلت أمر تحليلها عملاً مقبولاً لا صعوبة فيه، وجعلت من السهل تخطيط طريقه وتعيين المواقع المستكشفة حديثاً على طول طريقه على الخريطة بدرجة كبيرة من الدقّة.

وأهمّ الإضافات إلى معلوماتنا عن الشمال الشرقي من أفريقيا، والتي نجمت عن أبحاث حسنين بك هي ما يأتي:

الموقع الحقيقي لآبار زيغن والكُفرة الناشئ عن التغيير نحو 100 و40 كيلومتراً على التوالي من الموقع الذي حدّد سابقاً على خرائط أفريقيا.

اكتشاف واحتي أركِنو والعوينات اللتين لم تُعرفا من قبل، وتعيين موقعيهما وسعة مناطقهما بالتقريب. ولذا ينفتح طريق جديد محتمل لرحلات جديدة في صحراء ليبيا بمناطق لم تستكشف من قبل.

اكتشاف طريق في الجنوب الغربي من مصر يجتاز سهل إردي وانيدي في أفريقيا الاستوائية الفرنسية إلى دارفور، وتعيين مواقع موارد المياه الواقعة عليه. وهذا الاستكشاف له علاقة مهمّة ويعتبر كتتمة للاستكشافات المجيدة الحديثة التي قام بها القائمقام تلهو في السودان الفرنسي.

تعيين مناسيب مضبوطة للبارومتر على طول الطريق، وبالتالي أمكن الحصول على معلومات قيّمة عن طبيعة تكوين الجبال في منطقة واسعة لم يعرف عنها شيء من قبل، وكانت هذه المعلومات مثبتة لاستنتاج القائمقام تلهو بأنّه لا يحتمل أن يوجد مخرج صرف لبحيرة تشاد في الاتجاه الشرقي.

استنتاجات من المعلومات الجيولوجية[1] التي جمعها أحمد محمد حسنين بك أثناء رحلته من السلّوم إلى الفاشر مخترقاً صحراء ليبيا عن طريق الكُفرة والعوينات قبل بحث المسائل لا بدّ من تناولها، أبدأ بتهنئة حسنين بك لنجاحه في إتمام رحلة فتحت أمامنا منطقة عظيمة كانت حتّى الآن مجهولة، والّذين قاموا منّا بالرحلات في الصحارى، ولو قليلاً، لا بدّ معجبون بمجهوده في ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر ونيف في صحراء قفرة لأسباب سياسية أو دينية في وجه المستكشف الأوروبي. ولا بدّ أن يكون قد صادف في رحلته الكثير من الصعوبات والمشقات التي أضنت الجسد والعقل، إلا أنّه لا شكّ قد عوّض عن ذلك بلذّة الشعور بالحرية الذي يبعثه وجوده في ذلك الفضاء الذي لا حدّ له، وترقّبه الدائم لاستكشاف جديد.

وقد أظهر حسنين بك عزماً كبيراً على أن يعود بملاحظات صحيحة عن كلّ ما له أهمية

(1) بقلم الدكتور و. ف. هيوم (مدير قسم الجيولوجيا المصرية) وترجمة: حسن صادق بك، مفتش بالقسم الجيولوجي بمصلحة المساحة – 1923

علمية، فحصل بذلك على مجموعة ثمينة من النماذج الجيولوجية والصور الفوتوغرافية تجعل من السهل، على من خبروا جيولوجية الصحارى المصرية خبرة عملية، أن يتوصّلوا إلى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجي للمنطقة التي اخترقها.

وحيث كنت غائباً عن مصر عند عودة حسنين بك، فقد قام المستر مون بفحص هذه النماذج والعيّنات. وقد أرفقت مع هذه المذكرة ملاحظاته والنتائج التي توصّل إليها، وعند فحص النماذج والصور الفوتوغرافية التي عرضها علينا حسنين بك، لفتت نظري النقط الآتية بوجه خاص:

وجدت ما بين واحتي سيوة وجغبوب قطعاً من الأخشاب المتحجرة جاءنا من بعضها بقطع وصوّر بعضها الآخر. وفي هذا دليل على امتداد ما نسمّيه «الغابات المتحجّرة» امتداداً عظيماً نحو الغرب. كذلك يبعث عندنا الرغبة في فحص المنحدر الجنوبي لهضبة برقة حتّى الحدود الغربية المصرية، بما في ذلك الجزء المرقوم (لم يستكشف) على خريطة القطر المصري الجيولوجية مقياس 1 / 1000000

تدلّ نماذج المحارات اوستريا فيرلتي Ostrea Virleti وأوستريا ديجيتالينا Ostrea digitalina، وهي من الحفريات الشهيرة التابعة للعصر الميوسيني، أنّ واحة جغبوب واقعة في صخور تابعة للتكوين الجيولوجي نفسه الموجودة فيه واحة سيوة، وهو تكوين تابع للجزء

المتوسّط من العصر الميوسيني. كذلك تدلّنا العيّنة رقم 3 على امتداد هذا التكوين نفسه في اتجاه واحة جالو.

وهناك عيّنات من حجر جيري صلب التقطت عند نقطة رمز إليها بحرف A على الخريطة المرفقة بمذكّرات المستر مون، على بعد قليل جنوبي خطّ العرض 285 شمالاً، ومن بينها قطعة من صخر مكوّن من بقايا محارات، على الأغلب أن تكون تابعة للعصر الميوسيني أيضاً. أمّا العيّنات الأخرى فيحتمل أن تكون من طبقات تابعة للعصر الايوسيني أو الكريتاسي، إذ إن هناك طبقات تابعة لهذه العصور وتمتدّ على هذا الخط شرقي الحدود المصرية، على أن خلو هذه النماذج من الحفريات يتعذّر معه البتّ في عمرها الجيولوجي بطريقة أوضح.

من يوم 20 مارس إلى 24، كان حسنين بك يخترق سهلاً منبسطاً عظيماً، وقد يدفعنا ذلك إلى التساؤل عمّا إذا كان هذا السهل نتيجة تأثير عوامل التفتت والتعرية على الطبقات الطينية والرملية الرخوة، التي توجد عادة بين الأحجار الجيرية الكريتاسية والطبقات الصلبة من التكوين المعروف عند الجيولوجيين بالحجر الرملي النوبي.

وسواء أصحّ هذا الاعتبار أم لم يصح، فقد أظهر لنا المستر مون انّ حسنين بك وصل إلى اول طبقات التكوين الرملي النوبي، عند نقطة تبعد قليلاً إلى الشمال من الحرش (زيغن). وعيّنات الصخور التي التقطت من هذه النقطة، جنوباً إلى النقطة المشار إليها بحرف C على الخريطة، كلّها أنواع مختلفة من هذا التكوين الرملي الذي يغطّي مناطق شاسعة في مصر والسودان.

ويكتسب اكتشاف أحجار غرانيتية في واحات العوينات وأركِنو أهميّة خاصّة، من الفلسبار والكوارتز (المرو) والهورتبلند. وقد ظهرت لنا الصور الفوتوغرافية أهمية تأثير درجة الحرارة على سطوح هذه الصخور، فترى سفح الجبل منثورة عليه جلاميد ضخمة من الصخر، قد انفلق بعضها من جراء تغيير درجة الحرارة إلى قطع كبيرة، لا يشكّ الناظر إليها في انّها كانت فيما مضى قطعة واحدة. أمّا في ما يختص بالعلاقة بين الغرانيت وطبقات الحجر الرملي النوبي، فيلاحظ أنّ جبل الغرانيت مرتفع ارتفاعاً كبيراً عن طبقات الحجر الرملي التي تحيط به. وهذا الفرق في الارتفاع يمكن تفسيره بأحد الافتراضات الآتية:

أولاً: وجود تعريج في طبقات الأرض في هذه الجهة على شكل قبو، ويشكّل الغرانيت الجزء الأوسط منه.

ثانياً: وجود انشقاق أو فالق عظيم، نتج منه ارتفاع الغرانيت وانخفاض الطبقات الرملية.

ثالثاً: تدخل الغرانيت، وهو في حالة ميعانه، بين طبقات الحجر الرملي الّتي كانت تعلوه. وبعد التحدث مع حسنين بك والتدقيق في الصور الفوتوغرافية التي لها علاقة بهذا الموضوع، أجدني مضطراً أن أستنتج الآتي:

من المحتمل وجود انثناء في الطبقات على شكل قبو عظيم، إذ إن طبقات الحجر

الرملي تظهر مائلة في الصورة السينمانوغرافية التي عرضها حسنين بك، والتي تظهر فيها الجمال في طريقها عبر وادي العوينات. وهذه الظاهرة معروفة أيضاً في بعض المواقع، جنوب واحة الخارجة، حيث توجد طبقات الحجر الرملي النوبي مائلة ميلاً ظاهراً عن الغرانيت. وإذا تناولنا الفرضية الثالثة، فليس هناك في أيّ جهة من جهات القطر المصري ما يدلّ على تدخّل الغرانيت في حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملي النوبي. وبالعكس، ففي جميع الحالات التي تظهر فيها علاقة الغرانيت بهذه الطبقات النوبية، قد بُرهن على أن تكوين الغرانيت سابق لتكوين الطبقات الرملية، وأنّه قد تعرّض فعلاً لعوامل التعرية قبل رسوب تلك الطبقات الأخيرة على سطحه.

ففي انتظار فرصة لدراسة هذه المسألة دراسة مفصّلة، سنفترض أن الفرق في الارتفاع بين الغرانيت وطبقات الحجر الرملي النوبي يعود إلى أنّ الطبقات في تلك المنطقة قد سبق انثناؤها في شكل قبو مستطيل نواته الغرانيت، تحيط به طبقات الحجر الرملي النوبي. ولو أنّ ذلك لا يمنع بقاء الافترض الآخر، أي وجود فالق عظيم نتج منه ارتفاع الكتلة الغرانيتية إلى ارتفاع يعلو سطح الطبقات الرملية التي كانت تعلوه قبل ذلك، أو أن الطبقات الرملية هي التي انخفضت على الجانب الآخر من ذلك الفالق إلى مستوى أكثر انخفاضاً من الغرانيت.

وهناك ظاهرة أخرى مهمّة كذلك، وهي وجود رسوم متقنة الصنع على سطح جلاميد الغرانيت تمثّل الزرافة والنعامة. وقد أخبرنا حسنين بك أن الجمل لم يمثّل بين هذه الصور، وليس بينها مع الأسف صور مفصّلة للإنسان. ويحتمل أن تكون هذه الصورة من صنع الإنسان في العصور القديمة، في وقت كان هذا الجزء من شمال أفريقيا يتمتع بأمطار أكثر غزارة من الوقت الحاضر.

وبالإختصار، فرحلة حسنين بك قد أوضحت لنا امتداد طبقات العصر الميوسيني والتكوين الرملي النوبي غرباً إلى مدى أبعد من الحدود الغربية المصرية، وهي لا زالت في تلك المناطق تحتفظ بالخصائص نفسها التي تتمتّع بها في الصحارى المصرية. كذلك يفتح استكشاف واحة جديدة في صخور غرانيتية، في هذا الجزء من الأراضي المصرية، طريقاً آخر بين دارفور والواحات الداخلة، ويوفّر لنا قاعدة يمكن الاعتماد عليها للحصول

على المياه، لمن يريد أن يزور هذه المناطق في المستقبل. ومن المهمّ جداً إجراء دراسة جيولوجية مفصّلة لهذه المناطق.

مذكرات جيولوجية[1]

عن رحلة حسنين بك من السلّوم إلى دارفور سنة 1923

طلب منّي حسنين بك، في غياب الدكتور هيوم، مدير القسم الجيولوجي بالإجازة، أن أدقّق في نماذج (عيّنات) الصخور والحفريات التي جمعها أثناء رحلته الاستكشافية في الصحراء المصرية الغربية، من السلّوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسّط إلى دارفور في السودان. وقد تقبّلت هذه المهمّة بكلّ سرور وأقدّم هنا ملاحظات مختصرة عن الظواهر الجيولوجية التي يمكن استخلاصها من العيّنات والصور الفوتوغرافية، ومن أقوال حسنين بك نفسه. وعلى الرغم من أن النماذج والعيّنات صغيرة الحجم طبعاً، وهي في ما يختص بالصخور النارية، تظهر عليها علامات التحلّل من تأثير تعرضها للعوامل الجوية في الصحراء خلال سنين عديدة، فهي مع ذلك كافية كي تُستنتج منها معلومات صحيحة عن التكاوين الجيولوجية التي مرّ عليها المستكشف بعد رحلته.

وقد فسّر لنا الرحّالة كيف أن صعوبة النقل حالت دون أن يجمع نماذج كبيرة وافية. وقد أراد قدر المستطاع أن يتجنّب كلّ ما يعث الشكّ في نفوس مرافقيه، بأنّ لا تكون أعماله ما يمكن تأويله على غير القصد منه، مثل قيامه بشكل مستمرّ بتكسير الصخور وحمل قطع منها. ويظهر من خلال الجدول، حيث يتضمّن العيّنات الجيولوجية وأوصافها في ذيل هذه المذكرة، أنّ الطريق التي كانت تمتدّ في البداية فوق صخور تابعة للعصر الميوسيني، تدلنا على ذلك حفريات المحارات أوستريا ديجيتالينا Ostrea digitalina وأوستريا فيرليتي Ostrea Virleti وكلاميس زيتلي Chlamys Zittelli وغيرها. وقد جمعت سبع محارات من الأولى، واثنتان من الثانية، واثنتان من الثالثة، وخمس غيرها تشبه «كلاميس سبملفينا». وهذه كلّها من الحفريات المعروفة بكثرتها في طبقات العصر الميوسيني في الصحارى المصرية.

وتمتدّ طبقات الميوسين إلى واحات سيوة وجغبوب وجالو، ثمّ جنوباً إلى نقطة تبعد نحو 108 كيلومترات جنوب جالو، حيث التقطت آخر عيّنة من محارات العصر الميوسيني

---

(1) بقلم المستر ف. و. مون، ترجمة: حسنين بك صادق

رقم[1]4. ومن هذه النقطة الأخيرة المشار إليها بحرف A على الخريطة المرفقة تستمر الطريق في سهل قفر منبسط، ليس فيه من الصخور

ما له أهمية جيولوجية، سوى طبقة رفيعة من الرمل والحصى حديثة التكوين تغطي سطح ذلك السهل العظيم الذي يمتد نحو مئتي كيلومتر، أي مسافة أربعة أيام مملّة إلى الجنوب.

وعندما بلغ نقطة تبعد 50 كيلومتراً شمال زيغن، رأى الرحالة أنّ ما حوله من المناظر قد تغيّر الى حدّ كبير وتبدّل لون الصخور المحيطة به من اللون الأصفر الباهت الذي لازم الصخور الجيرية الميوسينية وكذلك رمال الصحراء إلى ألوان ساطعة. وقد يوجد بين هذه الألوان أحياناً اللون الأزرق والأخضر، ولكن اللون الأساسي هو الأحمر بجميع أشكاله من قرنفلي وطوبي، وكذلك ألوان المغرة ممتزجة بعضها ببعض، وقد توجد المغرة نفسها في شقوق تتخلّل هذه الطبقات. وفي هذا دليل على امتداد التكوين الرملي النوبي امتداداً عظيماً نحو الغرب، إذ إن النقطة المشار إليها بحرف B تبعد نحو 600 كيلومتر إلى الغرب من آخر نقطة معروفة على الحدّ الشمالي لطبقات هذا التكوين، كما هو مبيّن على الخريطة مقياس 1/ 1000000 (طبعة سنة 1910).

ومما يلفت النظر عدم وجود عيّنات تدلّ دلالة قاطعة على وجود الطبقات الكريتاسية العليا، ومن المحتمل جداً وجودها مغطّاة تحت الرمل والحصى الذي يغطي سطح السهل الواسع الذي سبقت الإشارة إليه بين النقطتين A وB على الخريطة.

وهناك مسألة أخرى بقيت غامضة من جراء وجود هذا السهل السابق الذكر، وهي تقرير الحد الجنوبي للطبقات الميوسينية تقريراً دقيقاً. فإذا اعتبرنا أنّ النقطة A التي التقطت عندها آخر حفرية ميوسينية هي نقطة على ذلك الخطّ، لوجدنا أنّ التوزيع المقترح هنا لطبقات هذا التكوين ذو أهمية من ناحيتين:

دلالته على الامتداد القديم غرباً الذي يغطي منطقة البحر الأبيض المتوسط وما حوله في العصر الميوسيني.

---

(1) أنظر العيّنات رقم 1 – 4 (مستر مون)

تقوية اعتقادنا في أن الحركات الأرضية التي أدّت إلى انثناء الطبقات الأرضية، في الجزء الأكبر من مصر وشبه جزيرة سينا على شكل قبو هائل، حدثت قبيل العصر الميوسيني مباشرة. وقد كان هذا القبو العامل الأكبر في تحديد شاطئ ذلك البحر الميوسيني الذي كان على هذا الاعتبار يمتدّ من النقطة التي عيّناها الآن بين الحرش (زيغن) وجالو إلى نقطة قريبة من واحة سيوة، ثمّ يتّجه إلى الشمال الشرقي حتّى خطّ عرض 30 شمالاً، ثمّ يتبع ذلك تقريباً حتّى السويس. ويظهر أن الأراضي المصرية الواقعة بين شواطئ خليج السويس، كما كانت معروفة في ذلك العصر وعرضة طبعاً لعوامل التعرية إبّان مدّة جيولوجية طويلة، مما أدّى إلى انكشاف طبقات التكوين الرملي النوبي والطبقات الكريتاسية الأخرى، ثمّ رسوب الطبقات الميوسينية فوقها مباشرة. أمّا بالنسبة للحجر الرملي النوبي فتدلّنا العيّنات رقم 5 – 10 أنّه محتفظ هنا بجميع الخصائص التي له في باقي جهات الصحارى المصرية وشبه جزيرة سينا، فهو حجر رملي مكوّن من حبيبات رفيعة مستديرة من الكوارتز، تتخلّله هنا وهناك كميات مختلفة من الحبيبات الكبيرة والحصى، وقد تتغلّب نسبة الحصى أحياناً فيصير الصخر من نوع الكونغلومرات. أمّا المواد الجيرية أو السيليسية أو الحديدية التي تحدث تماسك حبيبات الكوارتز، فهي أيضاً تعطي الصخر لونه الذي يختلف في عمقه باختلاف تركيب وكمية أوكسيدات الحديد الداخلة في هذه المواد. وهذه الأوكسيدات الحديدية ناجمة من تأثير العوامل الجويّة، وبشكل خاصّ الأمطار، تتجمّع في جيوب أو شقوق في الصخور، ويمكن إذا طحنت طحناً دقيقاً أن تستعمل في صناعة الأصباغ.

وتمتد طبقات التكوين الرملي النوبي من النقطة التي انتهت عندها الطبقات الميوسينية جنوباً إلى النقطة المشار اليها بحرف C على الخريطة وتبعد نحو 15 كيلومتراً شمال جبال أركِنو.

وباقترابه من هذه النقطة الأخيرة، لاحظ الرحّالة أنّ معالم الأرض بدأت تتبدّل مرّة أخرى فالألوان الساطعة التي لازمت الحجر الرملي تغيّرت إلى ألوان قاتمة تميل إلى الأسمر والأسود في جبال من الصخور النارية، يبدأ ظهورها على سطح الأرض عند النقطة C على الخريطة. وهذا التغيير في المناظر الطبيعية، الذي يصحب الانتقال من تكوين جيولوجي الى آخر، يبدو بوضوح في الصور الفوتوغرافية الجميلة التي عرضها أمامنا حسنين بك،

والتي تستحق كلّ ثناء وإعجاب. فمنها صور تعطي فكرة صحيحة عن المناظر الطبيعية في مناطق التكوين الرملي النوبي، وأخرى تظهر لنا المناظر في مناطق الصخور النارية.

وتدلّنا العيّنات من رقم 11 إلى 22 أنّ الصخور النارية، التي منها تتكوّن جبال أركِنو والعوينات، هي من فصيلة الغرانيت والسيانيت ذات التبلور الظاهر، تخترقها عروق وسدود من صخور نارية أخرى دقيقة التبلور. فجبال أركِنو مكوّنة في الغالب من صخور متشابهة التركيب، تمثلها العينات 12 و14. فالعينة رقم 12 عبارة عن مجموعة متماسكة من البلّورات التامّة التبلور من فلسبار قلوي ذي لون رمادي، وربما كان من نوع الأرثوكلاز المتحوّل إلى الكاولين، وهذا المعدن هو أهمّ عنصر في تكوين تلك الصخور. أمّا الكوارتز فغير ظاهر في العيّنة المذكورة التي يبلغ ثقلها النوعي نحو 5.2، ما عدا الفلسبار، فتوجد في الصخور بلورات صغيرة جيّدة التكوين خضراء قاتمة اللون من الهورنبلند، على أن نسبة هذا المعدن في هذه الصخور أقلّ منها في الصخور الممثلة بالعيّنات 17 و21 من جبال العوينات التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

والعيّنة رقم 14 هي قطعة من صخر رمادي اللّون، أهم عناصره فلسبار قلوي رمادي اللون ومعه بلورات من الهورنبلند بنسبة تعادل الموجود منه في العيّنة رقم 12. وقد ظهر من الاختبار الميكروسكوبي لجزء صغير من العيّنة رقم 14 أنّ هذا الصخر الأخير يطابق تماماً وصف العيّنة رقم 12، ويزيد عليه احتمال وجود معدن النفلين في مناطق في القطاع وتقابلها في العينة نفسها بقع سمراء لامعة ترى بالعين المجردة، على أنه لم يتحقّق وجود النفلين بوجه التأكيد.

ومما تقدّم يمكن اعتبار العيّنات 12 و14 من الصخر المعروف بالسيانيت. وتخترق صخور السيانيت في جبال العوينات عروق مختلفة من أحجار نارية أخرى تدل عليها العيّنات 11 و13 و15، ولا شكّ في وجود غيرها لم تلتقط منه عينات.

فالقطعة رقم 11 تمثل عرقاً من صخر دقيق التبلور من اللون الأخضر القاتم، يظهر على سطحه اسمرار نتيجة تأثير العوامل الجويّة، وعليه عدد كبير من النقاط السوداء التي لا ترى في داخل الصخر.

وقد ظهر من الفحص الميكروسكوبي أنّ لهذا الصخر أهميّة خاصّة، فهو مكوّن من

أرضية من البلورات الصغيرة من الفلسبار دقيقة أو ميكروسكوبية في بعض الأجزاء، منتشرة فيها بلورات رفيعة من معدن أخضر يشبه الأيجيرين، وتوزيع هذه البلورات الأخيرة ليس توزيعاً منظماً، فحيث توجد بلورات الفلسبار بشكل المعين Lozenge نرى بلورات الايجيرين مكدّسة حول حروفها. أما معدن الكوارتز، فلم يلاحظ في أيّ جزء من القطاع الميكروسكوبي، ولذلك يمكن اعتبار الصخر فلسيت الأيجيرين، وهو يشابه كثيراً الصخر الموصوف والمرسوم في كتاب الأستاذ هاركر[1].

أما القطعة رقم 13، فهي من عرق آخر يخترق صخور جبال أركِنو، ويمكن التعبير عنه بالكوارتزيت الأسمر.

والقطعة رقم 15 من عرق آخر من ذي طبقات رقيقة، لونه رمادي قاتم قد تحوّل سطحه من تأثير العوامل الجويّة إلى لون أسمر مائل للاحمرار، وهو في تركيبه عبارة عن أرضية دقيقة الذرات جداً مبعثر فيها بلّورات صغيرة شفافة، وقد أظهر القطاع الميكروسكوبي تشابهاً كبيراً مع القطعة رقم 11 السابق وصفها.

على أنّ الفلسبار المكوّن للأرضية في هذا الصخر الأخير، بلّوراته دقيقة لدرجة لا يمكن معها رؤية

أشكال هذه البلورات حتّى تحت الميكروسكوب، كذلك بلّورات الأيجيرين أصغر وأرق وليست تامّة التكوين. هذا الصخر أيضاً يمكن تسميته مؤقتاً فليست الأيجيرين.

أما جبال العوينات، فهي في معظمها مكوّنة من صخور تمثّلها القطع رقم 17 إلى 21 والتي أهمّ عناصرها المعدنية فلسبار قلوي رمادي اللّون، وربما كان من نوع الأرثوكلاز ومعه قليل من الميكروكلين. وفيها معدن الكوارتز في بلّورات كاملة التكوين ولم يُرَ معدن الميكا فيها، ولكن هناك بلورات تامّة التكوين من الهورنبلند الأخضر القاتم منثورة بكثرة في جميع أجزاء الصخر. والجدير بالذكر أن جميع هذه النماذج المأخوذة من سطح الصخور، انتابها التحلّل من فعل العوامل الجويّة بحيث أصبحت سريعة التهشّم، غير أنّه يمكن اعتبار الصخر نوعاً كثيف البلور من غرانيت الهورنبلند.

---

(1) انظر Harker bu students for Petrology

القطعة رقم 18 هي من نوع آخر من الصخور التي تكوّن الجزء الأكبر من جبال العوينات، ويمكن تسميته بالغرانيت الأحمر القريب من فصيلة الأبليت مع قلّة نسبة الميكا الظاهرة فيه، لأن هذا المعدن سريع التحلّل عادة، فينتج منه أوكسيدات الحديد التي كانت السبب في اكتساب الصخر لونه الأحمر القاتم، أمّا الكوارتز والفلسبار فيكوّنان الجزء الأكبر من الصخر.

وفي جبال العوينات، كما هو الحال في جبال أركِنو، ترى الصخور الغرانيتية الأصلية تخترقها عروق من صخور نارية أخرى، تمثّلها النماذج رقم 16 و19 و22. أما القطعة رقم 16 فهي من عرق الفلسيت الأرجواني، مكوّن من أرضية فلسيتية منتشرة فيها بلّورات من الفلسبار محتفظة بشكلها البلّوري تماماً. والقطعة رقم 19 من عرق من الكوارتز (المرو) ناصع البياض موجود في كهف في أسفل جبال العوينات. والقطعة رقم 22 التي التقطت عند جارة شزّو من الكوارتزيت، وربما كان هذا الصخر أيضاً من العروق التي تخترق الغرانيت في تلك الجهة. وهناك غير ذلك قطعتان تمّ التقاطهما داخل الكهف في واحة العوينات ولهما أهمية خاصة، وهما المشار اليهما برقم 20 و21. أمّا الأولى فهي من الترافرتين ذي الطبقات الرقيقة، ولا شكّ في أنّها ناشئة من فعل المياه الجارية، تدلّنا على ذلك التموّجات الظاهرة على سطحها. ويظهر من المذكّرات التي كتبها الرحّالة وقت زيارته الكهف أنّ هناك كميات كبيرة من هذا الصخر مبعثرة فوق أرضه. وقد أظهر الفحص الميكروسكوبي أن هذه التعاريج السطحية تنطبق مع تراكيب كروية في داخل الصخر، وأنّ في المادة الجيرية الكلسية المكوّنة للأرضية قطع صغيرة من الكوارتز والفلسبار، وهذه لا شكّ يرجع أصلها إلى تفتّت الصخور الغرانيتيّة، ولم يوجد فيه أثر لمواد عضوية.

أمّا القطعة الثانية رقم 21 فهي من غرانيت الهورنبلند الذي تتكوّن منه جبال العوينات ومنه أيضاً سقف الكهف. ويرى على أحد جوانب هذه القطعة قشرة رقيقة من أوكسيدات الحديد والمنغنيز تشبه القشرة التي تعلو سطح الصخور الغرانيتية في شلالات أسوان في نهر النيل.

وربما كانت هذه المنطقة العظيمة من الصخور النارية التي تحتوي الجبال والواحات المكتشفة حديثاً في أركِنو والعوينات محدّدة، كما يظهر بوجه التقريب على الخريطة

المرفقة، وتحيط بها طبقات التكوين الرملي النوبي، كما هو الحال في مناطق كثيرة مماثلة ومبيّنة على الخريطة الجيولوجية للقطر المصري.

وقد علّمتنا الخبرة في مناطق أخرى مماثلة، حيث توجد الصخور النارية محاطة بالحجر الرملي النوبي، أن هذه الطبقات الأخيرة قد تكوّنت في أوّل الأمر على سطوح الصخور النارية القديمة التي ارتفعت بعد ذلك جرّاء الحركات الأرضية الداخلية، بعد انثناء الطبقات الرملية الموجودة فوقها والمحيطة بها. على أنّه في الحالة التي نبحثها الآن يظهر أن هذا الانثناء لم يكن لدرجة كبيرة، إذ إننا لا نرى في الصور الفوتوغرافية ما يدلّ على أن الطبقات الرملية مائلة ميلاً ظاهراً.

ولما ترك الرحّالة جبال العوينات واتّجه جنوباً ترك وراءه الصخور النارية، كما يظهر على الخريطة نقطة انتهاء تلك الصخور، وابتداء طبقة التكوين الرملي النوبي ثانياً المشار ليها بحرف D على بعد 20 كيلومتراً جنوب العوينات. وهنا تعود المناظر الطبيعية فتتغير مرّة أخرى، من جبال وعرة قاتمة اللون إلى هضاب مستطيلة من الصخور الرملية ذات الألوان الساطعة، ويبلغ ارتفاع هذه الهضبات نحو 1000 متر فوق سطح البحر بين أنبياه وكتم، ومن ثم ينحدر متوسط منسوب سطح الأرض تدريجياً حتى الفاشر حيث يبلغ ارتفاع الأرض نحو 700 أو 800 متر عن سطح البحر.

الخلاصة

مما تقدّم يمكن تلخيص الظواهر الجيولوجية التي بيّنتها لنا هذه الرحلة الاستكشافية في النقاط الآتية:

تمتد طبقات العصر الميوسيني جنوباً حتى الخط 27 شمالاً تقريباً فتكون نتوءاً عظيماً تحيط بها صخور تابعة لعصور جيولوجية أقدم منها.

إنّ الطبقات الميوسينية التي تلي مباشرة طبقات التكوين الرملي النوبي تتبع هنا القوانين نفسها التي قدّرها الدكتور هيوم لأوّل مرّة، في ما يختص بمنطقة خليج السويس، والتي تقع فوق طبقات أكثر قدماً، من الشمال إلى الجنوب، التي يمكن تفسيرها بأنه قبيل العصر الميوسيني تعرّضت هذه المناطق لعوامل التعرية التي كانت أشدّ في الجنوب من الشمال، لارتفاع الأجزاء الجنوبية من جراء حركات أرضية سابقة.

إن هناك منطقة هائلة في خط 27 جنوباً تغطيها طبقات من الحجر الرملي النوبي التابعة للعصر الكريتاسي.

اكتشاف جبال من صخور نارية في أركِنو والعوينات داخل الحدود المصرية، وهي إما محاطة من جميع نواحيها بطبقات الحجر الرملي النوبي، أو متّصلة بلسان من الصخور الغرانيتية إلى سلسلة غرانيتية كبرى واقعة في الجنوب.

لم يصادف الرحّالة طبقات كريتاسية أحدث من التكوين الرملي النوبي، مع أن هذه الطبقات معروفة في الشمال الشرقي من هذه المنطقة، كما هو مبيّن على الخريطة الجيولوجية للقطر المصري. وربما كان سبب عدم ظهورها هنا أنّها مغطّاة بطبقة حديثة التكوين من الرمل والحصى.

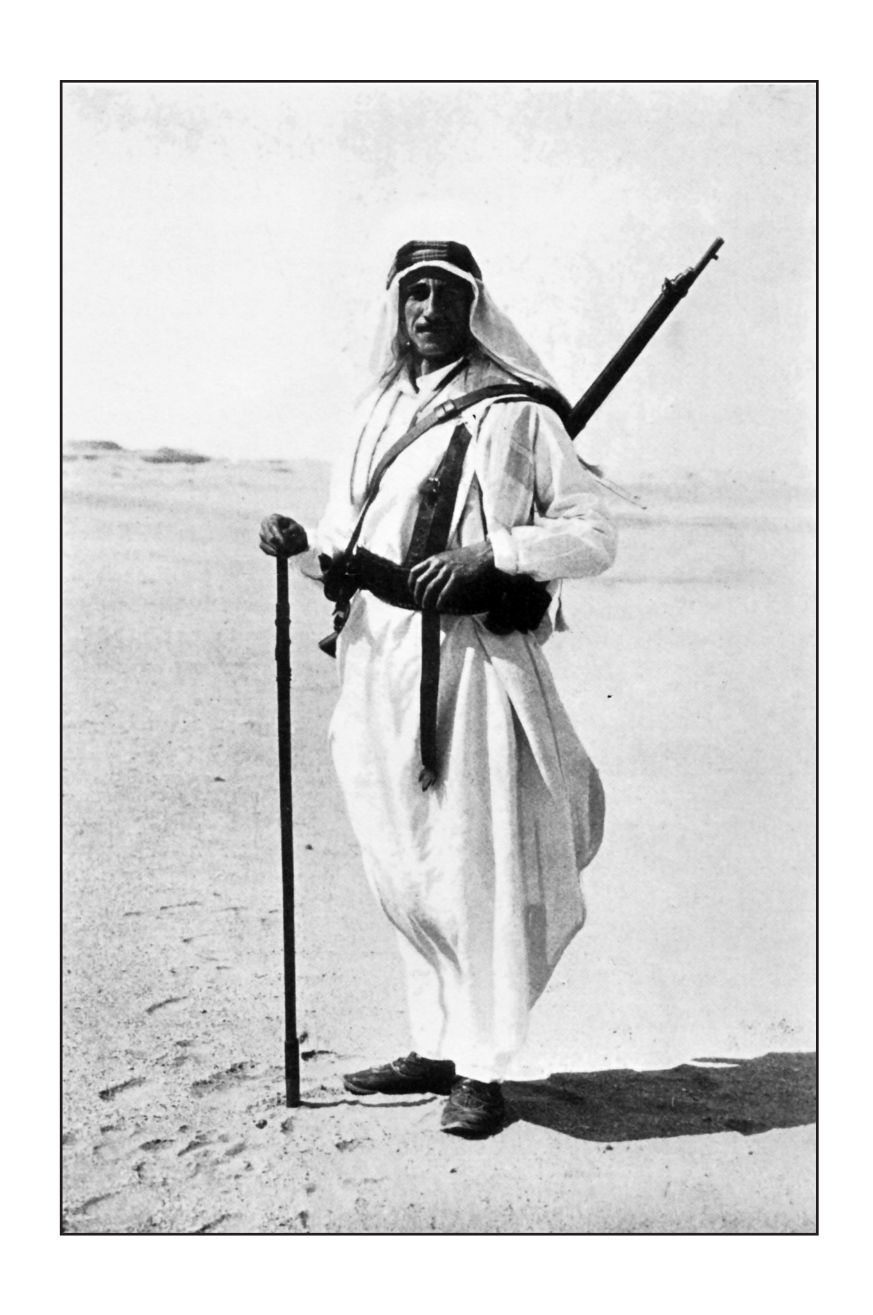
بيان العينات الجيولوجية التي جمعها حسنين بك في رحلته من السلوم إلى دارفور

العينات	الجهة حسب البطاقات المقدمة	التاريخ سنة 1923	رقم متسلسل
ثلاث قطع من بلورات السينيت ومحارة واحدة من الاوستريا Ostrea وربّما كانت من طبقات ميوسينية	واحة سيوة	–	1–
محارة بكتن Pecten في حجر جيري مكون من بقايا المحارات، ومن المحتمل أن تكون هذه أيضاً من الميوسين.	جغبوب	–	2–
قطعة من الخشب المتحجر وثلاث حصوات سيليسية وعقدين حجريين مستطيلين concretions الحجر الرملي الجيري وألياف بلورية من الملح طولها 5 بوصات ومقوسة	الصخور السطحية في الطريق بين جغبوب وجالو	–	3–
حصاتان من الحجر الرملي الجيري ومعهما حبيبات من الكواتز	مبعثرة في رقع صغيرة بالوادي	20 مارس	4–
قطعة من الحجر الرملي النوبي	قرب بئر الحرش (زيغن) رقع من هذا الصخور منتشرة قبل الوصول إلى الحطب	24 مارس	5–
خمس قطع من الطبقات الحديدية الصلبة في الحجر الرملي النوبي	على مسيرة يوم من الحرش (زيغن في طريق الكفرة)	28 مارس	6–
ثلاث قطع من الحجر الرملي النوبي	جارة الشريف	29 مارس	7–
ثلاث قطع من طبقات حديدية ارجوانية اللون في الحجر الرملي النوبي وقطعة كروية سوداء تشبه القنبلة	جبل الناري الجارات الغربية من الهواري	–	8–

ثلاث قطع من الحجر الرملي النوبي	جبال الكُفرة (التاج)	–	9–
قطعة من الحجر الرملي النوبي وقطعتان من طبقات حديدية في الحجر الرملي النوبي	بين الكُفرة والعوينات من سلسلة من الجبال اخترقت ذلك اليوم	22 أبريل	10–
حجر ناري (فلسيت الأيجيرين)	جبال أركِنو	24 أبريل	11–
حجر ناري سيانيت متحلل بفعل العوامل الجوية	من نقطة في جبال أركِنو وهناك تلال في اطراف الجبل كلها من هذا الصخر	24 أبريل	12–
حجر ناري (عرق من الكوارتزيت)	من رقع كبيرة شمال جبال أركِنو	24 أبريل	13–
حجر ناري (سيانيت رمادي)	من نفس جبل أركِنو	25 ابريل	14–
حجر ناري (فلسيت الأيجيرين)	جلاميد كبيرة مدفونة في وادي أركِنو على حافة جبل أركِنو	25 ابريل	15–
حجر ناري (فلسيت)	عينة من تكاوين ذات طبقات في وادي العوينات الكبير	–	16–
حجر ناري (غرانيت الهورنبلند) متحلل من تأثير العوامل الجوية	جبال العوينات أغلبها من هذا الصخر	–	17–
حجر ناري (غرانيت) متحلل من تأثير العوامل الجوية	الصخر التي تتكون منه أغلب العوينات	–	18–
حجر ناري (عرق الكوارتز أو المرو)	التقطت داخل كهف الماء في العوينات قرب منسوب الماء وتوجد رقع كثيرة منه	–	19–

رواسب جيرية من المياه الجارية (ترافرتين)	التقطت داخل كهف المياه العوينات	–	20–
حجر ناري (إرانيت الهورنبلند) متحلل بفعل المؤثرات الجوية ومغطى بقشرة حديدية لامعة ربما كانت من تأثير المياه	من سقف كهف الماء بالعوينات أغلب الصخور المكونة للكهف وللجبل من هذا النوع	–	21–
حجر ناري (كوارتزيت) دقيق التركيب	من حجارة شزّو قرب العوينات	8 مايو	22–
قطعة من الحجر الرملي النوبي	موجود منثور فوق الرمل الأحمر قرب إردي لا يوجد سوى الرمل الأحمر وهذا الصخر	10 مايو	23–
قطعة من طبقة حديدية تحتوي على الهيماتيت (أوكسيد الحديد) من الحجر الرملي النوبي	موجود منثور فوق الرمل الأحمر قرب إردي لا يوجد سوى الرمل الأحمر وهذا الصخر	13 مايو	24–
طين أحمر غامق وفيه نسبة صغيرة من الرمل (ويطحن إلى مسحوق طوبي غامق)	تلال إردي	16 مايو	25–
طين احمر طوبي وفيه نسبة صغيرة من الرمل (ويطحن إلى مسحوق أحمر طوبي ساطع)	صخور تلال إردي	16 مايو	26–
رمل ميكائي رفيع ناعم يختلف لونه بين الأحمر والأصغر وفيه نسبة صغيرة من الجير	تلال أجاة	16 مايو	27–

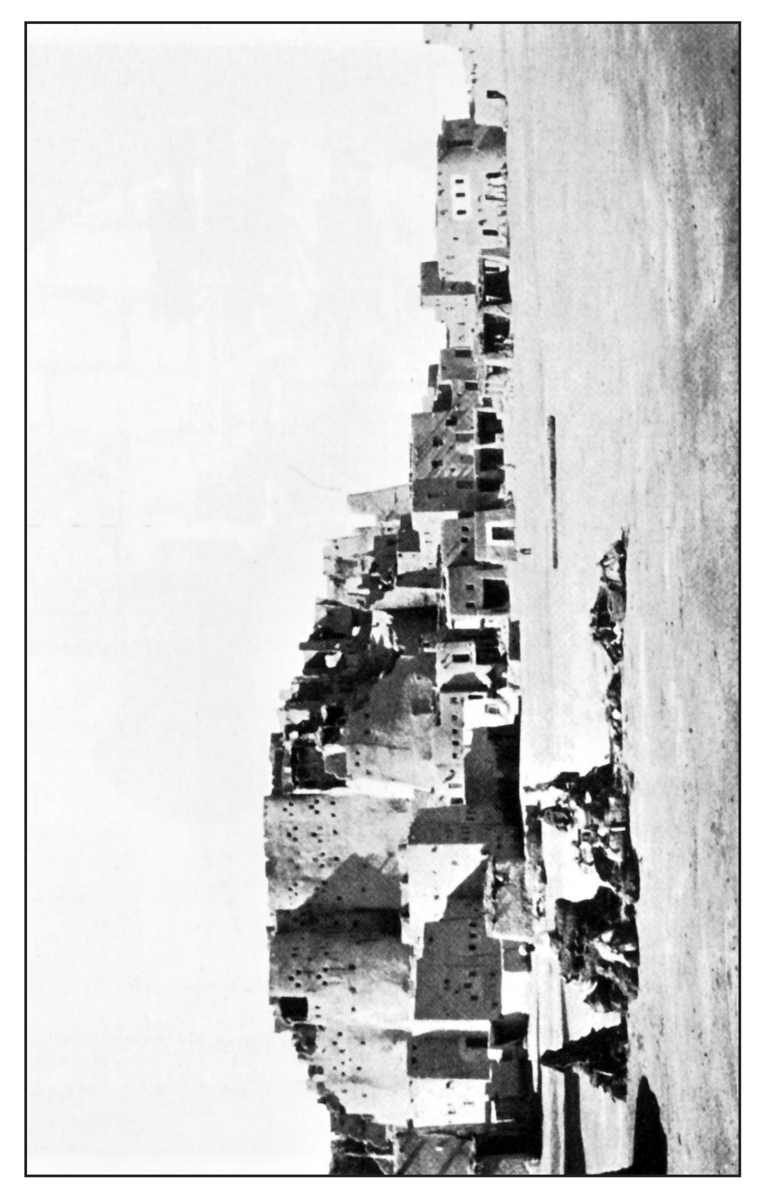
صور الكتاب



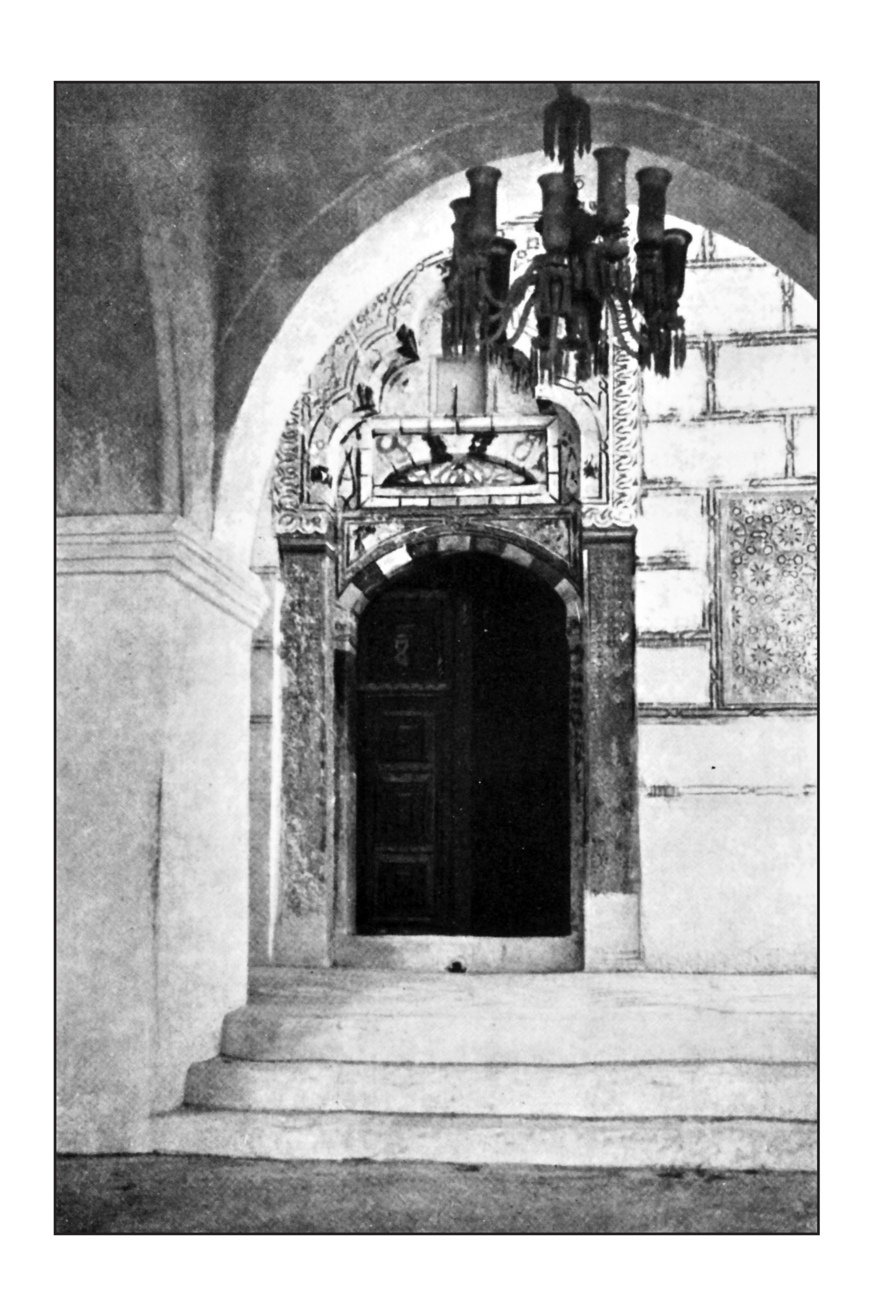
أحمد حسنين



جلالة ملك مصر فؤاد الأوّل

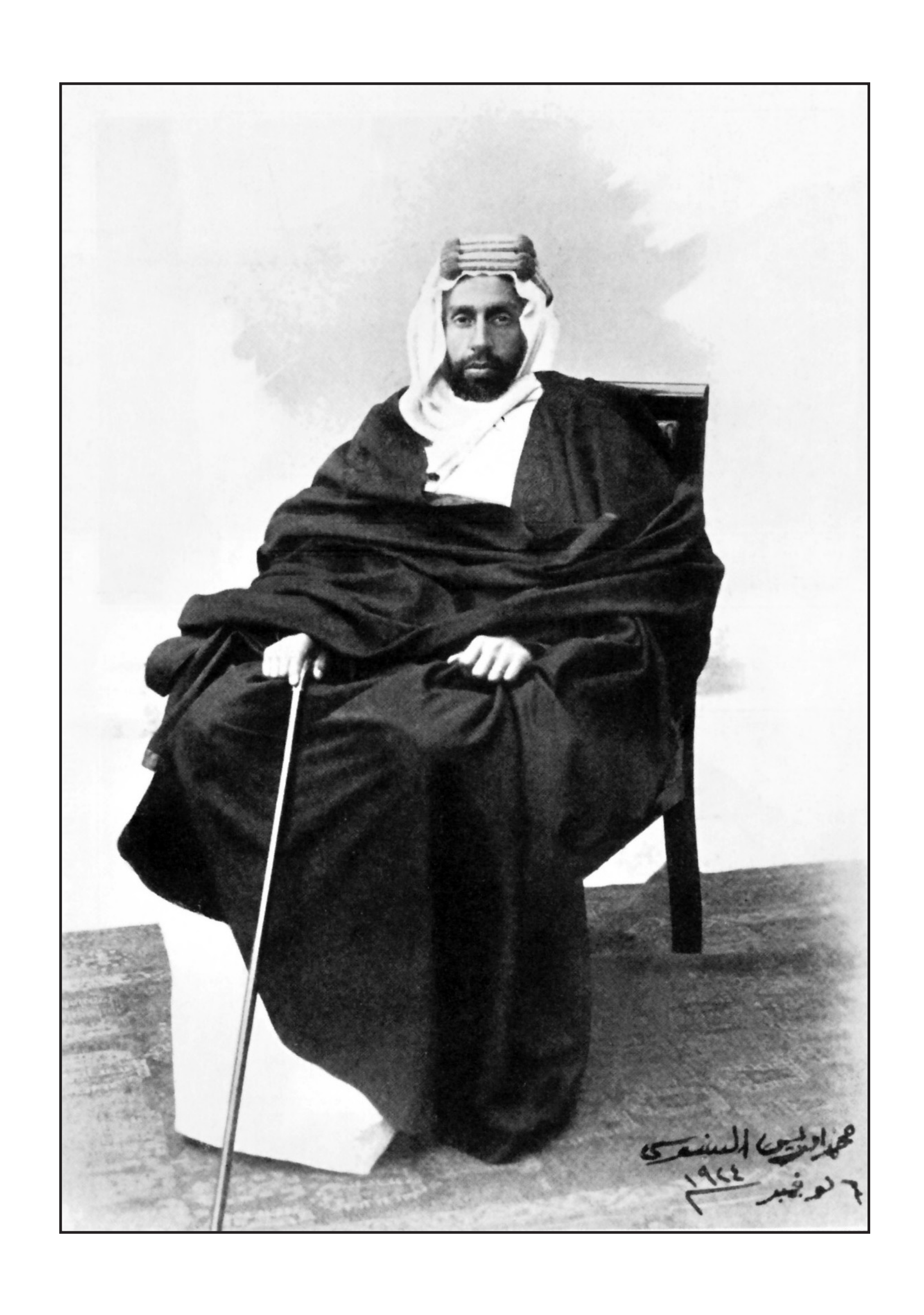


سيوة

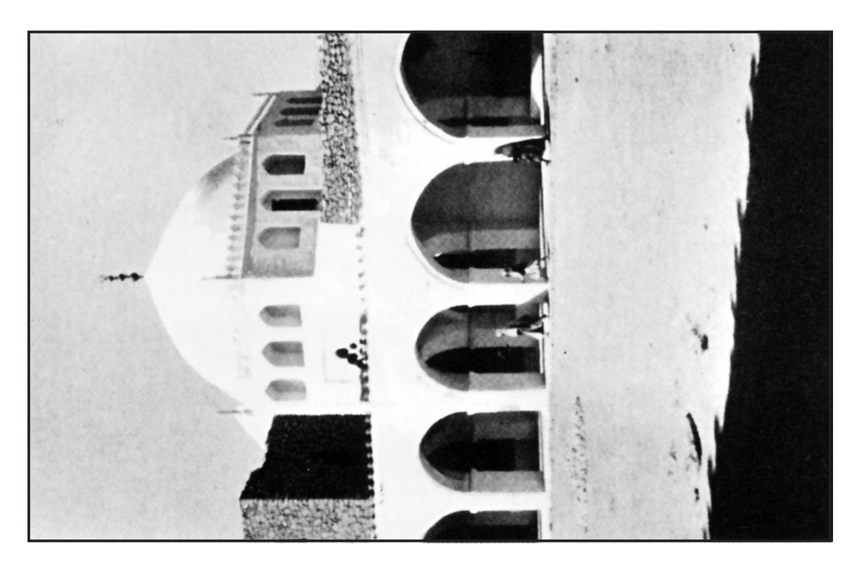


باب مقبرة السنوسيّ الكبير

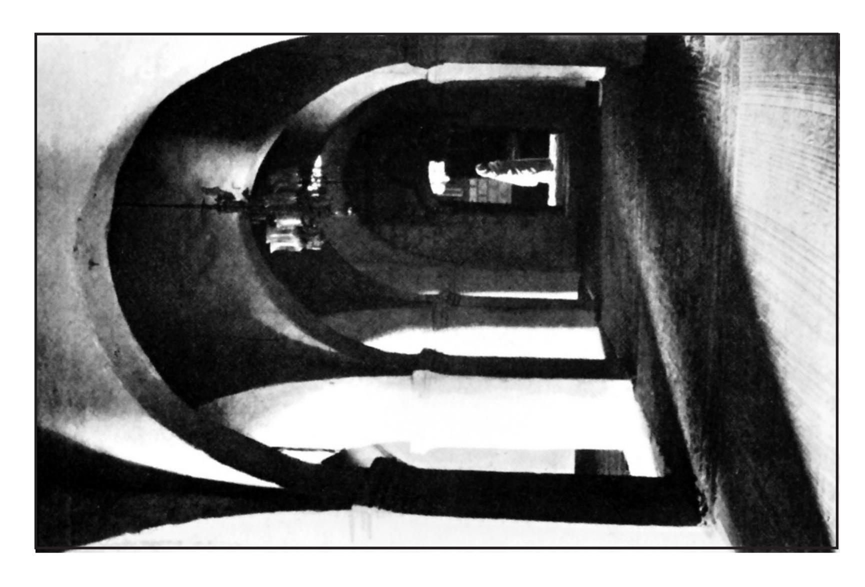
السيّد إدريس السنوسيّ



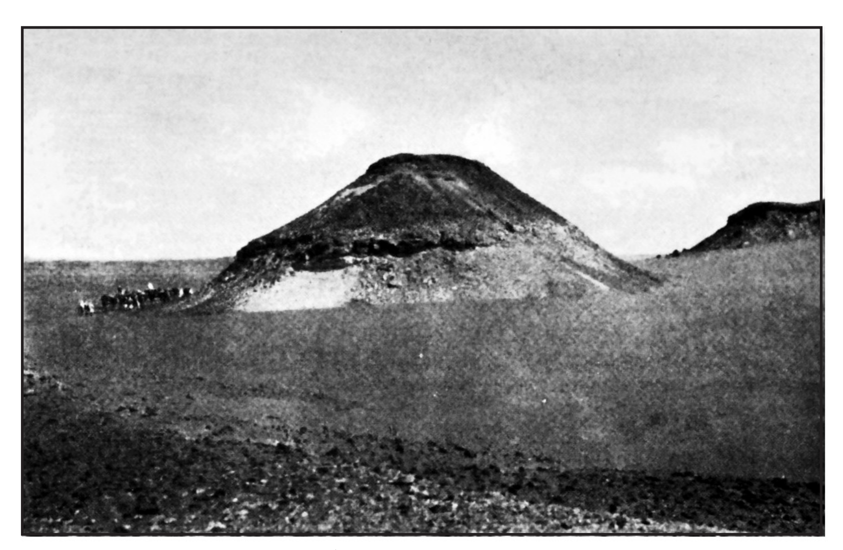
السيّد إدريس السنوسيّ



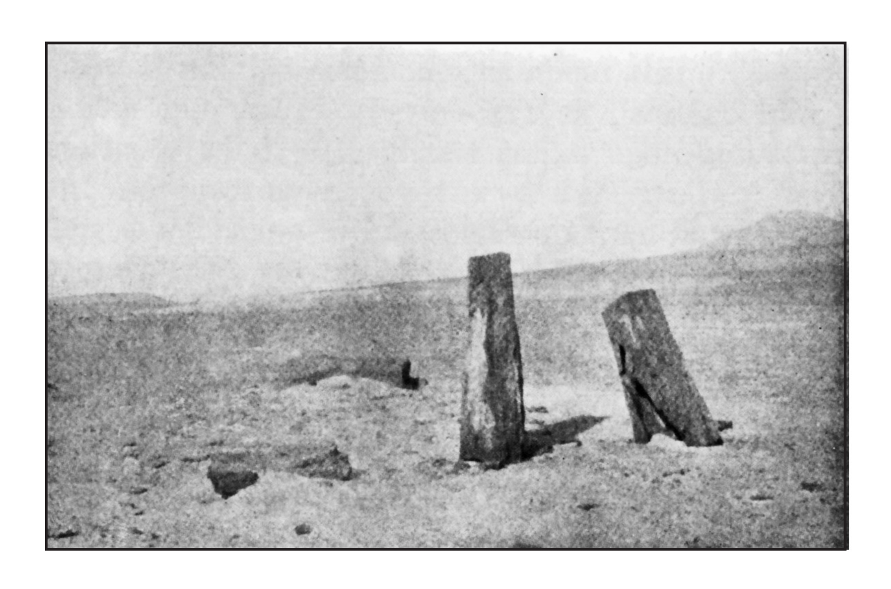
قبّة مسجد جغبوب



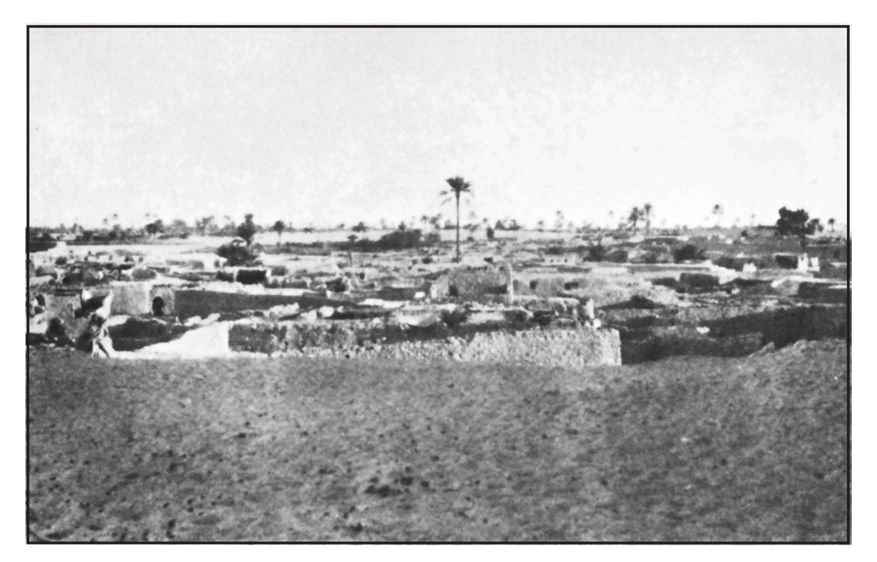
الزاوية في مسجد جغبوب



الهواريّة، أحد أعلام الكُفرة



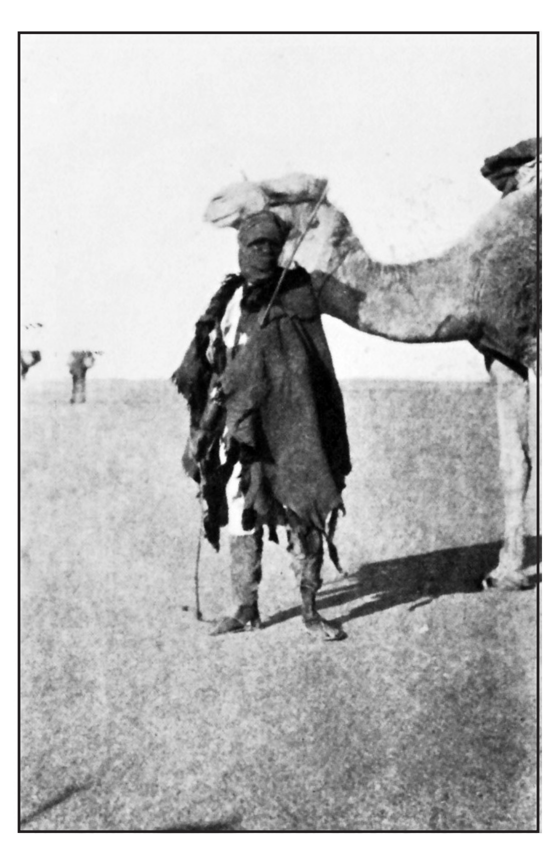
آثار غابة متحجّرة على طريق جالو



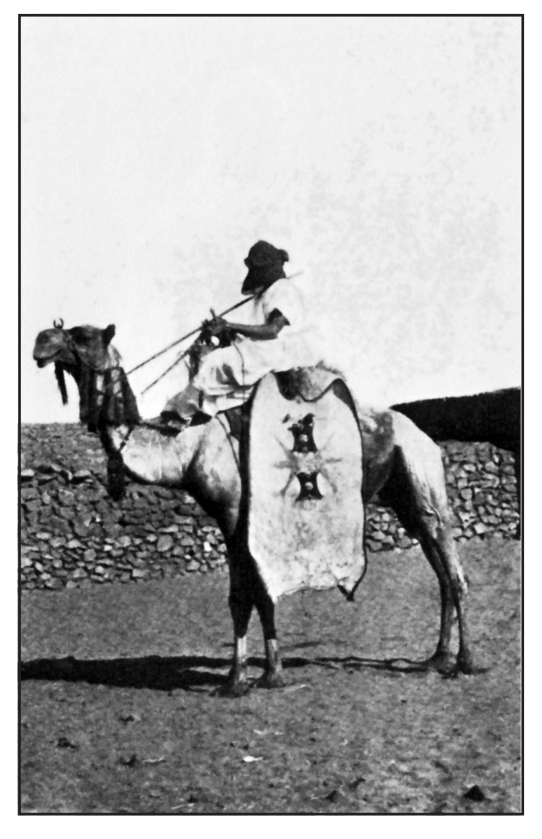
جالو



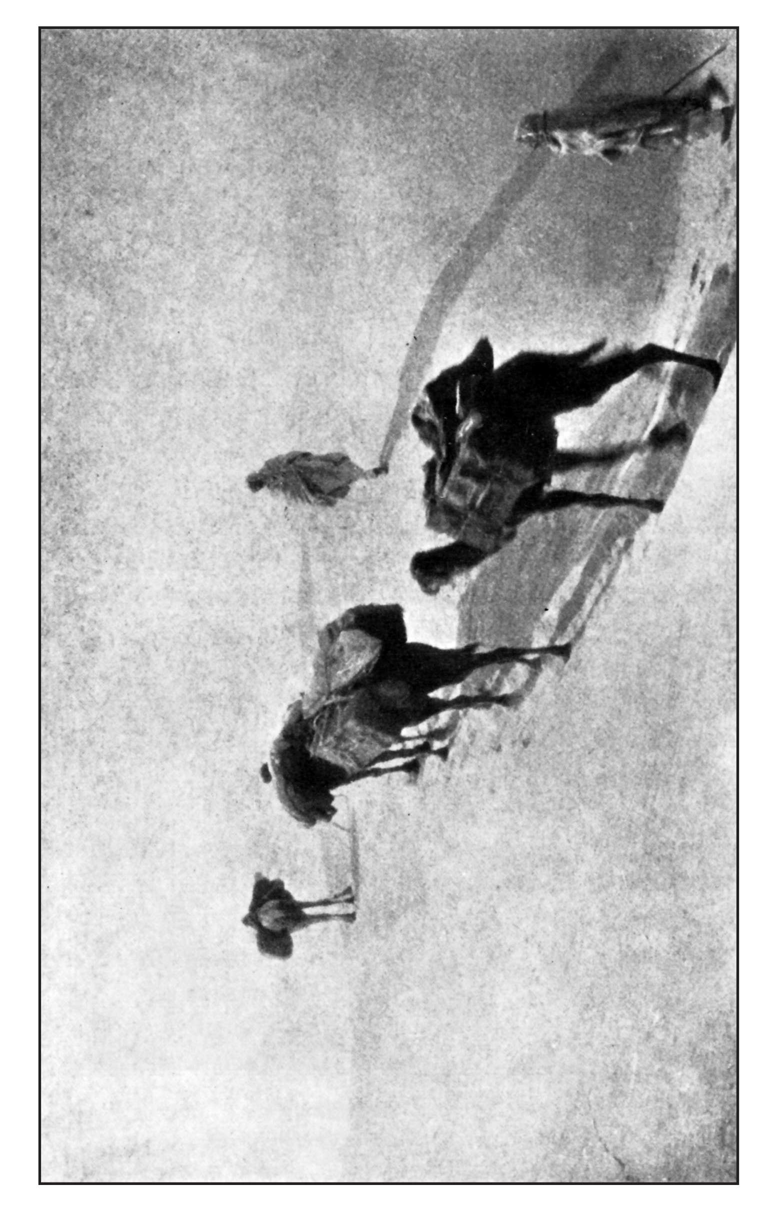
التاج، مقرّ السنوسيين الرئيسي في الكُفرة



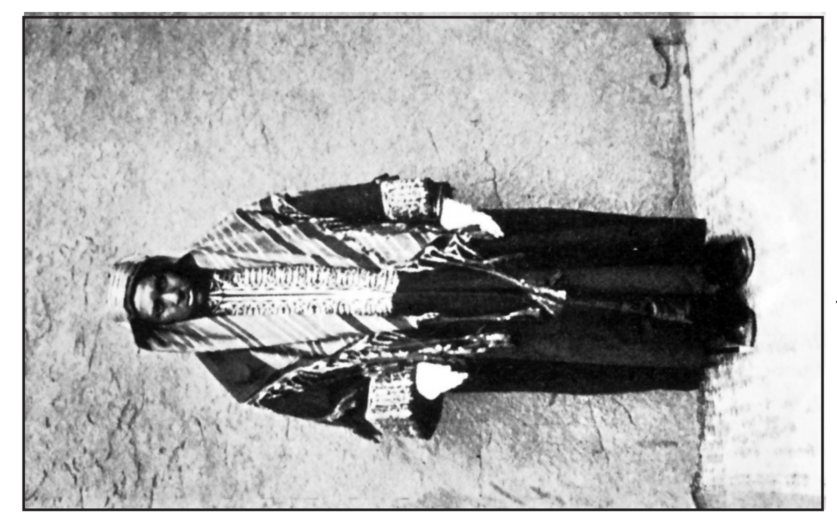
أحد أفراد التبو مع جمله



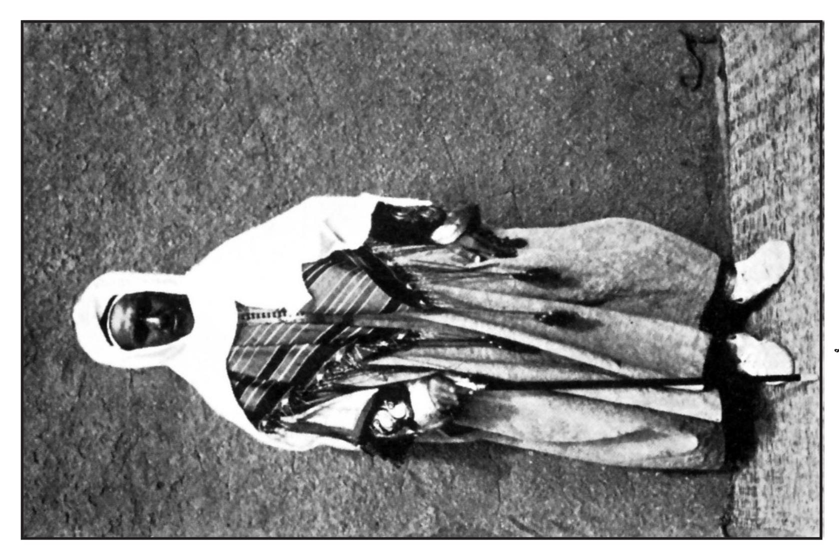
الجمّال توارق مع درع خفيّ والرماح وعدّة القتال



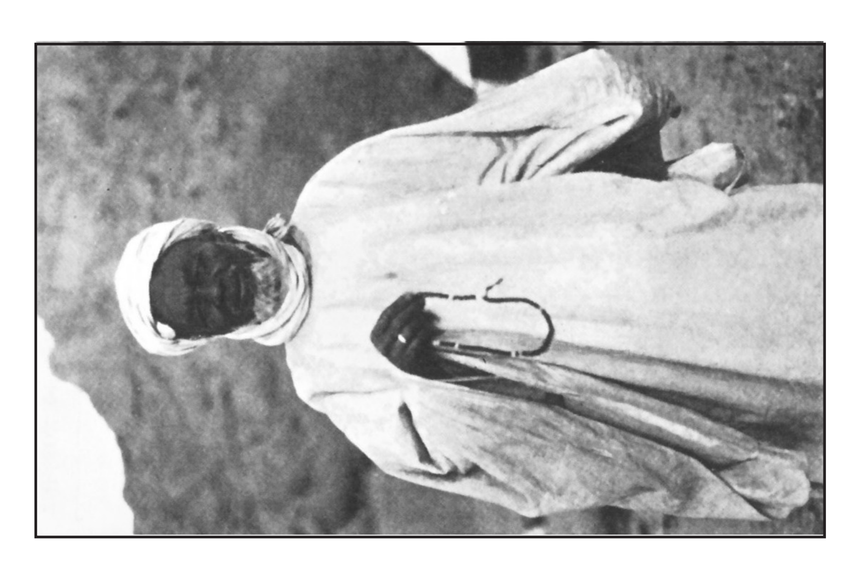
الجمال تخترق التلال الرملية



ابن حاكم الكُفرة



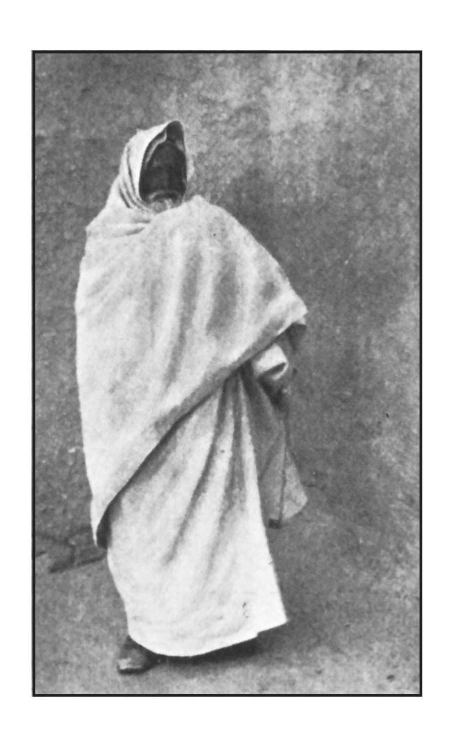
أمير سنوسيّ في الكُفرة



((ملك)) العوينات



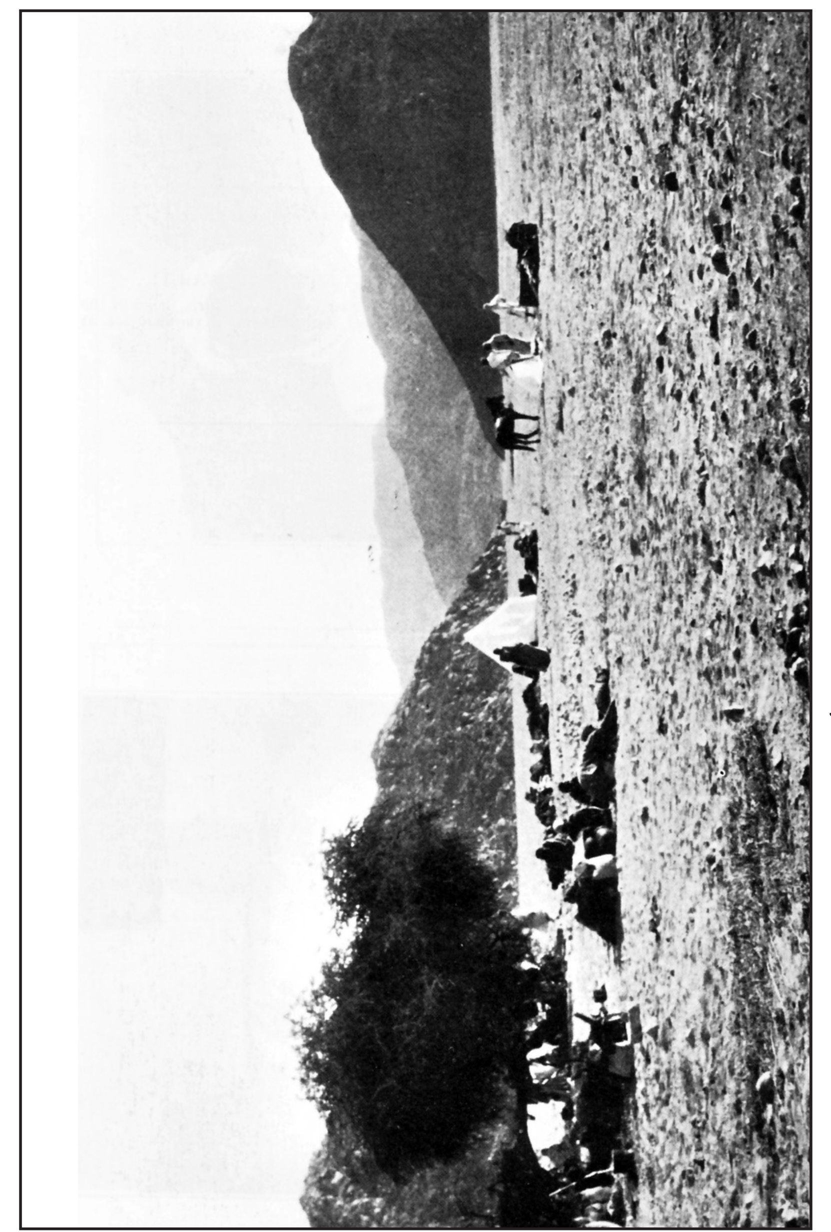
السيّد محمد العابد



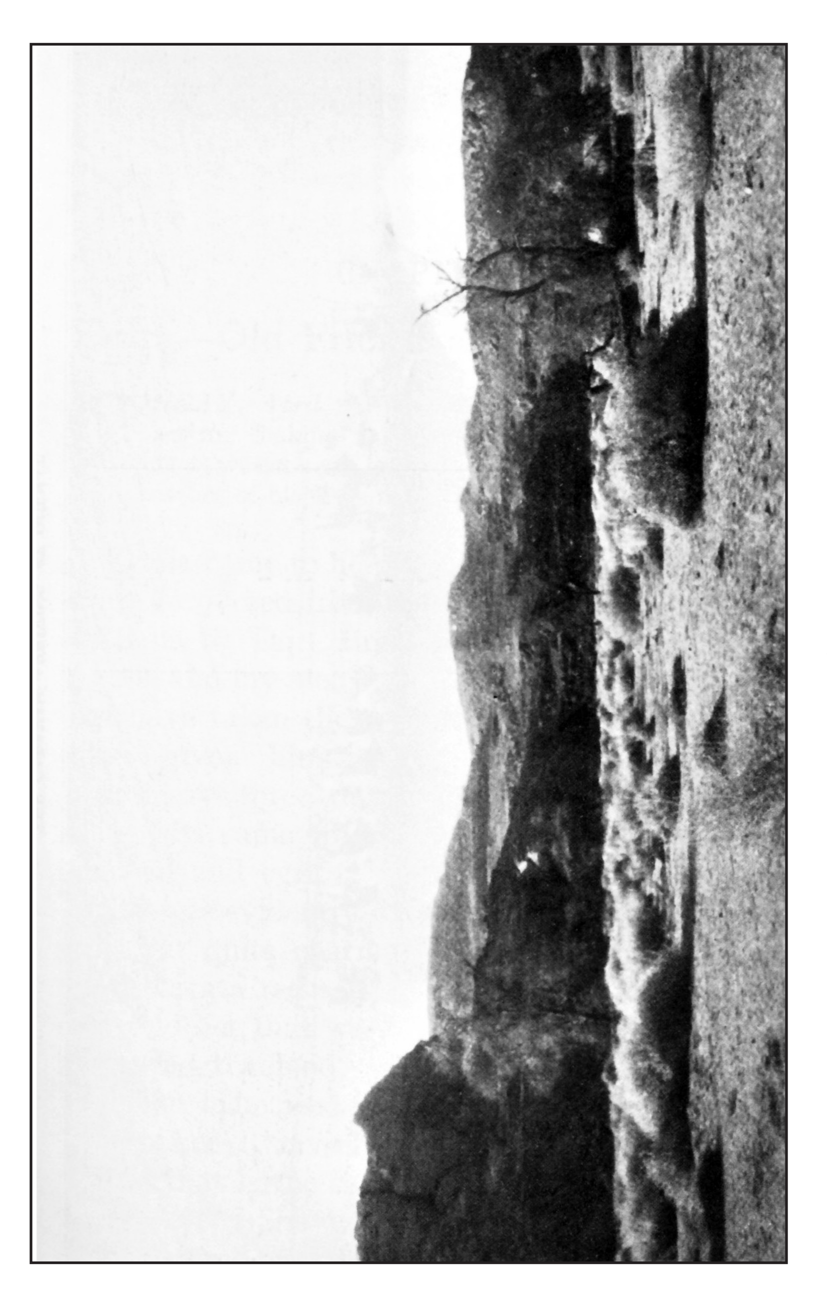
السيّد حسين وكيل



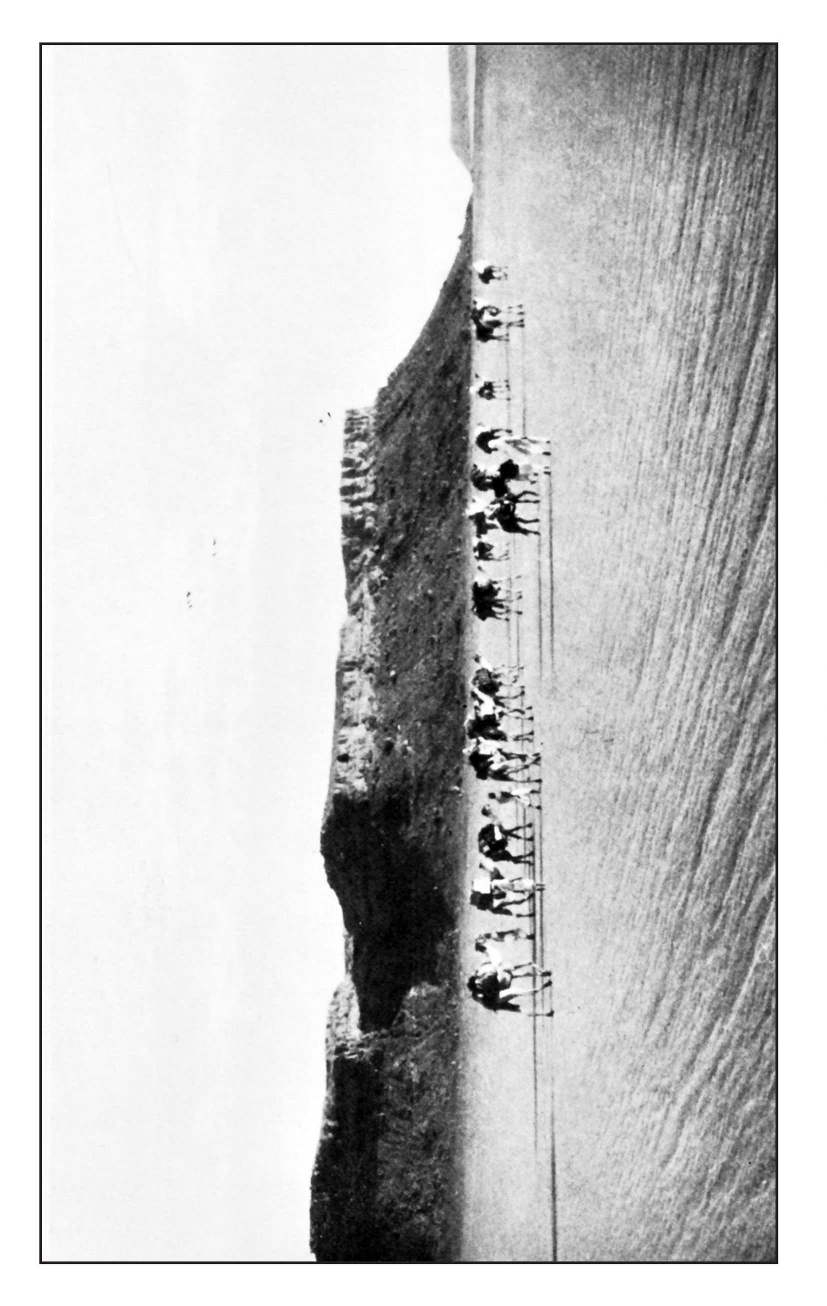
مجلس الكُفرة



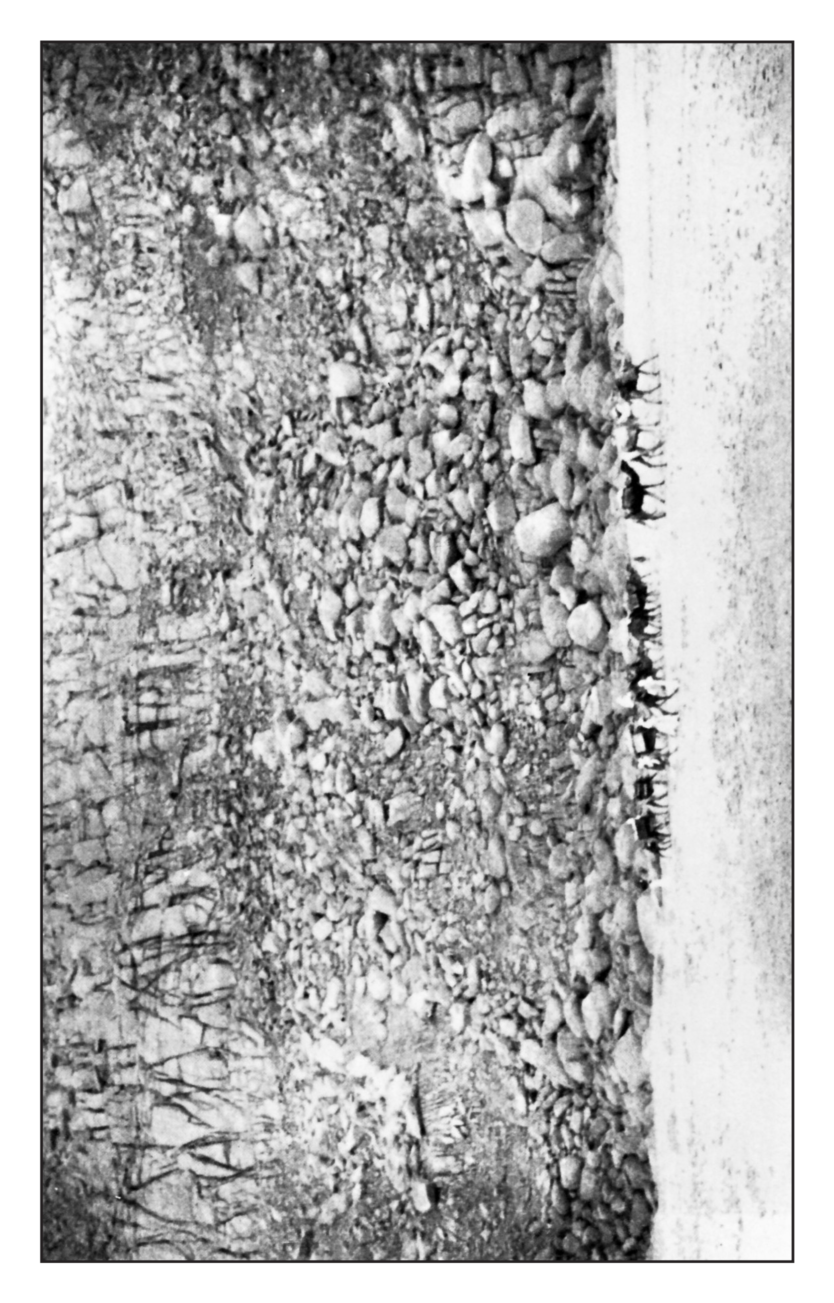
منظر الصحراء من تلال أركنو



وادي العوينات

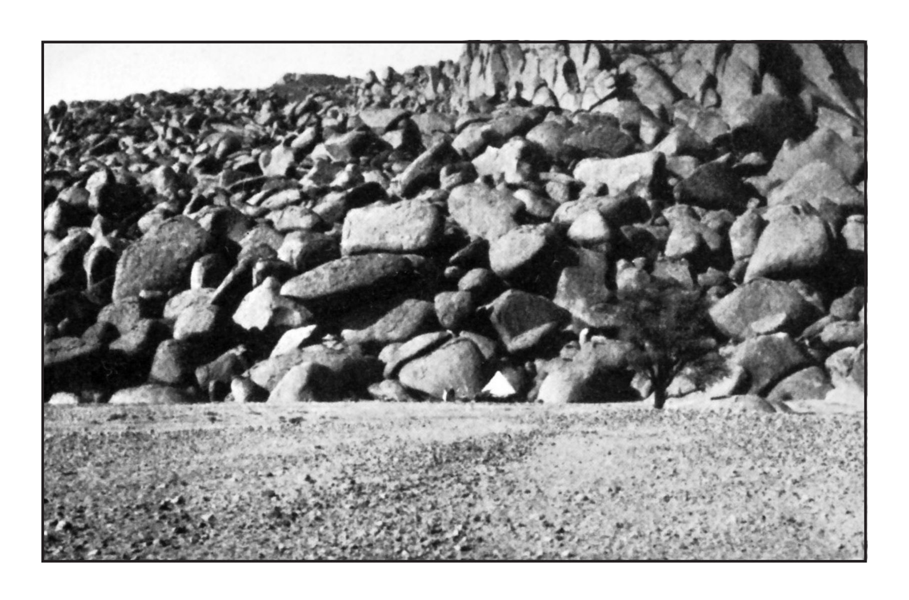


القافلة لدى وصولها الى العوينات



القافلة تقترب من تلال الغرانيت في العوينات

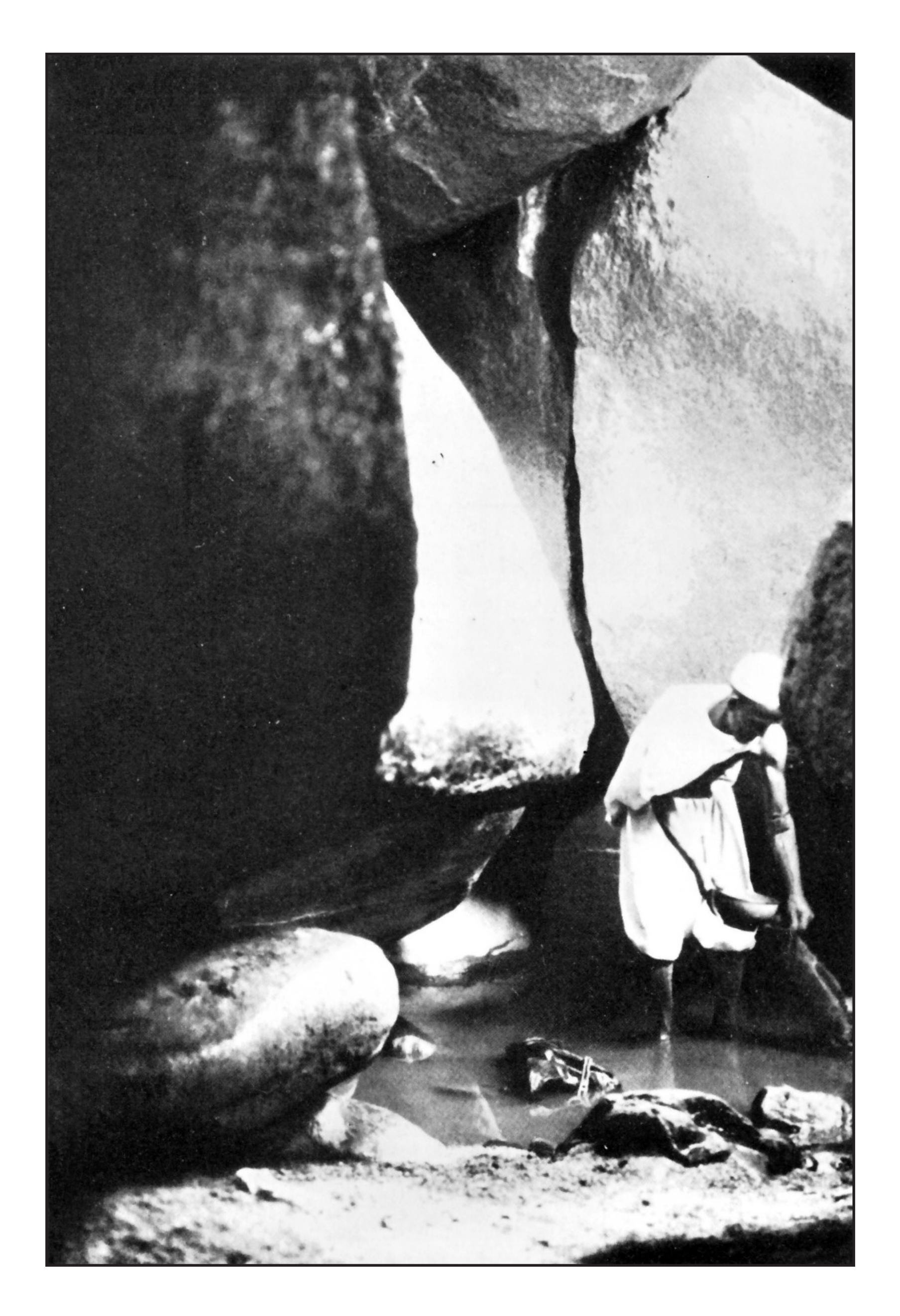
الحفريات الصخرية التي استُكشفت في العوينات



تلال العوينات



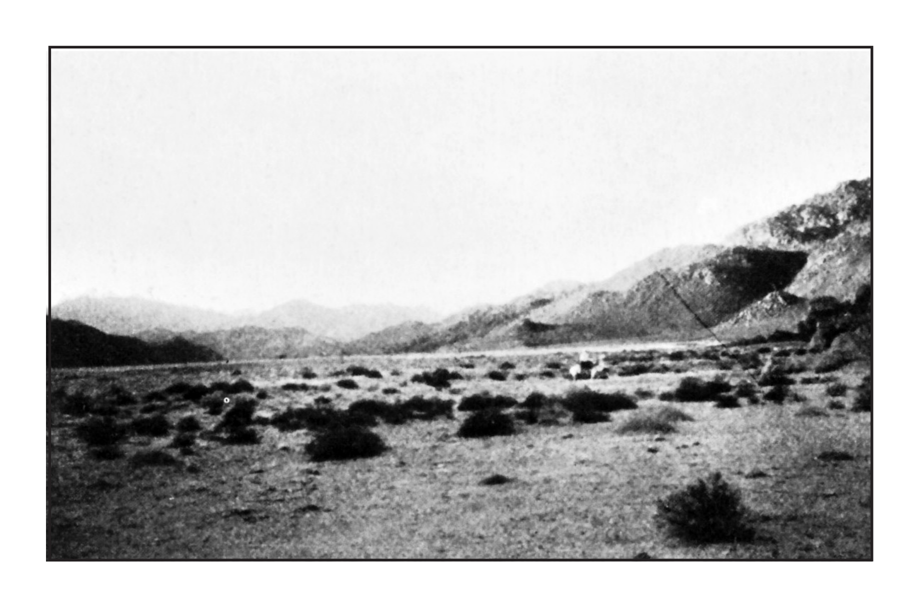
مخيّم المستكشف عند قدم تلال الغرانيت



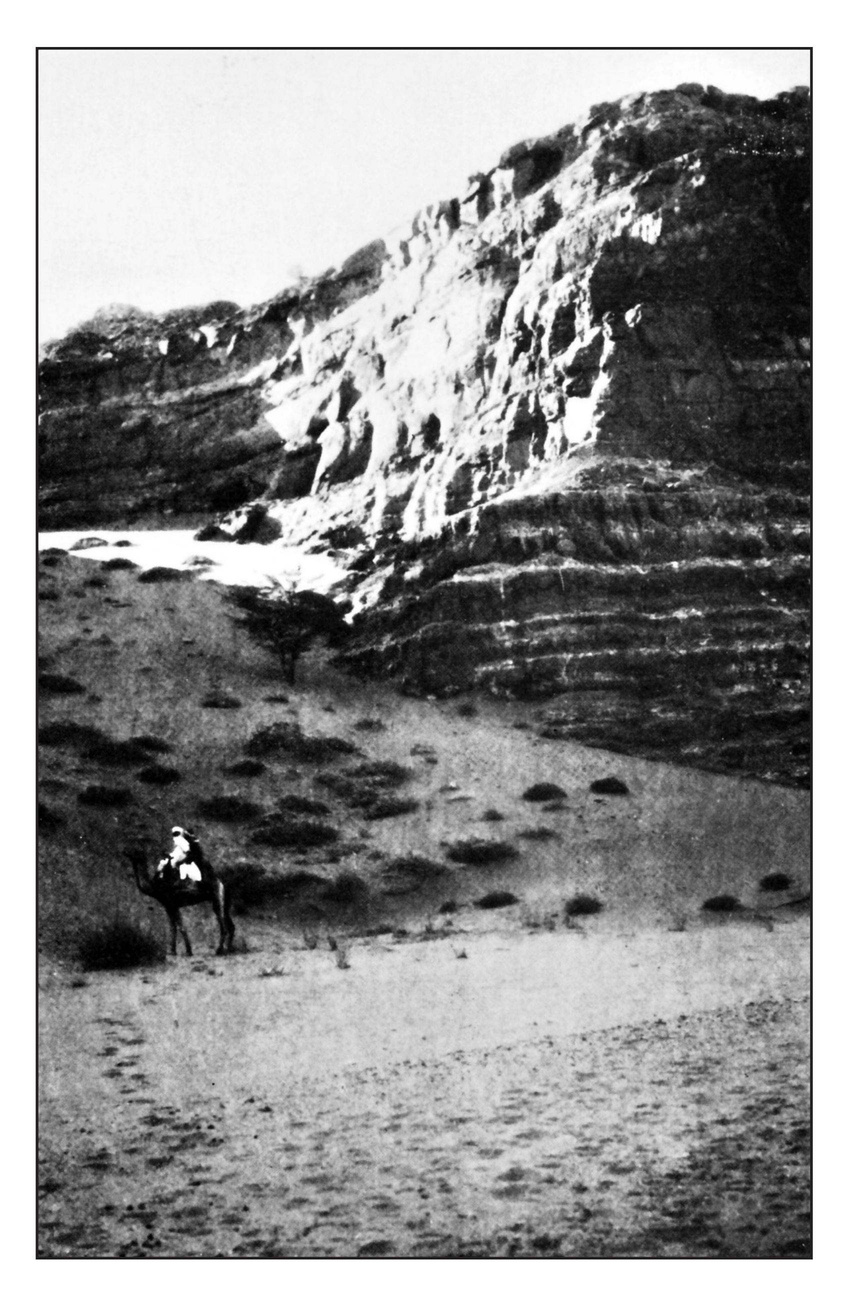
آبار الوادي الصخرية المُستكشفة في العوينات



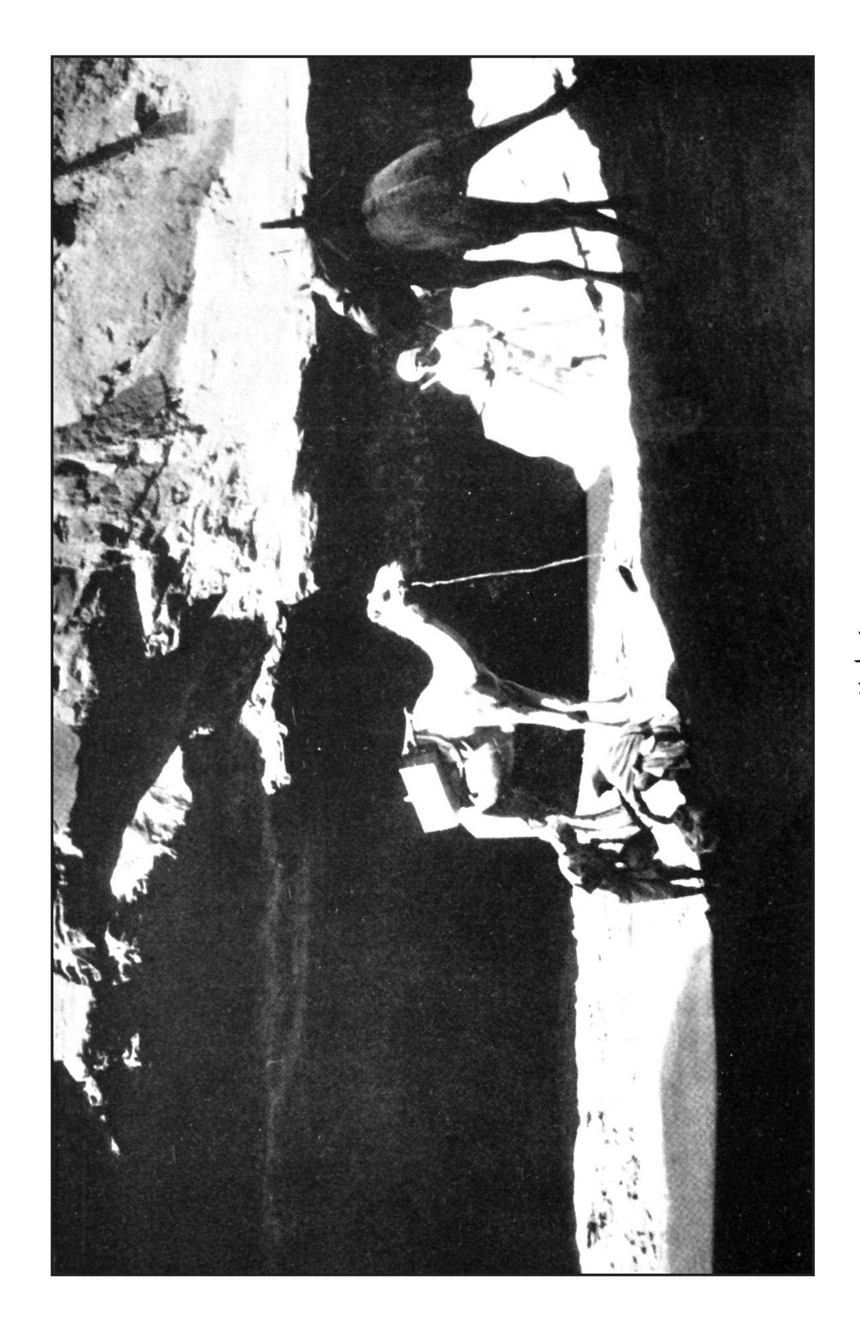
وادي إردي



وادي أرِكنو



الشجرة الأولى على مقربة من إردي



بئر إردي



فتاة من قبيلة «الزغاويّة»



عائلة من البديّات

فهرس المحتويات

الملاحق

* * *

الواحات المفقودة

يروي الديبلوماسي المصري أحمد حسنين بك في هذا الكتاب مجريات رحلته في عام 1923 من مرسى مطروح إلى واحتي سيوة والكفرة وإلى مجاهل الصّحراء الليبيّة.

دامت هذه الرحلة المليئة بالمخاطر مدّة ثمانية أشهر، ووصل فيها إلى التخوم الغربيّة لبحر الرّمال الكبير والأبيض في السّودان، فاجتاز 2200 ميل، وتوصّل إلى اكتشاف واحتين مفقودتين هما أركنو والعوينات في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة للحدود المصريّة، وعثر على كميّات من النقوش البدائيّة القديمة التي تمثّل أسوداً وزرافات ونعامات وغزلاناً.

دلّت هذه الاكتشافات المبهرة على وجود حضارة بشريّة عمرها آلاف السنين، كما دلّت على أنّ الصحراء الكبرى كانت في يوم من الأيام تنعم بالخضرة.

وهذا ما أثار في وقت لاحق عدداً من المستكشفين الأجانب للسير على خطى حسنين ودراسة هذه الاكتشافات المهمة بشكل أوسع.



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE